الحـــلَّاج

محمد سامي البوهي

الكتـــــــاب: **الحــــــــــــلاج**

المــؤلـــــف: **محمد سامي البوهي**

تصميم الغــلاف: **مروة فتحي**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقــم الإيــداع: 2016/ 0000

الترقيــم الدولــي: 7 - 072 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

الكيو آر

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223952354 **- موبايل:** 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

الحلَّاج

محمد سامي البوهي

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

قلوب العاشقين لها عيون
ترى ما لا يراه الناظرونا

إهداء

إلى "العتق" الذي كلما ابتعد عني؛

كبَّلني...

إلى الحنين والياسين

"ليس الطريق وحده ما يأخذك إلى حيث المنتهى

فهناك من الطرق ما لا ينتهي

لكنه النور وحده ما يجمع كل النهايات"

الكاتب،،

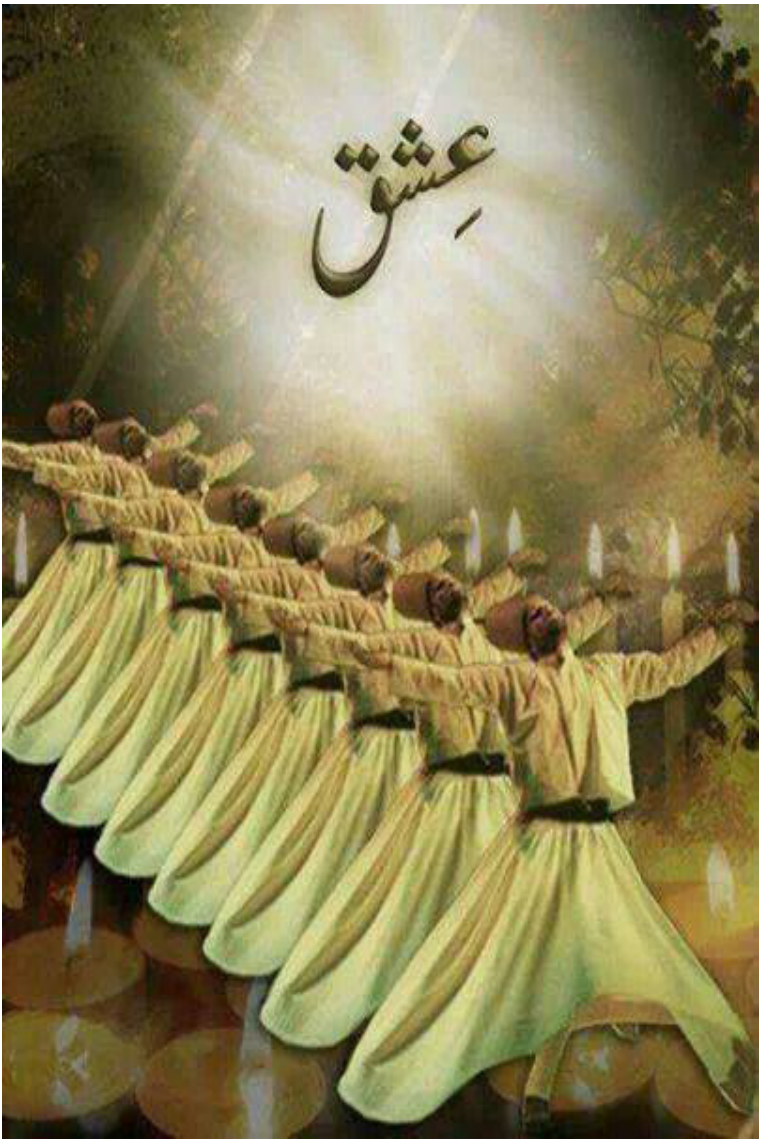
عِشق

(# خارج النطاق)

واللّه ما طلعت شمسٌ ولا غرُبت

إلا وحبُّك مقْرونٌ بأنفاسي

ولا خلوْتُ إلى قومٍ أحدّثُهُم

إلا وأنت حديثي بين جُلاسِي

ولا ذكرتك محزونًا ولا فَرِحًا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ

إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكأس

انطلقَ ملاكٌ من السماءِ الرابعةِ يحملُ قمرًا مكتملاً على جناحِه الأيمن في ليلةٍ ظلماءِ، طافَ حول الأرضِ سبعًا، ثم قذفَ به في "الفرات"، فنفذ شعاعٌ من جوفِ النهرِ مخترقًا صفحة الماءِ المُنحدر من السماءِ، لم تُخلق حلقاتٌ، أو موجاتٌ مضطربةٌ على إثر ذلك، فقط انساب الشعاعُ في مجرى النهرِ فحوَّله إلى خطٍ طويل من فضة الأرفلون، فتهافت العارفون على الفيض يغترفون منه بأكُفِّهم غرْفة واحدة، شربوا منها، وتوضئُوا، فثار الفيض، واضطرب، زاد النورُ توهجًا، وعَلا صوت الذاكرين (من بيّن الخُطى، نُحصي خُطانا، كم منها يصعدُ للسما؟ وكم منها تجذبها الأرضين؟، فلا نجدُ سوى خطوةٍ تحجلُ بين الدُّنا، وخطوة يُكبلها العنانُ، وخطوة حائرة ترتجفُ بين الوريدِ، ومشارب الأنفاس).

ارتفع الصوتُ إلى السماء يتدفقُ نحو الملكوت المُرتجى، فاضت

الدموعُ تندمًا، شقت مجراها نحو النهرِ، امتزجت بثَرَى "الحلاج" فبلغ السيلُ الرُّبى، دقَّ القلبُ منفجرًا، جمع حوله العظامَ، فكُسيت لحمًا، ورسم اللحمُ ملامحًا، فلما اكتمل انتشل جسده من نهر الفراتِ، نظر نحو العارفين، يمينًا، فيسارًا، ابتسم لهم، ثم غادرهم متجهًا صوب الأحراش المتشابكة على الشاطئ الشرقي، فأخذه النورُ الذي انفلق وسط الظلمة الحالكة من أحد أكواخ الصيادين المهجورة.

لم يكن مصباحًا يُضاء، ولا نارًا تشتعل، ولا بلورة تبرق، بل كان نورًا، انبثق من نور، فوق نور، فأنار، واستنار، حتى نبع من الآفاق، وتجلى في تلك البقعة الصغيرة التي هجرها البشر منذ مئات السنين بعد أن سيطر الجفافُ على المستنقعاتِ المتناثرة، فبدت المنطقة كلها كمحارب قديم لم يخلو جسده من الندباتِ، فتقدم "الحلاج" إلى داخل الكوخ فرأى كتابًا مفتوحًا جواره مسبحة، وعمامة خضراء، وجلبابًا أبيض، وبردة سوداء، وعصا، ورجلاً عجوزًا ينام في فراشه يحتضر، يطلب ماءَ الحوضِ، فأسرع نحوه فسقاه من كفه جرعة فارتوى، ثم ضمه لصدره العاري فانتشى، وأشار بيده المرتعشة صوْب الكتاب، وقبل أن تخرج من فمه الكلمة الأخيرة، انقطعت الأنفاس، كفَّ القلب ليدق دقاته الخالدة في العالم الآخر، صمت الرجل، مات الرجل.

استحلفه "الحلاج" أن ينطق بها؛ أن يُفصح بالحقيقة الأخيرة التي رحل من أجلها، فهبط ملاك السماء الرابعة وحمله، وارتفع.

سترَ "الحلاج" جسده العاري بالجلباب، ورأسه بالعمامة، وزاد ستره بالبردةِ السوداء، مد يده يلتقط الكتاب، فلمعت أحرفه، وأضاءت، لكن قبل أن يهم بقراءة كلمة واحدة، اختفت الأحرفُ جميعها، قلّب الصفحاتِ، الصفحة تلو الصفحة، لا شيء سوى بياضٌ يشبه النقاء، وحقيقة أخيرة قرأها على نفسه جهرًا، ثم اختفت، لكنها صعدت، صارت نجمًا يبرق في أعين العارفين حول النهر، فاهتزت قلوبهم وجلاً، وذابت بين حنايا الذكر، فارتفعت حناجرهم بالذكر (نحن العازفون على أنواط القلب، الراقصون بين ثقوب الوجع، متعللون بآلامنا وما بنا ألم، فالذنوب خناجر تمزقنا وتقطع من السعادات، تزاحمها كغصة حمقاء علقت بالملذات، فلا الجراح تجعلنا نرقص طربًا، ولا المعازف تجعلنا نرقص ولهًا، بل هو الوجل من لقياه، نجر ثوب الخطايا) فعاشوا هائمين بين شوق، وعشق.

اتكأ "الحلاجُ" على عصاهِ، وقبضَ على مسبحته بيُمناه، واتخذَ طريقه صوب بغداد، طاف بقصر "المقتدر بالله"، نادى بأعلى صوته على ساكني الديار، لكن لا مجيب، فالسلطان اليوم لصاحب السلطان، فلا

"كهرمانة" بقيت، ولا أمه "شعب"، فأيقن أن الحكاية قد أصبحت في جعبة الطيّ، يرويها من جاء طالبًا ذكرى، لكن على أطلال الديار رأى زهرة صديقه التي أتته من وسط حجارة الرجم قد نبتت، فشعر بوجع غائر في القلب "فزهرةٌ من صديقٍ أشدُّ من رجمةِ إبليس"، فقطفها، واحتفظ بها معلقة في عمامته، وطاف بها في المدينة ينادي على من كانوا هنا، وما هم هنا، فلا حي يجيب، ولا ميت، وعلى باب "خراسان" صرخ الصليب من الحمل الثقيل، -فيا ويح الصليب- الذي لم يكفر أبدًا، ولم يُذنب أبدًا، لكنهم من كفروا حقًّا، وأذنبوا، حقًّا، فعليه ظنوا عيسى قد قُتل، وعليه كان ابن الزبير ضاربًا قلوب الجاحدين، فأعرض الطير عن أكل لحمهم، وخرَّ الصليب ساجًدا لصاحب الروح.

وقف "الحلاج" على شاطيء النهر منفطرًا، فتسربت عَبرة على خده الأيمن، أخمدت نارًا رضيت أن تكون يومًا لحده، ثم توضأ من الفرات الذي ظل قبرًا يطوي ثراه، نشر الكتاب بين يديه فأضاء، فتمتم بالحقيقة جهرًا، ثم في النهر ألقاه، فتدفق صوت العارفين بالذكر (الله. الله. الله. الله) فأسرُّوها في أنفسهم، وسبح الكتاب إلى حيث المنتهى، وتلاشى "الحلاج" في النهر بعدما أيقن أن المدن قد هرمت، وأصبحت تعج بشواهد النسيان، لكن بقيت زهرته تطفو على

الماء تحمل الأوجاع، فوالله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وعشق الله مقرونٌ بذكراه.

اقتلونی یا ثقاتی ان فی قتلی حیاتی
#الحلاج

(١- تشاكي)

أُقْتُلُوني يا ثقاتــي ** إنّ في قتلي حياتـــي

ومماتـي في حياتـي ** وحياتي في مماتـي

أخيرًا.

وقع اختياره على الدمية "تشاكي"، فسحبها البائع برفق، وناولها إياه، التقطها من بين يديه، واحتضنها بقوة، ثم التفت إليّ بحذر، فأومأت له برأسي على مضض بعلامة رضا خجلة، فتجرأ على البائع وطلب منه بلهجة قوية أن يلفها في ورق الهدايا، فالحرية تكمن بين الدُمى التي تقف عند رغبات أطفالنا، حملها على كتفه وسبقني إلى السيارة، وكعادته ألقى بجسده سريعًا في المقعد الخلفي، ثم انشغل عني بإزاحة الورق عنها مبددًا عناء البائع في لفها كما يجب، كنت أرقب نظراته

إلى الدمية المشوهة، والملطخة بالدماء من المرآة الداخلية، وأنا أخبره بسفري القريب إلى الواحات، لم يعبأ بما أقوله، وظل يقضم قالب الشيكولاتة السوداء التي يعشقها، ويُعمل أصابعه بين ثنايا الدمية القاتلة، زَهدها سريعًا، ثم أسندها على ركبتيه وأخذ ينظر إلى إشارة المرور الحمراء التي اعترضت طريقي في الشارع المزدحم وسط ضجيج أبواق السيارات التي تحثُّني على الانطلاق، لكن حاستي "الشافسترية" منعتني من ذلك، تسمرت في مكاني، ورفعت مكبح اليد، فرفع دميته في وجوههم عبر الزجاج الخلفي، ابتسمتْ، ثم انطلقت محدثًا صفيرًا قويًا بالإطارات تعبيرًا عن الغضب من كل شيء يدور هنا.

لم يكن سفري إلى أرض "واهي" بالفعل الهين، بل هي رحلة بحث عن المجهول الذي يُطاردني منذ عثرت على تلك المخطوطة الناقصة التي بدلت حياتي وحولتها إلى استغراق في الفضول، ثم الفضول الذي يتبعه فضول أعمق يجرني إلى لحظة أُغلق فيها الدائرة الكبيرة التي ألقتها في طريقي الصدفة البحتة، فالتاريخ المدفون في الكهوف، ليس كل التاريخ الذي نأمله، وتلك الجدران القديمة التي نراها منتصبة حولنا ما هي إلا إشارات بسيطة لحيوات انقضت بالفعل، لنبني فوقها تواريخ

أخرى تبدأ منذ أن ننتهي نحن، لذلك قررت أن أغضب، وأنطلق لأعلن لهؤلاء البشر أن الحياة ليست مجرد شربة، وبولة، نقيم عليها كل هذا العبث، التفتُّ إلى طفلي المدلل الذي أجبرته هدهدة الطريق على النعاس، فوقعت عيني على الدمية الشاخصة أمامي بكامل قبحها، وشرها الذي نحته أحد الأمريكيين على ملامحها، فزاد غضبي من هذا التناقض الغريب الذي لطخ براءتنا فصرنا وحوشًا قاتلة، لا نعبأبكل نظم الحياة، توقفتُ عند لوحة الإعلانات المضيئة التي تعرض "أفيشًا" همجيًا لمسلسل تلفزيوني، يُشهر فيه البطل سلاحه في وجهي بقرف مستفز، فرحت أهرب بانعطافة سريعة إلى شارع جانبي، تقف على ناصيته مقهى روادها من العجائز، يجلسون في أبهة مضحكة، يسحبون دخان "الشيشة"، ويحتسون المشاريب على مهل خشية نفاذ أقداحهم، فيتكبدون خسارة محسوبة من قوتهم اليومي الذي حصلوا عليه بعد عناء، أو من دون عناء، حدقت في وجوههم السمراء الذابلة، ورحت أسأل أحدهم عن عنوان "الدكتور إمام" الذي يسكن جوار مسجد قديم، ذات مئذنة وحيدة، وقبة من طراز عشوائي غير معلوم، فنصحني أن أبدل الطريق، وأسير في طريق آخر معاكس للإتجاه، لكنه سرعان ما نبهني إلى عدم وجود مصفط لسيارتي الفارهة،

فهناك "التكاتك" تسيطر على كل شيء، وربما يتبرع واحد من سائقيها بنزع "علامات" السيارة ليدقها على مركبته المتواضعة ذات العجلات الثلاث، فشكرته، فابتسم كاشفًا عن أسنان أهلكها التبغ الرديء، عدت إلى الخلف وأنا أفكر في أمر الدمية التي تحملق في كل أفعالي وتنتظر اللحظة المناسبة لقتلي، لم يكن "ياسين" يدري بعد أنني أجره معي إلى قلب القاهرة المرعب، ولم يكن يتصور يومًا ما أنني مقبل على حياة أكثر تقشفًا بعد أن أفقدتني أبحاثي كل ما أمتلك، وكل ما ورثته من عملي في الخليج، كما أنه لم يكن يعلم أن "تشاكي" هي دميته الأخيرة التي يمكن أن أشتريها له، فالعودة إلى الخلف دائمًا ما تحتاج إلى تضحيات جمة، قد تطول أو تقصر، لكنها ممتعة على أي حال.

انتهت رحلة عناء الوصول إلى منزل "الدكتور إمام" عند المسجد القديم، أيقظت ابني من نومه العميق، فصحا على عجل يبحث عن دميته التي سقطت في قاع السيارة بفعل الحفر، المطبات، والبالوعات، لكن الشارع القديم صرفه عن البحث، فطفق يتطلع لوجوه الناس يمينًا، فيسارًا، ليستوعب المكان الذي أوقعته فيه إجبارًا لا اختيارًا، انصرف عنهم ليتتبع المئذنة القديمة، وانتظرته أن يسأل، أو يستفسر، لكنه لم يفعل، أمرته بأن ينزل معي إلى الشارع، فحمل دميته وانصاع للأمر،

قبض على راحة يدي اليمنى، وسار معي في صمت، كنت مستاءً جدًا لسكوته، فصمت الأطفال في حضرة تلك الأماكن التي تثير التساؤلات لا ينذر بالخير، فيجب عليه أن يسأل، ويسأل حتى أملّ، وأصرخ في وجهه بأن يتوقف، فهكذا كنت أفعل مع أبي الذي رحل، وتركني وحيدًا دون إجابات لأسئلتي الكثيرة التي تلت وفاته، حتى أيقنت أن الموت في حد ذاته هو إجابة أخيرة لأي سؤال قد يطرأ على بالي، فأبي الذي كان يعمل مدرسًا للغة الإنكليزية فك لي طلاسم حجر "الروزتا" الذي اكتشفه الفرنسي "شامبليون" في إحدى قرى الشمال، وأخبرني كم نحن مدينين للإغريق لأن أحدهم هو من نقش على الحجر مقطوعة نثرية بلغات ثلاث، أطاحت بكل الأساطير التي نسجها الجهلاء عن حياة الفراعنة، عندما قرأوا رموزهم السبعمائة كما يحلو لهم، وأوهموا الناس بملوك لم يروها، لكنني عندما اعترضت على مدرس التاريخ خلال سرده للقصة بشكل مغاير، نعتني بالغباء، وسخر مني، ثم صفعني بعصاه مرتين على راحة يدي تلك التي يقبض عليها ابني "ياسين" الآن، حتى صارت كالكبد المهتريء، لكنه اعتذر لي بعد سنوات طوال حينما التقيته صدفة في ميدان "طلعت حرب" تحت التمثال تمامًا، لكنني اكتشفت أنه ما زال مصرًا على رأيه، بأن "شامبليون"

الفرنسي هو صاحب الفضل الأكبر في خلق حكايات، وأساطير محبوكة عن أجدادنا الفراعنة، ويجب أن أحفظ ذلك عن ظهر قلب، وأردده عشر مرات من دون مناقشة أو اعتراض، فصافحته باليد ذاتها، وقبلت اعتذاره عن فعل الضرب، بعد أن أشفقت عليه، ولم أفصح له بأنني صرت أستاذًا في "تكنولوجيا المعلومات والمخطوطات"، أرمم ما دونته الأمم السابقة على الرقاع، وأنهل من علمهم دون وسطاء، أو أوصياء، أو عصا شريرة تجبرني أن أقبل التابوهات المعتوهة دون مناقشة، فتركته كما هو على ظنه القديم، الذي عاش عليه، وسيموت دون أن يفارقه، لكنه قبل أن يغادر شد على راحة يدي بقوة وهمس في أذني قائلاً:

-إذا أردت أن تصل إلى الحقيقة فيجب أن تنسى كل الحقائق التي وصل إليها الآخرون.

ارتطمت العبارة برأسي، فكانت كموجة هوجاء، خلقت كبيرة جدًا ثم تلاشت، واختفت، ولا أعلم لمَ قفزت تلك الحكاية إلى ذهني الآن؟ ربما صدق من قال "إن الحكاية بالحكاية تذكرُ"، لكن حكايا الناس التي نقرؤها كتبوها وهم يعلمون تمامًا أنها أجزاء متفرقة من وجه واحد علينا أن نُكمله سريعًا قبل فوات الأوان.

استقبلني "الدكتور إمام" بوجه بشوش بعد أن سمح لنا خادمه بالدخول إلى شقته التي تحمل طرازًا إسلاميًا فريدًا، فمكتبه "الأرابيسك" المطعم بالصدف، ومقاعد المنزل الوثيرة الضخمة التي تأخذ طابعًا أيوبيًا، وجدرانه المرصوصة بالتابلوهات التي تسجل تاريخًا عتيقًا من لوحات نابليونية، وقاهرية قديمة، ورائحة البخور الطبيعي التي تشع من بين جدرانه، تمنحك عالمًا من الماضي الجميل المحمل بمآسي الشعب الذي ولد مقهورًا وعاش، ويعيش مقهورًا، حتى اللوحة الوبرية التي تجسم على خلفية المشهد الذي يتصدره "الدكتور إمام" بوجهه البشوش، وملامحه الربانية الأصيلة، ترسم حدثًا عظيمًا للثورة على "خورشيد باشا" الذي يقف أمامه "عمر مكرم" بعمامة الأزهر الضخمة، عارضًا مطالب الشعب التي تفرض نفسها بقوة على الجالس في مواجهة رجل آثر على نفسه العزلة، وقرر أن يعيش بين كتبه المهذبة التي تغسل الأدمغة بماء طاهر نزعته فتاة طيبة بجرتها الفخار من بئر سحيقة، فأصبح وحده من يستطيع أن يفهم اللغة القديمة، التي لا تبدو كرموز، أو نقوش، ولا تظهر كخطوط مكتوبة، بل هي لغة خفية تتحدث بها الأرواح التي مازالت تحلق فوق تلك الأماكن، فيسمع، ويرى، ويتكلم وربما يشترك في بناء حياتهم التي لم تكتمل، قطع ترحيبه وحدق

بذهول في وجه "تشاكي" لكنه لم يوجه سؤالاً، واستدعى "ياسين" أن يتقدم نحوه، مسح على شعره، وغطاه بعبائته للحظات، ثم كشفها عنه سريعًا، فتح أحد جوارير مكتبه، وناوله قالب شيكولاته، فشكره، وقبله من خده، وعاد يجلس منزويًا في مقعده، فابتسمت له وأنا أهم بفتح حقيبتي لأخرج المخطوطة، وضعتها أمامه، وأخبرته أنني عثرت عليها مع أحد الأطفال يلعب بها بين أنقاض أحد البيوت القديمة، فقام بإلتقاطها بأطراف أنامله، ومن ثم قربها من أنفه واستنشقها بعمق، وأخذ يتفحصها بعدسته المكبرة، ثم ردها إليّ بحذر شديد، وأردف قائلاً:

-بحثت عني كثيرًا. أليس كذلك؟

-دلني المسجد القديم على مكانك.

-لن تجد عندي ضالتك.

-ربما لم أفقد الأمل بعد.

-تحتاج إلى رحلة طويلة.

- سأبدأ من أرض "واهي".

-لن تعثر على أي شيء بين سكان المدائن.

- أريد أن أعرف فقط الطريق الصحيح.

- تلك المخطوطة الناقصة تحتاج إلى قلب مكتمل.

صمتّ لهنيهة، ثم نهض من مكانه، وجذب كتابًا ضخمًا لا يحمل عنوانًا، ناولني إياه، قلبت صفحاته الفارغة إلا من نقطة توقف سوداء وُضعت في نهاية صفحته الأخيرة، فرفعت رأسي مستغربًا:

-حينما يقابلك من يكتب صفحاته ستدرك أنك تسير في الطريق الصحيح.

- ماذا تقصد؟

-عندما تعود سأضع لكتابك عنوانًا مناسبًا.

جلست أمامه أحلج لحظاتٍ من الصمت، فانشغل عني بتصفح مجلد ضخم لم أهتم بقراءة عنوانه، فجاء خادمه معلنًا انتهاء المقابلة، حملت الكتاب الأبيض، وخرجت في هدوء مصطحبًا ابني الذي انفجر بأسئلة عديدة، لم أجب عنها ربما لأنني لم أكن أسمع إلا صوت واحد فقط جاء يسيطر على كل مشاعري، من العظام حتى العظام، لكنني لم أكن أدري أن "الدكتور إمام" الذي أشرف على رسالتي ومنحني درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف، وأوصى بطباعتها على نفقة

الجامعة سيضعني في تلك الحيرة، بعد أن جئت ألتمس منه بصيصًا من النور، فشمس المعارف دائمًا ما تشرق من مغربها، وعلينا نحن أن نلتفت إليها في كل صباح لنشهد اللحظة المرجوة، التي يتمناها كل باحث عن حقيقية آن لها أن تكتمل، فالنجوم تهدي إلى السبيل الصحيح لحتميتها التي طبعها الله عليها، لكن مثلي لا يهتدي بالنجوم، ويفضل أن يسير عكس الاتجاه إيمانًا منه بأن الصدف دائمًا ما تكمن هناك على قارعة الطرق المظلمة.

جلست في منزلي في ركن قصي أتأمل "تشاكي" وأنتظر أن تهدأ الجلبة التي تصنعها زوجتي بصوت خرير المياه، وخاتمها الذهبي حينما يصطدم بالأواني الفارغة، وإلحاح "ياسين" الذي لا يتوقف عندما تتعارض رغباته الطفولية مع رغباتها الحاسمة، فالنوم بعد تناول العشاء قانون مقدس في منزلنا، لكن لا قانون يسري عليّ، فالهدوء هو عالمي الذي أرتمي فيه كل ليلة لأبدأ رحلتي الجنونية التي انسلخ بها عن الواقع الملفوف في ورق الهدايا، لا تروق لي أوراق الهدايا، ولا أنتمي بطبعي إلى رائحة الأشياء الجديدة، فالقديم هو عشقي الأول، والأخير، ألهث خلفه، وأقتفي أثره بشغف، علَّني أغير عبثية الحياة، جدران، وأثاث، وألوان، وأصوات، وصور، وأجساد تركض واقفة، كل

ذلك يقف في مواجهتي كعدو أزليّ، أخشى مواجهته بسيفي الخشبي، فأحاول الهرب منه سريعًا، أو الاستسلام سريعًا، كلما استيقظت على أمانيها الهوجاء في القتل، لكن القديم ساكن لا يقتل أبدًا، فقط يتفرج علينا من بعيد دون أن يتدخل، وينتظر من يأت إليه برغبته الكاملة ليشاهد الصور المعكوسة التي تصنعها أرواح ذهبت، وبقيت تسخر من كل أفعالنا.

"تشاكي" اللعينة تحملق في كل شيء، تراقب السكون الذي عمّ منزلي بعد النوم القسري الذي فرضته زوجتي، فأبوها الرجل العسكري ختم على قلبها بتلك الصرامة التي لا مفر منها، لكنه لم ينس أن يزرع في قلبها الحب، لذلك فأنا أحبها، ولا أخجل أبدًا أن أعترف لـ"تشاكي" بذلك، لكن ما يشغل بالي الآن لا يمنحني وقتًا للسعادة، فالحب يحتاج إلى تفرغٍ لفتح كل الشقوق المحرومة، والمشتاقة لرؤية نور الله، فالحجر الصوان ظلموه بضرب أمثلة الجمود، فلولا عناق ذراته بعضها بعضًا ما خرج علينا بتلك الصورة المتماسكة، لذلك الحب عندي هو عناق كبير لا ينتهي، فهو الوجه الجميل لكل قبيح سعى الشيطان لإخراجه من باطن الأرض، أما الحسن فيهبط فقط من السماء، فالحب كالمطر،يُمنح، فيمنح، يَمزج، ولا يمتزِج، يُحتوى، ولا

يحتوي، يتشكل، ولا يُشكل، يُذوب، ولا يُذاب، طاهر، ويطهر، يسكن، ويُسكن، يحد، ولا يُحد، يُسمي، ولا يُسمى، الحب، يصف، ولا يوصف، لذلك فزوجتي تعيش جواري تحت سماء واحدة وهي تدرك تمامًا أنها تسافر معي في كل وقت كما القمر الذي يطل علينا من الجهات الأربع، ورغم مشاعرها الشحيحة إلا أنني على يقين بأن الماء الدافق لا يخرج إلا من بين الصخور الجامدة، لكن الصخور هي وحدها من تستطيع تحمل رجل مثلي، يقفز بأحلامه، ويهبط في أي مكان وينتظر كثيرًا ليجمع من بين الحجارة حكايات، وعبارات، وقصاصات، وبقايا طعام وأقوات.

اختفت "تشاكي" من فوق الطاولة، لم أتفاجأ بتلك الأفعال التي تشبه أفلام الرعب الأميركية، فالنافذة المفتوحة عن آخرها يبدو أنها قد سمحت لكتلة من الهواء بالإندفاع إلى الداخل لتسقطها على أرضية المنزل، لكن انقطاع الكهرباء وغياب النور، ووضوح صوت عقارب ساعة الحائط (تك. تك. تك)، واهتزاز شراشف الستائر، كل ذلك جاء ليكمل السيناريو، فضحكت لتفاقم الصُّدف التي هيأت جوًا مناسبًا للقتل، أغمضت عيني، ورددت ظهري إلى الخلف محاولاً التنفس بعمق، فالأمر كله يحتاج إلى راحة خاصة أن الكتاب الأبيض الذي أهداني إياه

"الدكتور إمام" ما زال فارغًا، وينطوي على مجهول ينتظرني، أو أنا من أحتاج الوصول إليه بشغف، فالمجهول هو مجهول بالنسبة للجاهل به، أما هو فمعروف لذاته ولكل من وصل إليه، فالحقائق الكاملة لا تحتاج إلى أحد بل نحن من نحتاج إليها دائمًا، انتصب ظهري سريعًا عندما رأيت الضوء الذي انبثق في الظلام فجأة كعيني قط يطوف في الصالة بحركات دائرية بطيئة، بينما ازداد اندفاع الهواء من النافذة، وعلت شراشف الستائر أكثر، فأكثر، وبرزت ملامح "تشاكي" المشوهة أمآمي في برود:

-مرحبًا. أنا تشاكي هل تريد اللعب معي؟

لم أصدق ما أشاهده، أو أسمعه فـ"تشاكي" مجرد دمية اشتريتها بنقودي صباح اليوم، وكل ما يحدث في الأفلام الأميركية هو مجرد خيال، فالدمى لا تقتل إلا إذا كانت مسكونة بالأرواح الشريرة، "تشاكي" مجرد دمية اختارها "ياسين" وطلب من البائع أن يلفها في ورق الهدايا، وقد استسلمت لذلك تمامًا دون أدنى اعتراض، "تشاكي" مجرد دمية لا تنطق، أو تتحرك، أو تقتل، أو؟ :

- لا تستطيع رؤيتي فالقتل يحدث تحت الخفاء هيهيهيهاي!

تلقيت الطعنة الأولى دون ألم، أما الطعنة الثانية فقد اخترقت قلبي، ورأيت خيوط الدماء تنفجر من كل مكان في جسدي، فحاولت أن أردها عني لكنني كنت أتعثر بالفراغ:

- سوف نقتل من يقوم بتعديب الدمى. هل أنتم معي أيها المجندين؟

غمرت الدماء الكتاب، وأوراقي كلها، وأثاث المنزل، وبدأت أشعر ببرودة شديدة وكأنني سقطت في صندوق من ثلج، لكنني كنت مازلت أشعر بكل ما يحدث، بينما لم أستطع أن أقاوم، أو أغير رغبة "تشاكي" المحمومة في القتل، فللدمى حقائق أخرى لا تنفصل عن مآرب صانعيها.

-مازلت أشعر بالجنون هيهيهيهاي!

تلقيت الطعنة الأخيرة، ولم أعد أشعر بأي شيء، انتهيت أخيرًا، وتخلصت من كل عذاباتي في تلك اللحظة.

انتهيت الآن تمامًا.

في الصباح كان كل شيء على ما يرام، ابني، وزوجتي، و"تشاكي" وأنا، حكى لي ياسين قصة حلمه الذي رآه ليلة أمس عندما شاهد "تشاكي" تقتله، وكذلك زوجتي قصت عليّ الحلم نفسه، أو "الكابوس" بلغة العامة

من الشعب، المسكين، المطحون، لكن ما كان يشغل بالي هو الرسالة التي ألقاها هذا "الكابوس"، فالرسائل الخفية تأتي مع أحلام المنام المتشابهة، فـ"إبراهيم الخليل" لم يقدم على ذبح "إسماعيل" إلا عندما تكرر حلمه، فعلم أنه من عند الله، وليس من تراهات الشياطين، شردت بعيدًا حيث تكمن رؤوس العمارات التي تطل علينا من النافذة، فتفاجأت بـ"ياسين" يقذف "تشاكي" إلى الخارج بعد أن مزقها إربًا. إربًا حتى اختلط القطن بالجلد، فأخفيت حلمي عنهما ورحت أرجع ما شاهدوه إلى أطباق العشاء الدسم التي قدمتها لنا "نهاد" ليلة أمس، فأنا لست من الأبدال، ولا النجباء، ولا الأقطاب، لست وليًا، ولا راهبًا، ولا ناسكًا، أنا بشر عادي جدًا يتعلق بكلمة، بها يحب، وبها يكتب، وبها يحيا وعليها يموت، فانقلبت مشاهد القتل إلى سيمفونة ضحك هستيري قلبت أرجاء المنزل المسكون بالصمت الدائم، وبينما كنت أفتعل الضحك، ظللت أفكر، أفكر في المخطوطة ذات الملامح الناقصة، وأتهيب النظر في الكتاب علني أصطدم بحقيقة لا تروقني، فتُغير مزاجي الصباحي وأبدأ يومي بتساؤلات جديدة تُضاف إلى القطار الذي يجره عقلي المُثقل بأحلامي القديمة، لم تسأل "نهاد" عن سر نومي خارج غرفتنا، فهي على علم تام بأفعالي الخارجة عن

العادة، وأشارت لي بأن الحمام جاهز لأصفع جسدي المنهك بزخات من الماء البارد، ثم اتجهت إلى المطبخ لتجهز الإفطار، والقهوة المرة التي اعتدت أن احتسيها مع صفحات الجرائد، التي لا أقرأ منها سوى صفحتها الأولى، والأخيرة أما "ياسين" فقد اختفى في غرفته ليكمل نومه بعد أن تخلص من دميته المزعجة.

الآن أصبحت وحيدًا مرة أخرى، أنتظر الفرج الذي سيهبط على منزلي في أي لحظة، أشعر بأن شيئًا ما سيحدث، شيء يأتي بتباشير جديدة تقودني إلى خوض غمار الرحلة التي لم تبدأ بعد، فأرض "واهي" التي أشارت إليها بعض رموز المخطوطة ربما تكون هي النهاية الوسطى، أو الأخيرة، فما لوح به "الدكتور إمام" خلال المقابلة القصيرة منحني صندوقًا كبيرًا من المفاتيح، وعلنيّ أعثر لكل مفتاح على باب مناسب أعرج منه حتى أصل إلى الهدف، لكن حياتي التي عشتها مر منها الكثير، لذلك أتمنى أن ما تبقى من عمري يكون كافيًا حتى أصل إلى الباب الأخير، فالباحثون عن الحقائق كما الملوك، دائمًا ما تطاردهم أعمارهم، فإما أن تقتلهم الدمية "تشاكي"، أو يقضون نحبهم من دون سبب يذكر، فـ"الجاحظ" قتلته كتبه، و"امرؤ القيس" قتله شعره، و"زرقاء اليمامة" قتلها بصرها، و"فرج فودة" قتلته بصيرته،

و"جمال حمدان" قتلته الحقيقة ذاتها، و"الشعراوي" مات قبل أن يكمل تفسير الجزء الثلاثين، أما أنا فلا أعلم مصيري بعد.

انطلق جرس الباب ليلتقط قطعة من الصمت المطبق على جنبات البيت، أزاحت زوجتي الباب فإذا بـ"رضوان" بواب العمارة يحمل رسالة سلمها له ساعي البريد صباح اليوم، والرسالة طبع عليها اسمي وعنواني بخط عشوائي مهمل، كما ألصق عليها المُرسل طابع بريد "لأبي الهول" مقلوبًا رأسًا على عقب، أغلقت "نهاد" الباب وسلمتني الرسالة دون أن تهتم، فليس من المعقول أن توضع رسالة غرامية في مظروف "ميري" وأن يقع اختياري على فتاة مستهترة تكتب عنواني، واسمي، وتلصق طابع البريد الموشوم بالأختام بهذا الشكل المقزز، وليس من المعقول أن أقيم علاقة مع فتاة أصلاً فما يحويه قلبي من مشاعر، وأحاسيس، وعثرات، وفرحات مسخر لانتصار أسعى لتحقيقه بالوصول إلى لحظة النور، فأفرح وأملأ الدنيا صراخًا، وأقول بأعلى صوتي "وجدتها"، أو أعيش إحباطًا بسبب خيط فقدته، فأقع في دهاليز الظلام، فأحزن وأملأ الدنيا بكاءً وحسرة، هكذا هي مشاعري لا تنزوي ولا تحيد، ولا تنحرف عن فرحة الوصول للحقيقة، أو حزن لفقدها، فتحت الرسالة فعثرت على قطعة صغيرة من الرقاع، وكأنها

مزقة نزعت من المخطوطة، كتب عليها بخط ملحمي قديم (اذهب إلى الدرب الأصفر ستجده في انتظارك)، انفرجت أساريري عندما انتهيت من قراءة الرسالة، ولم تكن مفاجأة صادمة أو غريبة، بل هذا ما كنت أنتظره، ولا يعنيني من أرسلها لأنه ربما يكون قد مات منذ ألف عام أو يزيد، المهم الآن أن أعرف من الذي ينتظرني هناك؟ وماذا يريد؟ لكنني على يقين بأن الألغاز كالمرأة الجميلة المتمنعة، لكنها راغبة في كشف سترها سريعًا، فكل شيء على وجه الأرض يسعى نحو الامتلاء، فتلك هي الغريزة الكبرى التي زرعها الله فينا منذ علم آدم الأسماء كلها، لكن المنهوم بالمعرفة لا يشبع، بل يريد المزيد، والمزيد، كأرض الرمال التي كلما ارتوت بالماء، ازدادت عطشًا.

سألتني زوجتي عن الكتاب الذي تعثرت فيه خلال إعادة ترتيب الشقة من عبث "تشاكي" ليلة أمس، فالتفت إليها مستغربًا فتلك هي المرة الأولى التي تسألني فيها عن شيء يخص عملي، لكنني تقبلت سؤالها بصدر رحب:

-إنه "ماكيت" أثري على هيئة كتاب.

فحملته بين يديها غير مقتنعة، لكنها أفرغت له مكانًا في الصالة

الرئيسة جوار سلة الزهور البرية المحنطة، قلبته بين يديها ثم عادت تخبرني بأن هناك كلمات منقوشة في صفحاته الأولى، أما باقي صفحات الكتاب فقد خلت من الكتابة، دهشت لما أخبرتني به، فالكتاب عندما سلمني إياه "الدكتور إمام" كان فارغًا تمامًا من أوله لآخره، فنهضت من مكاني تاركًا الرسالة، والتقطه من يدها سريعًا، وأخذت أقرأ ما نُقش في صدر صفحاته بخط متداخل: (طهر بيتك من آثار القتل).

التهمتُ الكلمات المكتوبة بعناية بحبر أسود، وابتسمتُ للعلامة الأولى التي انتهت بنص الرسالة المجهولة التي أفلتها من يدي للتو، فـ"من يريد أن يتخلص من أحلامه القاتلة لا بدَّ وأن يذهب إلى "الدرب الأصفر" وسيجد هناك من ينتظره"، انتشلتُ الكتاب من مصيره المعد مسبقًا جوار الزهور وعدتُ إلى مقعدي لأجد قطعة الرقاع وقد اختفت معالمها، لقد صارت خاوية تمامًا، قلبتُها على جانبها الآخر فرأيتُ وجه عجوز يبتسم في طريقه للزوال، ارتعبتُ، بل انتفض جسدي كله، وتصبب من جبهتي العرق، تقدمتْ زوجتي التي ظلت تراقب توتري بقلق بالغ:

- "مازن" أنت بخير؟

.-

وضعتْ يدها على جبهتي برفق ثم غابتْ لإحضار الماء، فالماء يُطفئ الدهشة والنار، ويطرد الشياطين أينما حلت، لم أعد أؤمن بالسحر منذ ابتلعته عصا موسى، وأصبح لا مكان له على الأرض، لكن الهواجس مازالت هي المسيطرة على أفعالنا، فنحن من نصنع السحر لأنفسنا، ونعيش فيه قانعين بالضرر، والحقائق القاتلة مازالت ترتع بيننا، تأكل، تشرب، تنام، تصحو، وتطرق أبوابنا المغلقة.

-"مازن" تعلم أنني لا أتدخل في عملك لكن....

- لكن. لا شيء. تأكدي أنني بخير.

-أتمنى ذلك.

انتهى "ياسين" من بناء مزرعته وزينها بسياج من الأشجار، والزهور، وزّع داخلها البيوت، والمزارعين، والبقر، والغزلان، والخيول، والجمال، ثم وضع أمامها كلبًا للحراسة، لكنني لم أجد أثرًا للوحوش، فقد تخلص منها جميعها كما تخلص من "تشاكي"، نظر إليّ ليسألني عن رأيه فيما أبدعه، فاقترحت عليه أن يخليها من البشر أيضًا، فأعجب جدًا بالاقتراح:

-المزارعون يأكلون اللحوم أليس كذلك؟ .

ردّ تلك الجملة ثم قذف بهم من النافذة، وعاد يسأل:

-أبي. متى تسافر؟

-عندما تشبع جِمالك سأسافر معها.

-جمالي لا تشبع يا أبي.

-إذًا سأسافر بسيارتي.

-هل تلعب معي؟ .

-تعلم أنني لا أجيد اللعب.

أيقنتُ الآن أن عباءة "الدكتور إمام" قد انتصرت على الشر الكامن في رأس "ياسين"، ف"قابيل" قتل "هابيل"، وعلمه الغراب الدفن، فزرع في قلوبنا بذرة الشر الأولى، فأنبتت أشجارًا ملعونة من "الغرقد" نمت فروعها، وتكاثرت ونثرت فوقنا ظلالاً محمومة من الشر الأول، كان يجب أن تعي "تشاكي" أن الحجر ما زال يبكي على ارتكاب الإنسان لتلك الجريمة الشنعاء، لكننا ضيعنا الحقائق بيننا فأصبحنا لا نبصر إلا الدماء، والدماء فقط، دماء في كل مكان، في الشوارع، والميادين،

وفي البيوت، والحجرات، وعلى الأسِرَّة، والوسائد، فكانت اللعنة التي ابتلانا بها الله مع الجراد، والقُمَّل، والبق، والضفادع، ونسينا أن الخير يكمن في بقْلها، وقثَّائِها، وفُومِها وعَدَسِها، وبَصَلها.

دلفتُ إلى غرفة مكتبي، أعملت ناظري بين الكتب المتناثرة بنظام مقصود، اقتربت من حقيبتي الجلدية السوداء، فتحتها بعين زائغة لأضع الرسالة التي مُحيت، فتعثرت يدي بالمخطوطة، نزعتها برفق، وفتحتها على مهل، ثم نشرتها أمامي على المكتب، بينما استأذنت "نهاد" بالدخول لإحضار القهوة، وضعتها أمامي ثم بادرتني بكلمات قصدت منها الاطمئنان علىّ، فأكدت لها أنني بخير، فالجبال تخشع لكلام الله، والعلماء يخشون الله ذاته، ابتسمتْ، ثم قبلتني من جبيني قبلة خفيفة فهمت منها ما يفهمه الرجل المُقبل على فراق زوجته، غادرتني وهي تُعلق بصرها ببصري الذي حجبه عنها باب الغرفة، فالرغبات المشتركة لا يمكن أن أستأثر بها لنفسي مهما شغلتني المجاهيل المبهمة، تفحصت المخطوطة، فتفاجأت بمعالمها قد تغيرت، لقد اختفى اللغز القديم، وظهر لغز آخر، أخرجت عدستي المكبرة لأتأكد أن ما أشاهده ليس وهمًا أو خيالاً، وددت لو أصرخ، أو أضحك، أو أبكي، أو أرقص، لكنني تماسكت وأقنعت نفسي بأنني مقبل

على مزحة كبيرة سأنهيها بنفسي، وأرسم الطريق إليها لمن يريد أن يضحك معي، أو يبكي معي، أو يرقص معي.

نهضتُ من مكاني لأبحث بين دفاتري القديمة عن برهان ربما غفلت عنه في لحظة ما، أو أحطته بدائرة صغيرة بقلمي الرصاص دون أن أعلم أنني سأعود إليه يومًا ما، لأزيل إبهام تلك الرموز التي طفقت تغازلني في لحظة سئمت فيها الغزل، لكن كل ما التقيته في دفاتري لا يشبه أبدًا ما وقع في يدي الآن، صحيح أن الماضي هو قاموس كبير نعود إليه في لحظة نقع فيها حائرين على دروب المستقبل، لكننا في الغالب نرفض تلك التفاسير القديمة، لكونها قديمة، نفضت عن دفاتري الغبار، وأعدتها كما كانت، وأنا أفكر في الخلاص الكبير من تلك العقدة التي أحكمت وثاقها حول رقبتي، فَبِتُّ لا أعلم من أين يبدأ الخيط، وأين ينتهي، بعد أن تشابكت كل البدايات بالنهايات، فتوحدت حتى صارت كتلة واحدة، لا انعتاق منها سوى بالبتر، أو بالموت، مسحت أرفف المكتبة ببصري سريعًا، فلمعت كل الصفحات التي قضيت نصف عمري عاكفًا على قرائتها، وعدت إلى مقعدي، أحتسي قهوتي بتمعن، وأرتب أقلامي، وأفتح كل الجوارير المغلقة، وأبحثُ.

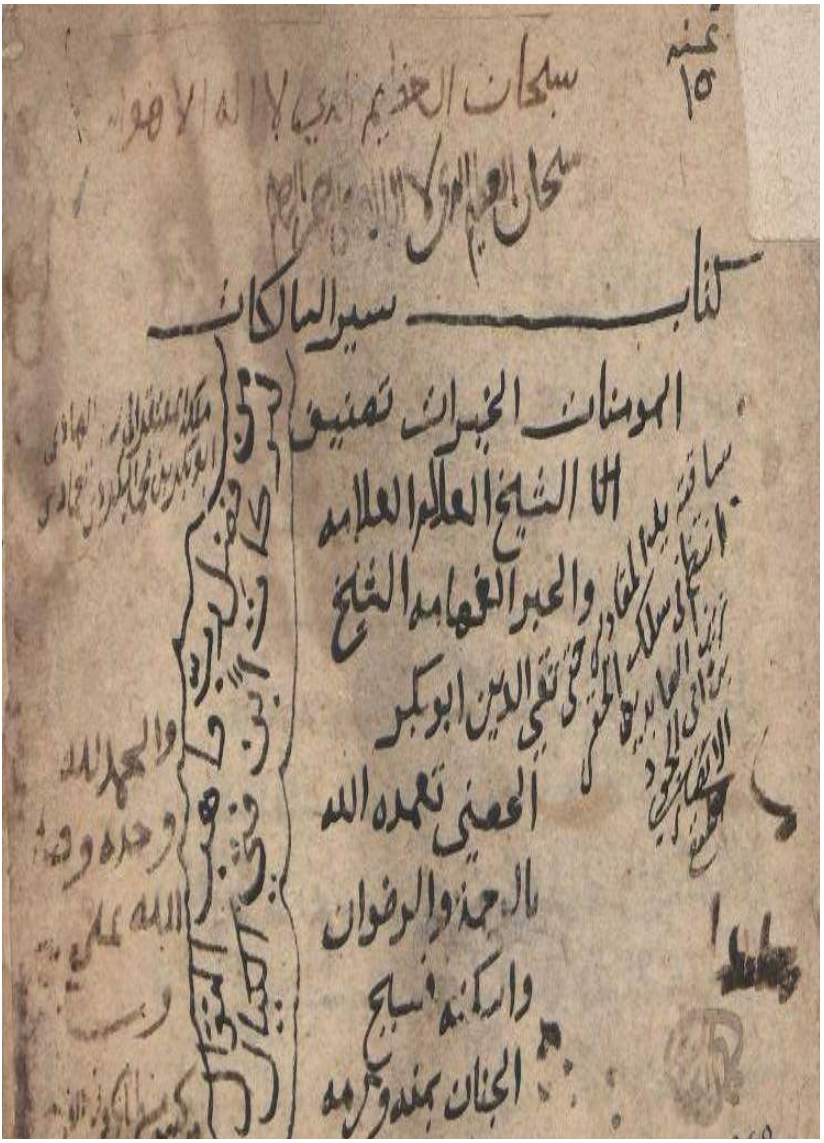

١٥

سبحان العظيم الذي لا اله الا هو

سبحان العظيم المولى [illegible]

كتاب سير السالكات

المؤمنات الخيرات تصنيف

الشيخ العالم العلامة

والحبر الفهامة الشيخ

تقي الدين ابو بكر

الحصني رحمه الله

بالرحمة والرضوان

واسكنه فسيح

الجنان بمنه وكرمه

(٢-الدرب الأصفر)

غِبْتَ وما غبتَ عن ضميري ** وصرْتَ فرحتي وسروري

وانفصل الفصل بافتـراق ** فصار في غيْبتي حضوري

عند حدود سور المملكة القديمة، وقفتُ حائرًا، فمن أيّ بابٍ يجب أن أعبر؟ فالأبواب الثمانية مفتوحة أمامي الآن وعليّ أن أختار لرحلتي بابًا منه أمُرّ إلى من ينتظرني هناك، فالرسائل المقتضبة دائمًا ما تأتي بمحاولات الموت، لكنها في النهاية تصبح أضحوكة عندما نُكمل سطورها بأنفسنا، رجعت خطوتين إلى الوراء محاولاً استعادة التاريخ كله، وتذكرت كلام "الدكتور إمام" عن الكتاب الذي سيرشدني إلى الطريق الصحيح، ثم اهتديت إلى العبور من باب "زويلة"، فمنه إذا

دخلت العانس تزوجت، وإذا دخلت العاقر أنجبت، وربما إذا دخل منه أصحاب الأحلام تحققت، لذلك سأمر من هنا ومعي بركة "المعز" التي ماتزال عالقة بين الجدران العتيقة، مشيت خطوتين إلى الأمام، ثم توقفت قليلاً، حاولت أن أتذكر من أنا لكنني نسيت كل شيء حتى اسمي، اعتصرت ذاكرتي وأخذت أفتش داخلها عن علامات، لكنها كانت ملساء، لم أكن أتذكر إلا الكتاب هذا الذي أحمله بين يدي، وحقيبتي السوداء، وشعرت بقوة تجذبني إلى الداخل، الآن أنا طفل هزيل يمسك بجلباب أمه، يحمل في يده كسرة خبز، وباليد الأخرى لوحًا من "الإردواز" كُتب عليه بحجر الجير الآية الثالثة من سورة "يوسف": (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)، أسير نحو الرجل الذي يجلس أمام الباب، يفترش أوراقًا، وصكوكًا وأختامًا ضخمة يضعها في حِجر جلبابه، يختم بها على قلوب العابرين إلى الداخل، فمنهم من يحمل على كتفه قمحًا، ومنهم من يحمل على رأسه خبزًا، ومنهم من يحمل دابته على كتفيه، فلا أحد يمر من هنا راكبًا إلا "المعز"، ولا أحدًا يمر من هنا إلا بصك الدخول، فلا مكان للعامة بين ساكني المملكة من الأمراء، كانت أمي ماتزال تبكي، وتجفف دموعها بطرف نطاقها الأسود، تحملني حينًا،

وتتركني أحجل بخطواتي حينًا آخر، مدّ "المتولي" يده ونزع مزقة من جلبابي ودقها بمسمار على البوابة الضخمة وسط مِزق عديدة جاء أصحابها بمآرب أخرى، فنهر أمي التي انكبت على يده وقبضت عليها تقبلها، خطفها سريعًا من بين راحتيها، واستغفر ربه، ثم بشَّرها بالشفاء، خلع عمامته فألقت داخلها دينارين من الذهب كانت قد اقتطعتهما من قوتها لتحصل على شفائي، نصحها بألا أقرب الماء ليوم كامل، الآن أشعر بقوة تتسلل إلى عروقي رويدًا، رويدًا، فرفعتُ أمي على ظهري، وسط تصفيق، وتهليل من جاءوا يطلبون منه البركة، دفعتني يد خفية انطلقت من بينهم إلى الخارج، فعدت كما أنا، تذكرت كل شيء عن حياتي، ومرت كل الأحداث الماضية أمامي في لحظة أشبه بوميض برق فجأة واختفى، نظرت في الكتاب سريعًا لعلّ هذا ما ينتظرني فتفاجأت به خاويًا إلا من الحقيقة الأولى التي قبعت في قاعه، فأيقنت أنني قد دخلت في طريق خاطئ ألقاني في حكاية أخرى تخص شخصًا آخر ربما جاء يبحث مثلي عن حقيقة غائبة في زمن آخر، إذًا فليست كل الحكايا تقودنا إلى الحقيقة، وليست كل حقيقة تصلح لكل من يبحث عنها، فعلى هذا الباب علق "قطز" رؤوس رُسل المغول، وعليه شنق "سليم الأول" السلطان الأشرف "طومان باي"،

لذلك فروح "تشاكي" تحلق هنا، تنتظر من يعشق القتل، أو الوهم، فبينما وقف المنجمون المغاربة يتشاورون لتحديد موعد بناء الباب، وقبل أن يهم أحدهم بقرع الأجراس المتدلية من الحبل المشدود في المكان لبدء العمل في اللحظة المناسبة، حط طائر على طرفه فدقت الأجراس وانطلق العمال إلى عملهم، تزامنًا مع صعود "المريخ القاهر" ورمز الحرب، فكانت "قاهرة المعز"، أما ما أبحث عنه فلا يحتاج إلى صدفة عابرة تخرج من تحت أقدام غراب مجهول.

دخلت من باب "الفتوح"، فمنه خرجت الجيوش قوية محملة بالأمل، لعلّ يلتقي حلمي الكبير بأحلامهم المعلقة على دُسر الباب العتيق، فضريح "حسن الذوق" الذي يقبع في الداخل على جانبه الأيمن، يقف حارسًا للأحلام الطيبة منذ مئات السنين، فبقيت الفضيلة تسكن "القاهرة" لا تغادرها أبدًا، فحينما فشل في الصلح بين اثنين للمرة الأولى خلال حياته التي قضاها داخل الأسوار الشاهقة ينشر الخير، والحب، والجمال، أراد أن يرحل بعيدًا، لكن نفسه أبت الرحيل، فسقط ومات على مشارف هذا الباب.

- "الذوق لم يخرج من مصر".

رددت هذا المثل الشعبي بصوت مسموع، ووقفت أمام الضريح في خشوع وقرأت الفاتحة، ثم غادرته إلى الداخل لأكمل رحلة بحثي التي لا أعلم نهايتها، فالحقيقة التي تنتظرك لا تعلم نهايتها، إذًا فعليّ أن أسير وأتفرج، وأصمت، فالصمت هو الفعل الوحيد الذي لا يؤذي الأصوات السابحة في الملكوت القديم، والتي لا تريد أبدًا أن تهدأ، أو تمل، أو تنقطع، فقط تتمنى أن نصمت جميعًا ونستمع إليها، كي نعلم أننا نحتاج أن نعيش طويلاً لنصنع من الأحجار أرواحًا خالدة.

ظللت أغزل الشوارع الحجرية المتعامدة على الشارع الأعظم الذي يشقها كحد السيف، سرت على مهل وكأني أسمع فرقعة حوافر لخيول سارحة، تصهل حينًا، وتحمحم حينًا، تركض، تقفز، وتنزوي بين الأزقة، وتطير في السماء، وتختفي، لم يكن الضوء المتسلل من الشمس، والمتقاطع مع ظل المآذن، والأسبلة، هو ما يشدني نحو الحقيقة، بل نسيت الحقيقة، وأهملت ما جئت أبحث عنه، فمن يسقط في قلب الرحا ينس مآرب الدنيا، ولكن مآرب الأرض تظل تطارده، فإن طالته بمخالبها يهوي في النار، أما من ينجُ فإنه دائم التحليق، ودائم الحياة، ودائم الحب، فتتسرب رائحته الطيبه مع التواشيح الأندلسية التي تنبعث من بين الشقوق، ومع دخان البخور الهندي، وزخات ماء

الورد، وعطر الشام، الذي يسد أنوف العابرين إلى المملكة، اقترب مني طفل صغير يرتدي جلبابًا أزرق، يعلق على كتفه كيسًا من القماش، ويحشو رأسه في قبعة قماشية بيضاء، وأخذ يرمقني بملامح واجمة، ثم سار خلفي متأخرًا بخطوتين ظل يحافظ عليهما كمسافة مناسبة بيني وبينه، ثم بدأ في الاقتراب حتى أصبح موازيًا لي تمامًا، خطف الكتاب من يدي، وركض أمامي سريعًا، فانطلقت أعدو خلفه لكن جسدي كان أثقل بكثير من أن ألحق به، فتباعدت المسافة بيني وبينه، توقف فجأة والتفت إلى الخلف، ثم ألقى بالكتاب داخل حانوت صغير لبيع الأشياء القديمة، التقطه صاحب الحانوت بعد أن سبَّ الغلام الذي طار واختفى بين الناس اللاهين خلف أرزاقهم، حمل البائع الكتاب، وأخذ يقلب صفحاته يمينًا، فيسارًا، وقبل أن يهم بإلقائه وسط أغراضه، توقفت أمامه لأخبره بأن هذا الكتاب ملكي أنا، لكنه نظر إليّ من خلف نظارته السميكة، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة تحدث هو:

-لماذا تأخرت يا فتى؟

- لم يكن هناك موعد بيننا كي أتأخر.

-تعلم أنني أفتح الحانوت بعد صلاة الفجر.

-أعتذر. لم أكن أعلم.

-هيا! أقبِلْ فهناك عمل كثير في انتظارك.

- عمل؟

-هيا. رتِّب الأغراض القديمة كل صنف مع ما يشبهه.

-لكني لم أطلب عملاً.

-خذ هذا الكتاب وضعه على الرف وحيدًا فلن تجد ما يشبهه.

أخذت الكتاب من يده، ووقفت وسط أكوام الأشياء القديمة حائرًا، فصرخ في وجهي يحفزني على العمل سريعًا، فوضعت الكتاب على رف خالٍ تمامًا وكأنه صنع خصيصًا من أجله، ومددت يدي أضع مطاحن البن العتيقة، مع مطاحن البن، ومعاصر العنب، مع معاصر العنب، وأضع الكتب، والصحائف، وصكوك الحرية، والصور، كلٌ في مكانه، ثم أمسكت بالمقشة المصنوعة من خيش النخيل، وأخذت أكنس الأرضية حتى تسللت ذرات الغبار إلى جسدي كله، رششت الماء، وأردت أن أشرب جرعة واحدة، فنزع البائع الكوب من أمام فمي:

-كدت أن تفسد كل شيء.

-أشعر بعطش شديد يا شيخ.

- الماء لن يطفيء ظمأك الآن.

أمرني أن أحضر الكتاب من حيث وضعت، منحني إياه نظير عملي:

-أحسِن ترتيب أشيائك القديمة، وسأضاعف لك الأجر.

ابتسمت، فنهض من مكانه وأغلق الحانوت، ثم رحل وتركني وحيدًا، أقبض على كتابي، وأداعب دهشتي.

كانت الشمس تتبختر نحو المغيب، لتنام بعيدًا في أحضان عشيقها المجهول، وبدأت القناديل تضيء وتصبغ الحجارة بلون النار، أما المآذن فظلت مشرقة بأضواء القاهرة الجديدة في الخارج، سرت بلا هدف، فالرجل الذي ينتظرني رحل عني دون أن ينقش حكايته في الكتاب، وعليّ الآن أن أصدق حدسي بأن الحكاية لم تنته بعد، وبينما أنا غارق في حيرتي تلك أتاني صوت من بعيد ينادي:

قرب. قرب... تعال اتفرج

قرب شوف صندوق الدنيا

ناس بتغني. وناس بتهرج

وناس تانية حاجة تانية

ناس بتسرق. ناس بتنهب

ناس ياعمي وكلاها والعة

وناس بتشقى، ناس بتتعب

م الفقر ياعينى عينها دامعة

قرب. قرب تعال اتفرج

لـ(عاطف على عبد الحافظ)

دلفت من بوابة "الدرب الأصفر" ورحت أبحث عن الصوت، وبينما كان يقترب شاهدت الغلام اللص الذي سرق كتابي يجلس مسندًا ظهره لسبيل "قيطاس" يأكل من كسرة خبز، ويشرب من الصنبور براحة يده بعض الماء، سدد إليّ نظراته الثاقبة في صمت، فعدت إلى مشهد الغلام المريض الذي أتت به أمه تطلب شفائه من "المتولي"، فاكتملت الصورة، فهززت رأسي كأنني عثرت على كنز، حاولت الاقتراب منه لكنه أشار إلى زقاق مظلم، ثم كورّ جسده مختبئًا في الجدار، فقادتني حاستي إلى زقاق آخر غير الذي أشار إليه، فرأيت مُهرجًا يرتدي حُله مزركشة بالألوان، ويصبغ وجهه كله بالأبيض، والأحمر، والأسود،

ينادي بأعلى صوته على "صندوق العجب"، لكن لا مجيب، فالأطفال لا يقتربون من الظلام، ولا يلعبون في الأزقة الضيقة، ولم تعد تجذبهم "صناديق الدنيا"، ولا ألوان المهرج، فتسمرت أمامه بعد أن قبض على معصم يدي، وسحبني معه إلى منزل قديم، دفعني داخله بقوة، وعاد إلى الزقاق ليشعل الظلام بندائه.

استقبلني رجل أشقر اللون يرتدي ملابس أسطورية تعلوها قبعة الدلو، يمسك في يده عصا قصيرة من الأبانوس الأسود، وفي يده الأخرى زهرة بيضاء، فبدا كساحر ارستقراطي عظيم، طلب مني أن أجلس، ناولني كوبًا من لبن الإبل فرفضته، أمرني أن أحتسي منه جرعات ثلاث فقط، ثم أشار بعصاه إلى "صندوق الدنيا" بمقاعده الأربعة المستديرة:

- لا بدَّ وأن تكون رابع ثلاثة.

- سأنتظر كثيرًا.

- اليوم الصندوق لك وحدك.

أومأ لي بأن أجلس على الكرسي الرابع، أمسك رأسي برفق، دسه داخل الصندوق، أسدل عليه قطعة سوداء من الحرير، وطلب مني أن أغمض

عينيّ، وأتخيل شخصًا أعرفه، ثم أهم بفتحهما في اللحظة التي أشعر فيها برغبة جامحة في رؤية النور، وسأشاهده شاخصًا أمامي على حالته حيثما يكون، لكنني ظللت قابضًا على مقلتيّ دون أن أستحضر في ذهني أي إنسان، لقد نسيت كل من عرفتهم خلال حياتي في تلك اللحظة، نفد صبري سريعًا، فتحت عينيّ فجأة، فرأيت نفسي أقف وسط حلقة كبيرة من اللهب، وأستغيث بأناس لم يسبق أن رأيتهم من قبل، وأستغيث بقوة بينما يأكل اللهب جسدي كله، أجهشت بالبكاء، وأخرجت رأسي ببطء شديد وغادرت مقعدي، إلى مقعد آخر بعيدًا عن "الصندوق"، ألقيت عليه جسدي المنهك، وأخذت ألهث بقوة، فناولني الرجل كوب اللبن، وأمرني أن أشرب منه ثلاث جرعات أخريات، ثم هدأ من روعي، خلع قبعته، فبانت صلعته الفسيحة، ألبسني إياها:

- ما زال قلبك يحمل ضغائن للناس، لذلك لن ترى نفسك على صورة ترضاها.

- لم أرتكب ذنبًا عظيمًا قط.

جذب من على المنضدة ساعة "رملية" وقلبها على وجهها الآخر فبدأت الحبيبات في النزول ببطء شديد:

- تلك الساعة تحوي حفنة رمال لم تطأها قدم قط عندما تنفذ إلى الجانب الآخر ستختفي من أمامك أحوال الأمم السابقة، فطهر قلبك، وأسرع خطاك نحو من ينتظرك قبل فوات الآوان.

نهض صاحب الصندوق من مكانه، ودخل إلى حجرة مظلمة، فأتى المهرج، وقبض على معصمي مرة أخرى، ثم زجني بقوة إلى خارج المنزل:

-لا تزال أمامك ألعاب أخرى.

- تعلم أنني لا أجيد اللعب سيدي.

تحسست رأسي فوجدت أن القبعة ما زالت تعلوه، لكن يدي كانت خاوية إلا من حقيبتي السوداء، ففزعت لنسياني الكتاب في الداخل، فأردت العودة إلى الزقاق المظلم، لكن منعني المهرج من الدخول، حاولت أن أقاومه لكنه لم يكن مهرجًا عاديًا، بل كشف عن عضلاته المفتولة، وسدد إليّ لكمة قوية قذفتني إلى الخارج، فنهضت مترنحًا:

-كتابك مقابل القبعة.

- لكن الكتاب؟

-حافظ عليها فوق رأسك دائمًا.

استدار بوجهه، عاد ينادي على صندوق الدنيا، ثم تلاشى في الظلام، بينما وقفت مشدوهًا، لا أستطيع فعل شيء بعد أن فقدت الكتاب، ووقعت في رعب من أن أضل طريقي كطفل صغير فقد دلائل العودة إلى منزله، فشعر بالضياع، فكرت أن أجلس مكاني حتى تحين لحظة الشروق، وأعاود محاولتي لدخول المنزل، لكن انفجرت في أذني فجأة ضحكة خليعة لامرأة تقف في شباك بيتها، ترتدي ملابس بيضاء محتشمة، وتشير لي بسبابتها أن أصعد إليها، فزاد رعبي، بل ونسيت أمر الكتاب تمامًا، كما نسيت أن هناك قبعة سوداء على رأسي، التفت إلى كلب ضخم ينبح في ركن بعيد، وقطة ترد عليه بمواء غاضب من الركن المقابل، حدقت في عينيها اللامعتين، وتذكرت أن الخزعبلات القديمة تقول "إن من ينظر طويلاً في أعين القطط تصيبه بالعمى"، سحبت عينيّ من عينيها، وأشحت بوجهي عنها، فقفزت من مكانها، وركضت خلف الكلب الذي ظل يبحث عن ملاذ من هبتها المفاجئة، فأيقنت أن الأحداث تسير بشكل معكوس، ربما أشبه بالنحس، وأقرب إلى اللعنة، ففضلت أن أغادر المكان، وأواصل السير وسط الضباب المتكاثف، أسير بلا هدف، ولم أشعر بتعب بعد، فيبدو أن ما دسه "المتولي" في عروقي يمنحني قوة خارقة، فلا أغفو، ولا أمرض، أو

أتألم، أو أتعب، فقط أنـازع الخوف، وأقبض على إيماني بالرسائل المجهولة، وأسلم نفسي لكل الصدف الرائعة التي أتعثر بها في طريقي، فالأقدار كما فقاقيع الهواء نصطدم بها، وتنفجر في وجوهنا، لكنها لا تصيبنا بأذى.

خرجتُ من باب "النصر" إلى الشارع الفسيح، بحثت عن سيارتي كثيرًا لكنني لم أجدها في مكانها، فاقترب مني "تاكسي" استشعر سائقه حاجتي إليه، فأخبرته عن وجهتي، جلست على المقعد الأمامي جواره، ومن وسط الصمت غير المعتاد أدار مؤشر الراديو ببطء شديد، توقف به عند أغنية صباحية لـ"ليلى مراد"، فابتهجت لتلك الطاقة الإيجابية التي منحني إياها من دون قصد، وبعد لحظات لم تطل توقف بي أمام العمارة التي أقطن فيها، أخرجت من جيبي بعض النقود وناولتها إياه، فبادرني برسالة قديمة كُتب عليها عنواني واسمي وأُلصق عليها طابع بريد لأبي الهول بالطريقة نفسها التي جاءت به الرسالة الأولى، حبست أنفاسي، وابتسمت له بود:

-من الذي يرسل إليّ تلك الرسائل؟

-دلتني عليك قبعتك السوداء.

-لقد فقدت كتابي.

- ستأتيك الرسائل من حيث لاتعلم.

انصرف سائق التاكسي دون أن يعطيني إجابات وافية، ربما هو لا يمتلك أي إجابة، فقد جاء من أجل إنجاز مهمة محددة وانتهت، فتحت الرسالة وجذبت قطعة الرقاع:

-" اقترب من أرض "نبو" واغسل قدميك من ماء النهر قبل أن تخوض رحلتك، اجلس بين بيوتها البيضاء، وسيأتي من يخبرك عن الرحيل، فمن هناك نبدأ، ومن هناك تبزغ كل زروع الأرض، وكل قلوب البشر، والحجر".

أتممتُ قراءة الرسالة مرتين، ولم أفكر كثيرًا، بعد أن أصبح اللغز الأول وهمًا، وتغير مسار رحلتي من الواحات إلى النوبة، لكن بادرني الشك للحظات في كل ما يحدث، وتبادر إلى ذهني سؤال عن ثقتي في تلك الرسائل التي يحلجها رجل يجلس في نهاية العالم، ويحركني كيفما شاء، وضعت الرسالة في الحقيبة، وأخرجت المخطوطة، تفحصتها جيدًا، فتفاجأت بأن اللغز قد تغير مرة أخرى، لم أندهش، لتلك الأحداث الرتيبة المبهرة، بل أيقنت أن كل شيء يسير بحسبان، وأن كل

الأحداث تسير نحو هوة سحيقة تكمن فيها كل حقائق الدنيا، وعليّ أن أختار الآن، فإما أن أعود إنسانًا عاديًا، يأكل، يشرب، يقضي حاجته، وينام، ثم يموت دون أن يذكره أحد، وإما أن أكون إنسانًا يسلم نفسه لحكايا الناس، يتفرج، يبحث، يكتب، ثم ينحت وجهه على جدار حجري لتبقى حكايته خالدة، يقصها القاصي والداني، ويحفرها الأطفال على ألواح الإردواز، ويغزلها المريدون على جدران المقامات.

صعدتُ إلى منزلي فاستقبلتني زوجتي بترحاب شديد، وتعلق "ياسين" في رقبتي يُقبلني، ويطلب هدايا السفر، فدهشت لتلك الحفاوة التي خلفها غياب يوم واحد، لكنني صعقت حينما أخبرتني زوجتي بأنني قد غبت عنها لعام كامل، وأن رسائلي الشهرية المرافقة للتحويل البنكي كانت هي السبيل الوحيد الذي بثَّ في قلبها الطمأنينة على زوج خرج ولم يعد، لم أستوعب ما تقوله، كما أنني لم أستوعب نظرات ابني وقبلاته الحارة التي تركها في قلبه فراق دام لعام كامل عشت فيه على جرعات قليلة من لبن الإبل، ولم أقرب الماء والطعام، ظللت أسأل نفسي عن هذا الوقت الطويل الذي أمضيته هناك، ومرّ عليّ كما يوم وليلة، فقاطعني "ياسين" يستفسر عن القبعة الغريبة التي أرتديها، فتذكرت أنني لا يجب ألا أخلعها من رأسي أبدًا، حتى لو كلفني ذلك

حياتي، فتاجهلت استفساره، وأفشلت محاولاته في خلعها من على رأسي، ورحت أحكي له قصة تخيلية عن طفل مريض أخذته أمه إلى بوابة "المتولي" تستجدي العلاج، فعاد الطفل قويًا جدًا يحمل أمه على ظهره، ويعيش على لبن الإبل ولا يقرب الطعام أو الماء، لكنه ضيع كتابه وسط زحام الحكايات، فصار يعيش في حكايته هو فقط، جلس "ياسين" يستمع إلى قصتي بإنصات، ثم تسلق على كتفي وخلع القبعة بهدوء، ونفض عن ملابسي الغبار، ثم أشار ناحية الرف الذي كانت "نهاد" قد أعدته لوضع الكتاب جوار الزهور البرية الجافة، فرأيت الكتاب في مكانه:

- الآن يمكن للطفل الصغير أن يأكل ويشرب الماء يا أبي.

فحملته بين يدي، وجذبته نحوي بشدة، وأردت أن أصرخ في وجهه، لكنه قبَّلني من جبهتي، وارتدى القبَّعة، وانفجر ضاحكًا، فأيقنت أن ابني جزء من الحكاية، فأفلته من يدي برفق، ونهضت من مكاني لأحضر الكتاب، نظرت فيه متلهفًا فتفاجأت بأن الحقيقة الثانية قد نقشت داخله بحكايتها الكاملة:

"أحسن ترتيب أشياءك القديمة وسأضاعف لك الأجر".

فالقبعة لا يمكن أن تناسب مثلي، وصندوق الدنيا صنعوه للأطفال، وحياتي كلها أعيش فيها بفوضوية غريبة، لذلك فأشيائي القديمة كلها لا بدَّ وأن أضعها أمامي كي أحسن ترتيبها قبل فوات الأوان.

سألتني زوجتي عن رحلتي التي خضتها، فلم أجد ما أقصه عن رحلة قطعتها في ساعات معدودة، فصمَتَتْ قليلاً، ثم أعادتْ علىّ السؤال:

- إن رحلتي الطويلة لم أعد أذكر منها إلا بيتي هذا.

فشردتْ بعيدًا، ثم أخبرتني بأسى بأن والدها قد مات خلال غيابي، لذلك هي تحتاج أن تتحدث إليّ، وتفصح عما في داخلها، مددت إليها يدي وضممتها إلى صدري، وعانقتها بشدة، فبكت كثيرًا، مسحت دموعها، وأحنيت رأسي على صدرها، وأخذت أسرد عليها قصة رجل، كلما حلَّ بمدينة مات فيها، وأقاموا له قبرًا، لكنه ما زال يحيا في مكان ما، تصله حكايته على لسان الناس، فيضحك ساخرًا من الكرامات التي يلصقونها به وهو لم يفعل شيئًا سوى الرحيل الغامض، فالموت ليس هو النهاية التي ننتظرها في كل مرة، بل هو بداية كبرى نسعى أن نخوضها جميعًا، ومن قال "بأن من مات فات" نسي أنه سيموت يومًا ما ليبدأ من جديد حياة أخرى لا موت فيها، رفعت رأسها ونظرت لي نظرة

طويلة، ثم عانقتني مرة أخرى، وطلبت مني بهمسٍ ألا أرحل، وألا أموت، فربَّتّ على ظهرها، وسادت بيننا لحظات صمت.

دخلتُ إلى غرفة نومي، وألقيت بجسدي على السرير، أخرجت هاتفي المغلق وأوصلته بالشاحن الكهربائي، وطلبت من "نهاد" أن تغلق عليّ الباب لأنام، فانصاعت لطلبي دون مناقشة، لكنها عادتْ وأضاءت الأنوار الخافتة، ثم جلست أمام المرآة تتزين، لم أفهم ما ترنو إليه، أو ما يدور بخاطرها، حتى عاد الظلام يُحلق حولنا، إلا من ضوء الهاتف الذي ظل يبعث إشارات وجلة بأن الشاحن الكهربائي يؤدي عمله على ما يرام، كما أديت واجباتي الزوجية على ما يرام، انتهت لذة الجسد، وبقيت أحتاج إلى لذة أكبر بكثير من كل ملذات الدنيا، أسندت ظهري للسرير، وسحبت سيجارة من الصندوق الذي داومت على الاحتفاظ به في أحد جوارير "الكومود" الخشبي جواري، نظرت إلى تاريخ الصلاحية المنقوش على الصندوق، فتفاجأت بأنه لم يمر أسبوع واحد على تاريخ الصناعة، فكيف تثبت أعمار الأشياء من حولي، أما أعمار الشخوص فتمضي إلى مبتغاها؟ رددت السيجارة إلى مكانها في ذهول، واستسلمت للنوم.

في الصباح كانت الأحداث تسير كما العادة، الإفطار، قهوتي المرة،

الصحيفة، "نهاد"، و"ياسين" الذي ما زال منشغلاً ببناء المزرعة الفاضلة، فجلست أراقب أفعاله في صمت، لا شيء جديد، فقد انقطعت كل العلامات التي انتظرها، ويبقى أن أفكر في الرحيل، فـ"المخطوطة" تحتاج أن أصارع المسافات، والزمن لأصل إلى حقيقتها سريعًا، و"نهاد" أصبحت وحيدة الآن، "وياسين" أصبح جزءًا من رحلتي، أما أنا فقد أصبحت أكثر إيمانًا برسالتي التي وُلِدتّ من أجلها، سألت ابني عن القبعة، فالتفت إليّ مستغربًا من سؤالي، فأخذت أذكره بما قاله لي بالأمس، فانصرف عني، وعاد يرتب حيواناته الأليفة:

-تلعب معي؟

-تعلم أنني لا أجيد اللعب.

- ستجيده يومًا ما يا أبي.

انتفضتُ على صوت هاتفي، فحملته لأرى ما الذي يُخبئه، "Private Number"، ضغطت على زر الإجابة بتوجُّس، فكشف عن صوت امرأة تُخبرني بأنه يجب أن أُحدث بياناتي لأنني لم أستخدم شريحة الاتصال لوقت طويل، وإلا ستضطر شركة الاتصالات لإيقاف "شريحة" الهاتف، وأخذت تسأل عن اسمي، وتاريخ ميلادي، ورقمي القومي،

وعنواني، ثم شكرتني سريعًا، لكنها قبل أن تنهي المكالمة غيرت من نبرة صوتها الرقيق وقالت بلهجة جادة:

-سينتظرك القارب هناك وقتما تصل.

-من أنت؟

-لا بدَّ أن تبدأ رحلتك سريعًا.

انقطع الاتصال، لكن عقلي ظل متقدًا، فما أواجهه لا يتحمله بشر قَطّ، بل يحتاج أن أجمد كل مشاعري وأضعها في ثلاجة، فلا تصدر عني انطباعت غريبة، أو كلمة واحدة تعبر عن اندهاشي، التفت إلى "نهاد" التي جلست تُرتل سورة "يوسف"، توقفت فجأة، ونظرت إليّ مبتسمة:

- أعشق تلك السورة يا "مازن".

- طلبت منك أن نسمي ابننا "يوسف".

- أولها حلم ونهايتها حقيقة.

- أبوك هو من اختار اسم "ياسين".

- أبي كان حلمًا وانقضى.

- يكفيني أنك مازلت "حقيقة".

- ارحل يا "مازن" كما تشاء.

- الرحيل إلى الحقيقة يحتاج إلى حلم طويل.

طوت المصحف، وأخرجت من جيبها مفتاحًا، ناولته لي:

-لن تحتاج أن تطرق علينا الباب بعد ذلك.

- لا أحتاج إلى مفتاح لمنزلنا طالما أنت بداخله.

- ربما تأتي يومًا ولا تجد من يفتح لك الباب.

تركته على الطاولة أمامي، واتجهت إلى غرفة النوم، لكنها توقفت وحدقت في وجهي طويلاً، ثم غابت في الداخل، وأبقت الباب مفتوحًا.

بقيت أفكر في هذا التحالف الغريب الذي يحلج خيوط الحكاية، فالشخصيات تتقافز حولي وفي كل مرة ينسجون غزلاً ليس له بداية أو نهاية، فيلقون أمامي كرة صغيرة من ضوء خافت ثم يرحلون عني ساخرين من واقعي المجنون، ونسوا أن عشاق الحقيقة لا يملون حتمًا تلك الألغاز التي تتساقط في طريقهم المجهول، لكنهم يعيشون ألمًا كبيرًا لا مناص منه، فلذة الألم تلك كلذة المخاض التي تنتهي بصرخة الحياة، لذلك أنا لا أعبأ أبدًا بكل تلك الأفعال الثانوية التي تريد أن تبقني راسخًا في مكاني لا أتحرك، فالرغبات التي كتبتها علينا

غرائزنا دائمًا ما تصرفنا عن الرؤية الكاملة، فقط كل منا يريد أن يرى ما يبغيه ليشبع داخله ألمًا عارضًا يزول سريعًا بمجرد الوصول إلى مآربنا التافهة، أما أصحاب المآرب الكبرى فلهم تعاسة الدنيا، ولهم خلود الآخرة.

جلستُ في مكتبي أنشر أمامي الكتاب والمخطوطة والرسائل الخالية، وأخذت أقلبها، أبدلها، أرتبها، أبعثرها، أنظمها، لكن شيئًا لا يحدث، فالأشياء لا يمكن أن تبوح بما تخفيه أبـدًا إلا في غفلة منا، لذلك لملمتها، ووضعتها في حقيبتي السوداء، وشعرت بأنني مقبل على عالم فسيح، أسير فيه كنقطة سوداء لا يعلم بوجودها إلا الله، فما أجمل أن يكون الله هو صديقك حينما تتخلَّى عنك كل الأجساد الآدمية! ويبقى النور هو رفيقك المخلص الذي لا يخونك، ولا يُضلك، ولا يحرقك، فجائني من يُربت على قلبي، ويهمس في أذني بأنني "إنسان طيب" يجب أن يعيش، ويقاوم، ويُواجه كل أطواق الشر التي تعانق مساكين الأرض، فألفت الصوت البعيد، ورأيت دربًا طويلاً من زهور برية انفلق وسط الملح، أسير فيه متكئًا على الهواء، تحفني الفراشات، كطفل لم تلده أمه بعد.

فمن زرعون عليها فاذا زاد على قدر كفايتهم
تستبشرون بخصب السنة وسعة الرزق
وذلك المقياس عمود قايم في وسط بركة
على شاطئ النيل لها طريق الى النيل يدخلها
الماء اذا زاد وعلى ذلك العمود خطوط معروفة
عندهم يعرفون بوصول الماء اليه مقدار
زيادته فاقل ما يكفي اهل مصر لسنتهم ان يزيد اربعة
عشر ذراعا فان زاد ستة عشر زرعوا ما يفضل
عن قوت عامهم واكثر ما يزيد ثمانية عشر
ذراعا والذراع اربعة وعشرون اصبعا
وذكر عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن الحكم ان المسلمين
لما فتحوا مصر جاء اهلها
الى عمرو بن العاص وقالوا
ايها الامير ان لبلدنا

(٣-أرض نبو)

و أيّ أرض تخلو منك حتّى ** تعالوا يطلبونك في السماء

تراهم ينظرون إليك جهرًا ** وهم لا يبصرون من العماء

انتهتْ رحلة القطار الذي توقف بي عند منابع الشمس في أسوان، فعشت بين سكان الدرجة الثالثة كمن لم يعش قط، فامرأة جاءت تحمل على رأسها جرة فارغة من عسل، ورجل ملّ الحياة فظل يتحدث مع رفيقه يائسًا عن مدينة خالية من الشر، وطفل ظل يوزع علينا كتبًا لمواعظ صغيرة في صمت، ووقف ينتظر من يبتاع، أما أنا فكنت أقبض على كتابي بكلتا يديّ، وإلى جواري قسيسًا يحمل في يده صليبًا ضخمًا، يبادرني بابتسامة ودودة أراد منها حديثًا يهون علينا الطريق، لكن لم

تكن عندي رغبة في الكلام، أخذ ينظر إلى الكتاب بتمعن، ويرسم على قسماته أسئلة لا أملك لها إجابات، فبت أشك في كل من حولي من أشخاص، أنظر إليهم وأنتظر من يأتي ليصب فوقي دلو الثلج، فمعالم الطريق الطويل لا تأتي إلا من بين هؤلاء البسطاء، فقررت أن أنصرف عنهم بمتابعة الأشجار، والزروع، والجبال، التي تلهو جواري، وكأني معلق في طرف فرشاة رسام مجنون يشخبط لوحته ويمزجها بالألوان دون تمهل، أخرجت الكتاب ففاصت عينا القسيس في صفحاته، لكنه كان يتظاهر بالهرب كلما انتبهت إليه، فقام من جواري وأجلس فتاة لم تنل حظها من المقاعد الخشبية المتهالكة، فساورني الشك بأن يكون من أصحاب الحكاية، فأخفيت الكتاب، وأخذت أتابع تحركاته الهادئة حتى اختفى بعيدًا عند نهاية العربة، لم تكن رفيقتي الجديدة من هواة الثرثرة، فجلستْ صامتة تمد بصرها من النافذة جواري، وتتأمل العالم الفسيح في الخارج، شعرت بالجوع للحظات، فأنشغلتُ بإخراج الطعام الذي أعدته لي "نهاد" من الحقيبة، فسقط الكتاب من يدي، أسرعتْ والتقطته من الأرض، واحتفظتْ به حتى انتهيت، ناولتني إياه بوجوم غريب، فشكرتها، وعزمت عليها أن تشاركني الطعام، مدت يدها، وأخذت ما قدمته لها دون اعتراض، وقبل أن تبدأ في تناول

طعامها سألتني عن الكتاب، فأخبرتها أنه يحوي مذكرات شخصية، استأذنتْ بأن تتفحصه، فرفضتُ بلهجة حاسمة، زادت من وجومها الذي لا يناسب ملامحها الرقيقة، وردّت عليّ الطعام الذي منحتها إياه، ثم غادرت مكانها، وعاد "القسيس" باسمًا يجلس إلى جواري، فأخفيت الكتاب في الحقيبة، ورحت ألتقم طعامي سريعًا، حدق في وجهي للحظات:

-"اَلصِّدِّيقُ يَأْكُلُ لِشَبَعِ نَفْسِهِ، أَمَّا بَطْنُ الأَشْرَارِ فَيَحْتَاجُ".

-أأنت جزء من الحكاية؟

-" اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ".

نهض من مكانه، وعادت الفتاة وفي يدها رغيف خبز كانت قد أتمت التهام نصفه، ولم تعطني فرصة واحدة لأفكر فيما ألقاه "القسيس" على مسامعي:

-تركتُ لك النصف الآخر لتأكله.

-لا آخذ طعامًا ممن ردّ عليّ طعآمي.

- ستتمنى مني كسرة خبز يومًا ما.

وضعتْ نصف الرغيف أمامي، وغادرت مكانها، وغابت وسط الزحام، وبقي المقعد شاغرًا لا يقربه أحد حتى نهاية الرحلة.

اقتربتُ من النيل العظيم حيث لا مكان للشر، تمشيت على شاطئه، أتفحص وجوه الناس، وأمد بصري ناحية دير "الأنبا سمعان" في البر الغربي، حيث مراسم الموت، وخزائن الحياة، فوقعت عيني على راهب ينزل إلى النهر، يملأ هدرته بالماء، ثم يعود إلى الدير، مكررًا ذلك مرات ومرات، فأيقنت أن صاحب الصومعة ما زال يحيا بيننا لكنه لا يظهر إلا إذا لحقه العطش، فهؤلاء هم الذين ينسحبون بعيدًا عن الدنيا ويفضلون العيش بين السماء والسماء، بعد أن تهافت الشر على قلوب بني البشر، أما النجاة من الشر فتحتاج إلى المزيد من التأمل والمعرفة التي لا يتسلل منها الشيطان، فالشر هو خير لمبتغاه، أما الخير فهو خير حتى أمد الدهر، فلا الضر يأسرك أبدًا، ولا بالنفع أنت نبي مرتجى، فالهاربون من الخيط الأحمر الذي غزلته جموع "القبالا" على جباهنا ليسحروا الناس، دائمًا ما يهربون بعيدًا عن الحياة، ليبتعدوا عن كل ما جاءوا به من أرواح شريرة، لكنهم يعلمون أن تلك الجموع تجلس في مكان ما يتفرجون على العالم من بعيد، ويحركون كل أحداث الحكاية الكبرى كما يشاءون، ثم يضحكون على كل أفعالنا

العظيمة، أو ما نظنها عظيمة، فـ"هرمس" النبي تحصن بالقلم، فكان أول من خط به على الرمال، وأول من خاط الثياب، وأول من اهتدى بالنجوم، فعاش حياته الطويلة يبحث عن المعرفة الكبرى، فتعلم لغة كل شيء، وعاش ثلاثمائمة وخمسة وستين عامًا مروا عليه كعام واحد جمع فيه خير الناس جميعًا، حتى حاصره الشر من كل جانب، ففضل أن يذوق الموت ليعلم ما في الموت، ثم يعود للحياة، فأسكنه الله سماء الأرفلون، ليظل أسطورة عظيمة لكل ساعٍ إلى الخير، لذلك فثوب الحقيقة ما يزال ضائعًا بعد أن فضل هؤلاء الانسحاب من تلك الدنيا، وما أنا إلا رجل ولد في آخر الزمان ليجمع شيئًا من خيوطه ثم يموت، ثم يأتي من بعدي رجل فقير ليكمل الرحلة، لكن أسئلة كانت لا تزال تَمُور في وجداني، فكيف أرى مالم يره غيري؟ فأعيش لحظاتٍ في الماضي، ولحظاتٍ في الحاضر، لكنني لم أر المستقبل بعد، بل المجهول هو ما يقودني إلى رحلتي الطويلة التي ستنتهي مع آخر حبة رمل تنفذ إلى الجانب الآخر، فاليقين هو ما يدفعني دائمًا إلى رؤية بصيص النور الذي يرسله الله مع طلوع الفجر.

كنتُ مازلت أسير عكس تيار المياه المتدفقة إلى مثواها الأخير، وأنتظر القارب الذي سيأخذني إلى حيث لاأعلم، فالطاقات الخارقة

تتولد دائمًا من السير عكس الاتجاه، فأسرعت الخطى، وأخذت أدندن لحنًا قديمًا، راق لي في تلك اللحظات التي تحتاج إلى المزيد من الجنون، أو إلى المزيد من الرحمة، فـ"وقوع الموت أهون من انتظاره"، وكذلك هو المجهول كما الموت، ألقيت بجسدي المنهك على مقعد حجري، واحتضنت حقيبتي، وسلمت نفسي لغفوة لم أستطع مقاومتها، شاهدت كل شخوص الحكاية يطوفون من حولي، منهم من يضحك بشدة، ومنهم من يبك بشدة، ومنهم من وقف يحمل كتابًا، ومنهم من يحمل خنجرًا ويريد قتلي، فنهضت من غفوتي مفزوعًا، فما رأيته ليس حلمًا، فقد كنت أشعر دفء أنفاسهم، وأستطيع لمسهم بيدي واحدًا تلو الآخر، حتى إن "صاحب الصندوق" اقترب من أذني وهمس فيها، وأشار بعصاه:

-القارب هناك في انتظارك على بعد إحدى عشرة خطوة.

حملتُ حقيبتي، وخطوت بقدميّ الخطوات المحددة، فرأيت القارب الشراعي راسيًا على الشاطيء، هبطت الدرج إلى أسفل سريعًا، ثم قفزت داخله، وجلست حيث لا أحد يقودني إلى "أرض نبو"، فحركت الرياح شراعه، وبدأ يمخر في الماء دونما قائد يحرك مجاديفه الخشبية، حتى أصبحت في منتصف النهر، أطالع الحياة على البر

الشرقي، وقبور الموت على البر الغربي، وأمد أصابعي في المياه لأنحت ما عجز عن نحته السابقون، اندفع القارب بقوة، نحو "أرض نبو" فمررت بجزيرة "فيلة" حيث اصطفت كهنة معابد "إيزيس"، و"أريسنوفيس"، و"ماندوليس"، و"إمحوتب"، و"حتحور" تتشح أجسادهم بالبياض، وهم يحملون في أياديهم شموعًا مضيئة، يلوحون بها في صمت، فهنا يُعبد الصمت المقدس، ويُحرم الكلام، والضحك، وصيد الطيور، وكل شيء حي، فانطلقت روح "أوزوريس" الذي ضحى من أجل هذه الأرض تحلق فوق القارب تحرسه من تماسيح "ست" إله الشر، التي قصدت تغيير مساره لأسقط في بحيرة النار، ويحترق الكتاب، وأحترق معه وتموت الحقيقية التي أبحث عنها قبل أن تولد، ثم يتبخر جسدي وأهوي في العالم السفلي السحيق حيث يُعذب المذنبون، فينقطع أثري وتزول رائحتي الآدمية، ويموت قريني المسكين، وأصبح كأني لم أكن، فزحف كبيرهم "سوبيك" إلى صخرة عالية، وصرخ فيهم بقوة بأن يفسحوا الطريق للقارب، ويتركوني أمُرُّ بسلام إلى حال سبيلي، فـ"سوبيك" الذي أشفق على "أنس الوجود" حينما جاء يبحث عن حبيبته التي حبسها أبوها الوزير في الجزيرة المعزولة ليمنعها من زواجه، فحمله على ظهره وأخذه إليها، ما زال قلبه عامرًا بالخير،

رفعت له حقيبتي لأعلى تعبيرًا عن شكري وامتناني، لكنني لم أكن أعلم أن فرحتي ستكون سببًا في انزلاق كتابي في الماء محدثًا دوامة كبيرة، هاجت على أثرها التماسيح، وصرخت بقوة، وبدأت تصنع بذيلها خطوطًا دائرية حول القارب، فتوقف في مكانه وسط النهر لا يتحرك، رغم محاولاتي اليائسة في تحريك المجاديف، حتى أتى الصباح، فتفاجأت بأنني أطفو فوق سطح الماء بلا قارب، وتحيط بي التماسيح من كل جانب، تكشر عن أنيابها.

استيقظتُ من نومي مفزوعًا، فتحت حقيبتي لأطمئن على الكتاب، فوجدته في مكانه، نظرت حولي فلم أجد أثرًا لـ"سوبيك" أو تماسيحه الشرسة، ازدردت ريقي، وقمت من مكاني وأنا أحمل حقيبتي، وسرت إحدى عشرة خطوة للأمام، فوقعت عيني على قارب راسيًا على الشاطيء، يجلس على رأسه صيادًا أسوانيًّا يلقي بشباكه، بينما أمسكت زوجته بالمجاديف وجلست على رأس القارب في الاتجاه الآخر، هبطتُ الدرج إلى أسفل، فالتفتت المرأة إلى الحقيبة، وأومأت لزوجها بأن ينتبه للقادم المنتظر، انتشل الرجل شبكته سريعًا، ومدّ لي يده لأصعد القارب مُرَحبًا، فابتسمت، وقبضت على راحة يده لأفصل نفسي عن الحلم الطويل الذي انتهى للتوّ، وترك لي إحدى عشرة خطوة فقط

أخطوها نحو الواقع، فالحلم الذي ينتهي بالجنة، ليس حلمًا بل هو هدية من الله يتلاقها القلب، قفزت في القارب، فانطلق الصياد في اتجاه "أرض نبو" غير عابئ بصيده، مررنا بمعبد "فيلة" فقص عليّ أسطورة "أنس الوجود"، وحبيبته "زهرة الورود" والتمساح "سوبيك" الذي تخلى عن الشر عندما غلبه الحب الساكن في قلب العاشق، وقرر أن يخلد اسمه كحيوان نبيل، ثم راح يحكي عن "إيزيس" وأوزوريس" ولو شئت فإنه لن يكف عن حكاياه التي لا تنتهي.

مرَّت "جزيرة العشاق" من جوارنا كفتاة عظيمة جلسَتْ تنتظر حبيبها الغائب، وبعد ساعات لم تطُل استقبلنا معبد "أبو سمبل" من بعيد كعجوز صحراوي قاسٍ مهيب، لكن الصياد نصحني ألا أُطِيل النظر إليه، لأنه وعاء كبير لتجبر السلطان، فقد بناه أسرى الحرب، وسكنته تماثيل الملوك بعد أن سخروا لها الشمس التي باتت تشرق على وجوههم وحدهم، ونسوا أن هناك شعبًا يجلس في الظلام على ضفاف النيل منذ آلاف السنين، يشعر بالبرد والحرمان، همست زوجة الصياد بكلمات لم أفهمها، لكنني أيقنت بعد ذلك أنها تبشرني ببزوغ رؤوس البيوت البيضاء في "أرض نبو" حيث يكمُن أصل كل شيء، نفخ الصياد في بوق ضخم قديم، فخرج أصحاب الدفوف بالجلاليب البيضاء، والجرجار،

يدقون دفوفهم، ويملأون الدنيا بالغناء النوبي الجميل، وما إن رسي القارب على الشاطيء حتى ارتفع الغناء، وتناثرت الورود، والألوان التي اختلطت بلون الطمي الذي غلف أجسادهم، فبدت ملابسهم البيضاء، وقبعاتهم الصغيرة الملونة كنجوم تبرق في عز النهار، كنت مندهشًا لحفاوتهم بشخص لا يعرفونه، ولم يسبق له زيارة تلك الأرض، لكنني علمت من "الصياد" بأن حلمًا اشتركوا فيه جميعًا جاء يبشرهم برجل سيأتي إليهم خلال أيام يحمل في يده حقيبة سوداء، داخلها كتاب سيخلد ذكراهم حتى نهاية التاريخ، فحدقت في وجهه طويلاً وهبطت من القارب لتطأ قدماي أرض "نبو" للمرة الأولى في حياتي.

انصرفوا جميعهم وبقيت وحيدًا أعتلي تلة صغيرة أرى من خلالها البيوت البيضاء ساكنة، فلا صوت يخرج من أي باب، ولا حركة تُنبيء عن حياة هنا سوى حركة المياه التي تجري نحو محافل النيل، خرج عجوز من منزله الصغير متكئًا على عصاه، اقترب مني حيثما أقف، رفع رأسه لأعلى فبرقت لحيته البيضاء في ضوء الشمس:

-مرحبًا "آمي دوات".

- اسمي "مازن".

-جئت حاملاً قطعة من كتاب الموتى؟

-إنها مخطوطة كتبت فيها حقيقة ناقصة.

-لا توجد على أرض "نبو" حقائق ناقصة.

-هل أعثر على ضالَّتي وتنتهي الرحلة هنا؟

-اغسل قدميك من ماء النهر أولاً يا "آمي".

-اسمي "مازن".

-اركُض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب.

- ستبدأ رحلتي من هنا أليس كذلك؟

-احذر الخيط الأحمر لأنه سيحرقك.

-الخيط الأحمر لم ينج أحد منه قط.

-إذا ساورك الشك فارفع يديك إلى السماء كي تحملها عنه.

انصرف الرجل وعاد يغلق عليه بابه، خلعت نعليّ ونزلت إلى ماء النيل، غسلت قدمي، ثم عدت لأكمل رحلتي حافيًا أدوس رمال الأرض الأولى حتى شعرت وكأنني أخطو في قطعة من حرير بيضاء، فخرج أهل المدينة يمارسون حياتهم في هدوء، حتى استقر حدسي أمام بيت

كبيرهم، طرقت الباب على مهل، فبانت فتاة سمراء تفتحه لي وتلفع وجهها الأسمر خجلاً، أذنت لي بالدخول، ألقيت عليها السلام، فأمرتني أن أجلس في فناء الحديقة جوار البئر أنتظر حتى يأتي من يصطحبني إلى الداخل، ثم حذرتني من الاقتراب من ماء البئر، إلا حينما يُؤذن لي بذلك، فجلست أتأمل أشجار البستان التي لحقها الجفاف، وتناثرت أوراقها الصفراء في الأرض فبَدَت كبساط من رماد، وبينما أنا كذلك توقف أمامي طفل صغير يرتدي جلبابًا، ويضع على رأسه قبعة بيضاء، يعلق في رقبته كيسًا قماشيًا، ويمسك في يده اليسرى بكسرة خبز يجتمع حولها الذباب، أما باليد الأخرى فكان يحمل لوحًا من "إردواز"، كُتب عليه بالحجر الجيري أحرفًا هيروغلوفية تشير إلى الحياة الأبدية الأخرى، إنها عبارات من كتاب الموتى، كما أظن لكن الكتابة البدائية لم تؤكد لي ما ظننته:

-أخرج كتابك وأقرأ مما جاد به عليك الآخرون.

- سبق وأن رأيتك في الشارع الأعظم.

-أنا مضغة تكمن داخلك يا "آمي".

- أنا "مازن" ولا أدعى "آمي".

-لكل منا اسم لا يعلمه، وحياة لم يعشها.

-أخرجتُ الكتاب وأخذت أقرأ ما بدا لي من حكايات، حتى انتهيت، بل توقفت، لينكشف لي المزيد من النور:

-تنقسم رحلتك إلى اثنتي عشرة ساعة تقضيها في العالم الآخر.

-لقد مللت اللعبة يا طفلي الصغير.

- لكل ساعة اسم مميز ومكان معين.

- متى تنتهي اللعبة إذًا؟

-عليك أولاً أن تدرك كل تلك الأسماء لتهزم الوحوش.

خلع الطفل كيسه القماشي، وألقى بكسرة الخبز، وبلوح "الإردواز" على الأرض، صعد إلى حافة البئر، ثم قفز في أعماقه، هرعت من مكاني كي انتشله لكنه ذاب سريعًا، واختفى في الظلام، وظل ينادي في الأعماق:

-حافظ على أشيائي حتى نلتقي يا "آمي".

ظهرتْ الفتاة السمراء ذات النطاق الأزرق، وطلبت مني الدخول إلى المنزل بعد أن أذن لي كبيرهم بلقائه، فحملت كتابي، وأشياء الطفل التي تركها خلفه، وسرت وراءها إلى بهو المنزل الكبير، أجلستني على

أريكة من سيقان البامبو، وقدمت لي التمر والماء، والخبز الشمسي، والعسل، فأكلت ما يكفيني، واحتفظت بباقي الطعام في الكيس القماشي ليكون لي بعض الزاد، خرج كبيرهم من حجرة جانبية مرتديًا زِيّ ملوك النوبة القدامى، يحمل في يده اليمنى "صولجان" من الذهب، ويضع على رأسه تاجًا من الصلصال الأحمر، جلس على مقعد خشبي قصير:

-رأيتك في منامي ليلة أمس.

-جئت لأبدأ رحلتي من هنا.

-كل شيء يبدأ من هنا.

- ستكتبون حقيقتكم في كتابي هذا.

-بل أنت من ستكتب كل شيء.

أمرني أن أمثل أمامه، فاقتربت منه بحذر شديد، فناولني قِنِّينة من الذئبق الأبيض، وطلب مني أن أتجرع ثلاث جرعات، ففعلت ما أمر به:

-لقد جاء "قارون" إلينا طالبًا منا أكسير الحياة، فأعطيناه ما يحول به التراب ذهبًا.

-لكن "قارون" خسفت به الأرض.

-نحن لا نمنح الطامعين الخلود.

- أنا جئت لأغزل ما نقص من ثوب الحقيقة.

- ازرع ما تبقى من بذورك في حديقتي وستثمر أشجارًا تظل خضراء ماحييت.

-الموت قد يسبق الحقيقة.

- لكنك إن مت سنعلم عندما تتحول أشجارك إلى رماد.

- الموت هو عدوي الذي لا أتمنى مواجهته.

-سنبحث عن رجل آخر يكمل رحلتك.

نهض الكبير من مكانه، وأشاح بوجهه عني، ثم عاد إلى غرفته يغلق عليه بابه، أمرتني الفتاة بالخروج إلى المدينة، لأعيش بين أهلها وألا أحتفظ بشيء من أثرهم في كيسي القماشي، فلا يجب أن تختلط آثارهم بآثار الأمم الأخرى، زرعت ما تبقى من بذور التمر في الحديقة، وغادرت المكان.

بنى لي أهل "نبو" بيتًا من الطين، وقاموا بطلائه بألوان مُبهجة، فصار مميزًا عن بيوتهم، واختاروا لي فتاة لأتزوجها، ثم أقاموا لي عرسًا

أسطوريًا، وعلمني أحدهم صناعة أواني الفخار، فعشت بينهم آكل وأشرب من عمل يدي، حتى أتى يوم بشرتني فيه زوجتي "مانو" بحملها الأول، وأنها تنتظر المولود الذي سيأتي قريبًا ليغير مسار مدينتهم، فهي تحلم أن يكون يومًا ما كبيرهم، خاصة أنه الطفل الذي سيولد من رحم الحقيقية، كما جاء في مخطوطة الخلود، التي عثروا عليها معلقة في سقف مقبرة أحد خدام الملوك المجهولين، "سيولد طفل من رحم امرأة تتزوج من رجل يحمل كتابًا فارغًا جاء يبشرهم بالخلود، ينشر الفضيلة بينهم لكن سرعان ما تقتله الوحوش الضارية، وستبقى فضيلته بينهم لا تموت"، فتحت حقيبتي وأخرجت المخطوطة فتفاجأت برموز جديدة قد خُطت بالدماء، فرحت أبحث عن رسائل تأتي من مكان ما، لكن يبدو أنني أعيش تلك الرسالة بالفعل، فهناك رسائل تُقرأ على الرقاع، ورسائل أخرى تُعاش على الأرض، ورسائل نحلجها بأيدينا ونصدقها، فحملت فأسًا وخرجت لأزرع شجرة لابني ليقْتات منها بعد أن أرحل، لكنني توقفت ورحت أسأل "مانو" عن اسمه، فابتسمت:

-سأسميه "يوسف".

- أوله حلم ونهايته حقيقة؟

-آخره حقيقة وبدايته حلم.

لم أشته أن أعيش ذلك الحلم، أو أراه شاخصًا أمامي، لكن يبدو أنها الأحلام التي يجب أن ننصاع إليها قانعين بقدرها، فحفنة الرمال الطيبة التي تسابقني حتمًا أنها قد خرجت من هنا. من قاع النهر، وحتمًا أنه ما زال هناك مكان على تلك الأرض لا يحمل الشر للناس، فمنه تخرج أيدينا بيضاء من غير سوء، حملت حقيبتي، وأشيائي وأردت أن أرحل، أو أعود، بل أهرب، لكن أهل "نبو" حاصروني من كل جانب، فـ"آمي دوات" لا يجب أن ينسحب من الحكاية قبل بدايتها، لذلك قبضوا عليّ، وألقوا بي في منجم للذهب، وأوصدوا عليّ بابه الكبير، فلا قيمة للذهب في يد السجناء، ولا قيمة لحكاية مات بطلها دون أن يذكره أحد.

أخذت أنحت كل ما حفظته من حقائق عشتها طوال حياتي على جدران الكهف المظلم، وقررت أن أهرب إلى نوم طويل، أرى فيه حياة أخرى قريبة، فما أحوجني إلى الواقع في تلك اللحظات العصيبة التي تمر من حولي كقضبان النار، استيقظت من نومي بعد أن فقدت الأمل في أن أرى أي شيء، فرأيت الحقائق التي نحتها بأظافري وقد أضاءت، وملأت المكان بالنور، إلا حقيقة واحدة كانت لا تزال مظلمة، حقيقتي

أنا التي طالما ظللت أجهلها، فأبي الذي علمني لغات العالم، ووضع يده في يدي ذات يوم، وطلب مني ألا أنبهر بما تكشفه لي ألسنة الآخرين، لم يكن يعلم أنني سأخون عهده يومًا ما، وأعيش سطوة الانبهار تلك التي سقطتُّ فيها رغمًا عني، لذلك أنا هنا بين جدران السجن الذهبي، أعيش على زاد احتفظت به في كيس قماشي أهداني إياه طفل جاء يصرفني عن طريقي ثم انتحر في البئر، لكن قميص "يوسف" الملطخ بدماء الكذب ما زال لا يحمل رائحتي، ومازلت أهم بكل ذنوب العالم التي تغرقني من رأسي حتى إخمص قدمي، وسيظل أبي فاقدًا للنور حتى ولو ألقوا عليه قمصاني كلها التي تركتها في خزانة بيتي، لكن روحه تنتظر عودتي بعد أن أكمل نقش الحقيقة على كتابي هذا الذي أحمله خلال رحلتي الطويلة، وأعيش تحت رحمته علَّني أصل إلى النهاية، بكيت كثيرًا ودعوت الله بدعاء "يونس" حينما التقمه الحوت، لكنني لست نبيًا ينتظر رحمة الله، بل أنا بشر عادي أراد أن يصنع من الماضي طرفًا لخيط يتشبث به الجميع قبل السقوط في الهاوية، ربما أنا الآن من سقطت في الهاوية وأنتظر من يأتي ويمد لي هذا الخيط لأصعد إلى الحياة، فالحمد لله الذي جعلني روحًا تشتاق، وعينًا تدمع، وقلبًا يرق، ونفسًا تلوم، وجسدًا يتألم، وصوتًا يُسبح، وعينًا تسبح في

السماء.

انتهى الزاد. حتمًا سأشعر بالجوع والعطش الآن، أو غدًا، أو بعد غد، سأموت في هذا القبو دون أن يشعر بي أحد، فبماذا يفيد الذهب الآن وإن قضمه جائع أو شرب سيله ظمآن؟ غريب أمر هذا الإنسان الذي يقدس أشياءً لا تنفع ولا تضر، لكنها تظل تبرق في عينه فيقدم كل ما يمتلكه قربانًا لها، شعرت بالجوع في اليوم التالي، وزاد عليه العطش بعد يومين، ثم اقترب الموت بعد مرور اليوم السابع أو الحادي عشر، وأصبحت روحي تقف على أبواب جسدي تنتظر لحظة تنفذ منها من بين تلك الحجارة وتصعد إلى السماء، أما جسدي فسيظل حبيس الأرض.

("أيتها الآلام ارحلي عني سريعًا، أترجاك أيها القلب ألا تخدعني في العالم الآخر).

لقد كانت تلك هي كلمات "آمي داوت" الفرعون القديم الذي سعى نحو الخلود، وطمح في عالم سفلي أجمل من عالمه الذي عاش فيه، لذلك خط بيده السطور الأولى في كتاب الموتى، وأوصى بأن تدفن مع جسده الذي جرده من كل أوعية المتعة الدنيوية، وحقنه بالذئبق الأبيض

ليظل خالدًا بهيئته الإنسانية التي عاش بها، فيعرفه أهله وأصدقائه في العالم الآخر الخالي من الآلام، لكنني لست "آمي" الفرعون، بل أنا "مازن" الذي جاء يبحث عن الحقيقة، وأيقنت أخيرًا أن الحقيقة الكبرى تبدأ من الموت، لم تكن بوابة سجني كبوابات القبور بل يمكنني الإقتراب منها وإزاحتها من طريقي لأخرج من جديد إلى أرض "نبو" بقلبٍ آخر آن له أن يصدق كل ما جاءت به الأساطير الأولى، لكنني لم أفكر أن أهرب أبدًا، بل سأظل أنتظر حتى يأتي الرجال، ويفتحون عليّ الباب ويمنحونني حريتي التي حرمني منها ارتيابي، فلا يمكن أن أفكر في الهرب من العقاب، وأتحول في نظرهم إلى مذنب، وجبان، فبعد أن انتهى زادي من التمر، والخبز الشمسي، والعسل، بت أركن إلى الفناء في عالم لا يؤمن إلا بالخلود، لكن أكسير الحياة الذي تجرعته من كأس كبيرهم، سيجعلني أعيش حتى النهاية.

في الصباح جاء الرجال وأزاحوا الباب، حتى ذاب بين أيديهم، وانصهر تمامًا، منحوني طعامًا وشرابًا، فأكلت وشربت، ثم خرجت من جديد قاصدًا بيتي، فأخبرني الجيران بأن زوجتي "مانو" قد أنجبت طفلنا "يوسف"، وذهبت مع موكب السبوع إلى النيل لتغسل قلبه من مياهه، وتدشن القطرات الأولى في فمه كي لا يشعر بالظمأ طوال حياته،

فسكنت في قلبي فرحة غريبة، لم أشعر بها من قبل قط، ركضت سريعًا إلى شاطيء النيل، لأتفرج على من يحمل ابني، ويغمره بالماء، ويصب في جوفه بعض القطرات، فلوحت لي "مانو" من بعيد، وعلت الدفوف، وانطلقت فقاعات الألـوان تملأ السماء، وقفت أرقص وأردد معهم الغناء، والدعاء، وأطلق الأمنيات إلى عنان السماء، فخرجت "مانو" من النهر وعانقتني بشدة، ثم ألقت بسبع لقيمات من "العصيدة" في اتجاه مجرى النهر، وتركت الباقي للأطفال الذين تهافتوا لالتقامها، بينما اندفع قارب من قش القمح، وضع على رأسه شعلة من النار يسبح في النهر وسط ابتهاج الحاضرين، فأيقنت أن للفرح طعمًا آخرًا حينما يُولد عند بداية العالم.

حملتُ "يوسف" وضممته إلى صدري، وقبلته من جبهته، فانخرط في بكاء حزين، رفعته عاليًا ليرى النهر، فسقطتْ لفافة رقاع صغيرة من مهده على الأرض، أعدتُه لأمه التي حجبني عنها السجن لسبعة أشهر، وفتحت اللفافة:

- "آن لك أن ترحل إلى "واهي"، فهناك السم، والترياق".

حدقتُ في وجه "مانو" الأسمر، فأغمضتْ عينيها مبتسمة، وكأنها

تعرف كل شيء عن رحلتي، وعن رسائلي، وكتابي، أخذتْ اللفافة من يدي، وأعادتها إلى مهد "يوسف" فكفَّ عن البكاء، شقت طريقها إلى المنزل، والدفوف من خلفها تزف الرضيع الذي باركه النهر، فتوقفتُ أمام البيت خجلان، فالبيت الذي فكرت أن أنسحب منه وأغادر رحلتي يستقبل ابني الآن بالدفوف، حثني الجيران على الدخول، فترددتُ للحظات، ثم دلفت إلى الداخل، وضعتْ زوجتي "يوسف" في سريره المصنوع من الجريد، ونزعتْ من مهده اللفافة، رمقتني بنظرة طويلة:

-"يوسف" يشبهك تمامًا.

- بشرته سمراء رائعة.

- خذ رسالته وضعها في حقيبتك.

-لقد مُحيت معالمها.

-لكن كتابك ما زال بين يديك.

سحبتْ الحقيبة من يدي، وأخرجتْ الكتاب، وأمسكتْ براحة "يوسف" اليمنى وغرستها داخله، فشع منه نور قوي، أضاء في كل مكان، حتى إن عينّي لم تقو على تحمله، رفعت يدي أمام وجهي لأحجبه، فرأيت نفسي أرتدي زيًا صحراويًا غريبًا، أمتطي جملاً، أضع في ظهري سيفًا،

وأركض في الصحراء خلف نصف قرص الشمس الغارق في التلال ناحية الغروب، انطفأ النور فجأة، وعادت الغرفة إلى طبيعتها، اقتربت مني "مانو" وناولتني الكتاب، وطلبت مني أن أفتحه، فرأيت الحقيقة الثالثة مكتوبة بين أحداث رحلتي التي خضتها في "أرض نبو":

- (في "واهي" ستجد السم والترياق).

ملأت زوجتي الكيس القماشي بالتمر، والعسل، والبصل، والخبز الشمسي، والملح، والليمون، والسمك المجفف، ووضعت الأعشاب وقنينات الطمي لمواجهة المرض الطارئ، ثم علقت في رقبتي "مفتاح الحياة" وأوصتني بالاحتفاظ به دائمًا، فبهذا المفتاح الذي يشبه رحم المرأة، ستفتح لي كل خزائن الخير، وتغلق كل شقوق الحيات والعقارب، والثعابين، علقتْ الكيس القماشي على باب المنزل، وعادتْ تعانقني بشدة، ثم حملتْ "يوسف" بعد أن قبلته من جبهته، ودخلت إلى الغرفة الداخلية لتنام، فأتاني صوت "نهاد" من الظلام:

-سترحل عند الفجر؟

فظهر لي وجهها مع الضوء الخافت الذي جاء ليزيل معالم البيت النوبي، ويبدله بمعالم بيتي الأول حيث يجلس "ياسين" منشغلاً في

تنسيق مزرعته، فدارت بي الأرض، ومن عليها، ووقفت مذهولاً أتخبط بين حياة، تلو حياة، ثم تعود حياتي الأولى تلوح لي من بعيد بأصواتها وصورها المتداخلة لتذكرني أنني ما زلت في مكاني لا أتحرك، أردت أن أقترب منها، لكن حاجزًا من زجاج ظل يفصلني عنها، وعن "ياسين"، فلا يسمح لي إلا بالتفرج من بعيد، دون أن أحرك ساكنًا:

-قلت لك لن تحتاج أن تطرق علينا الباب.

-لا يمكنني الدخول.

-تزوجت؟

-أجبرتني الرحلة على ذلك.

-أنجبت طفلاً؟

-بشرته سمراء قاتمة.

-حقيبة طعامك علقتها عند الباب هناك.

في الصباح وقفت "مانو" في شباك الغرفة تمد بصرها ناحية الجبال، وتتأمل الشروق، ثم رفعت يديها للسماء، تدعو الله، في خشوع، فوقفت جوارها أتفحص وجهها الأسمر بكل قسماته المتوسلة، ثم رددت خلفها

الدعاء الذي يجلب بركة الشمس:

- (أشرقى يا شمس بالخير. يارب، رب هذه الشمس احفظني وعزوتي. احفظ ما لزوجى. احفظ ما لجارى. احفظ ما لجيرانى حتى الجار السابع، احفظ ما للمسلم، وما للمسيحي، واليهودي. احفظ ما للعصافير واليمام ولكل ما خلقته، يارب).

قبلتُ "يوسف" من وجنتيه، وحملتُ حقيبتي السوداء، وعلقتُ كيس الزاد على كتفي، ثم عانقت "مانو" عناقًا طويلاً، طالعت جدران المنزل للحظات، جذبت الباب خلفي، ورحلت إلى حيث يأخذني صاحب الحكاية.

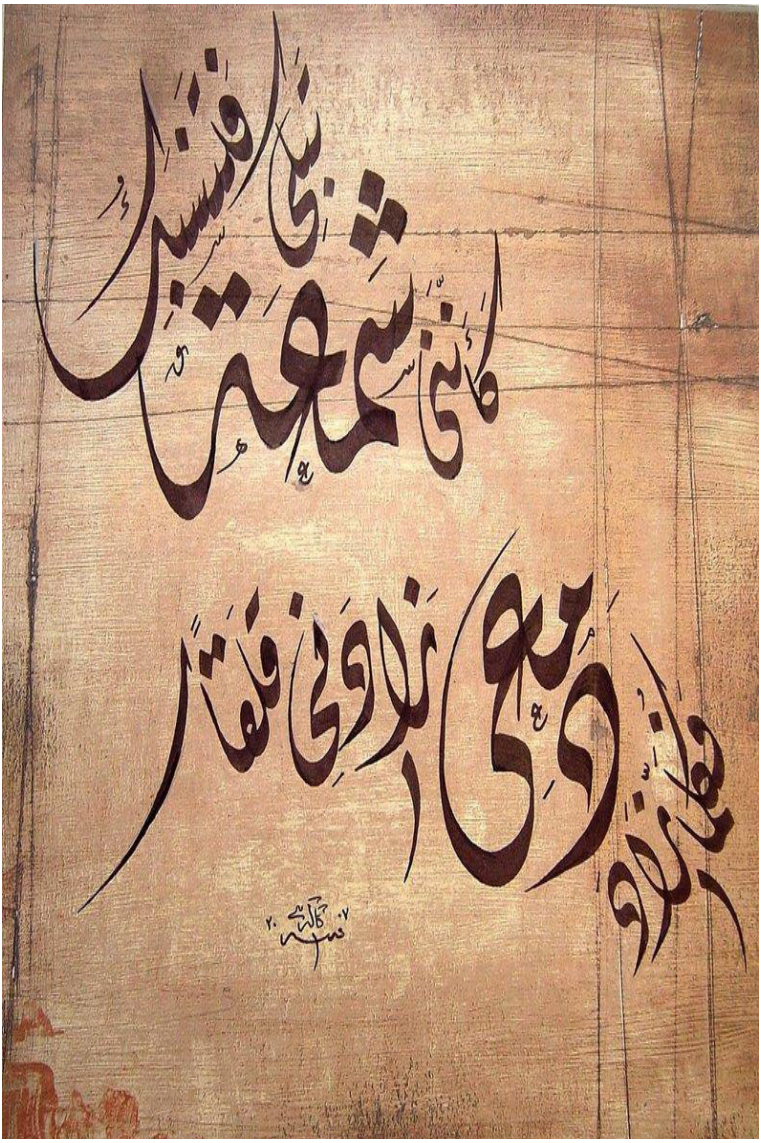
يا فتيل
لمن شمعة
وهي تلاوي فقر
نسمة

(٤-الطريق إلى واهي)

يا شمس يا بدر يا نهار×× أنت لنا جنّة ونـار

تَجنُّبُ الإثِم فيك ثم إثمٌ ××وخاصّية العار فيك عار

كان يجلس في الميدان تحت تمثال "عبد المنعم رياض" يرتدي حُلته الرمادية، ويرفع نظارته الطبية على جبهته، ويمسك في يده ورقة أخذ يُدَوِّن فيها ما كُتب على قاعدة التمثال من عبارات ثورية، ترددت قليلاً قبل أن أنبهه بوجودي، فرمقني بنظرة طويلة وذكرني بـ"شامبليون"، فضحكت لتكرار الحكاية التي ارتبطت في ذهنه بذكرى سيئة لا ينساها، لم أناقشه، ولم أتطرق إلى تفاصيل جدلية، لكن ما لفت انتباهي الخيط الأحمر الذي يغزله حول معصمه، ورغم محاولاته المتكررة لإخفائه

تحت سوار قميصه، إلا أن الأمر لم يمنعني من الاستغراب، فكيف لم يتبادر إلى ذهني للحظة واحدة بأن يكون مدرس التاريخ الذي أصر أن تكون حصصه كماكينة الخياطة التي ترصف الخياط في الثياب، ولا تخطيء رص العُقد في برود، واحد ممن أصابتهم لعنة "القبالا" التي تطلق معلومات لا جدال فيها، فتحول الإنسان إلى مجرد مُستقبِل لا يفهم، بل يحفظ، ويحفظ فقط، لم يتحول شعوري إلى ارتياب، بل كنت واثقًا بأنه مجرد شخص يُملى إليه، وعليه فقط أن يُطيع من دون تفكير، أبدى رأيه السريع في الثورة، لكنني لم أهتم، لأن عقلي المتمرد لا يقبل أقوالاً مكررة، وآراء هي محسومة في الأساس، يرددها هؤلاء المرضى بالشر، فالثورة هي الثورة مهما تفلسفنا وتكلمنا هي ثورة، فتمادى في شرحه الممل للعبارات المكتوبة على قاعدة التمثال العسكري، مبينًا أوجه التناقض الذي يعيش فيه الشعب، وأن تلك التناقضات هي التي تخلق رأسين للتاريخ، فوقفت صامتًا لا أعارض ما يقوله، وفكرت للحظات أن أُخرج المخطوطة التي أعيش تحت رحمتها وأمزقها أمامه، لأن لا قيمة لها أمام شعوري باللاجدوى، لكنه عاد يسرد نصيحته التي أدلى بها خلال مقابلتنا الأولى:

-إذا أردت أن تصل إلى الحقيقة فيجب أن تنسى كل الحقائق التي

وصل إليها الآخرون.

استأذن في الانصراف، بعد أن دسَّ الورقة في جيبه، فوقفت أتأمل خطواته الحثيثة في الميدان حتى اختفى وسط السيارات العابرة، وأنا أفكر في كلماته المتناقضة، كما تلك الشعارات التي تملأ الجدران.

في الحافلة التي تقلني إلى "الواحات" جلست في المقعد رقم "١١"، أما المقعد رقم "١٢" فظل خاويًا، ابتهجت لذلك، فأصحاب المقاعد المجاورة دائمًا ما يأتون بالرسائل المحيرة، لكن ابتهاجي لم يدم طويلاً عندما أزاح السائق الباب لأحد الركاب المتخلفين عن موعد الانطلاق، أغمضت عينيّ، وانتظرت حتى يمر، أو يجلس في أحد المقاعد الأمامية الشاغرة، لكن القادم أتى برياحه الساخنة من الخارج ليدسها جواري، فتحت عيني ببطء شديد، فلم أر إلا حقيبة صغيرة سوداء تشبه حقيبتي تمامًا، التفت إلى الأمام والخلف، لا شيء غير اعتيادي يجري من حولي، فكل المسافرين يجلسون في مقاعدهم كما تركتهم قبل أن أقرر إغماض عيني، مددت يدي إلى الحقيبة وأردت أن أفتحها، لكنني تراجعت، اطمأننت أن حقيبتي في مكانها، ثم هممت أن أنهض من مكاني لأخبر السائق عنها، لكن "قسيس" القطار سبقني بابتسامته، حمل حقيبته ووضعها في مكانها المخصص أعلى المقاعد،

وجلس جواري، فأيقنت أن صاحب الحكاية اعتاد أن يجعل لي حراسًا في حلّي وترحالي، فاستدرت بجسدي ودفنت وجهي في زجاج النافذة، وظللت صامتًا وأنا أتفرج على أكشاك الشاي المتهالكة، وأكوام القمامة الصلبة المتناثرة على جانب الطريق، فتحدث مستاءً من المنظر القبيح، فلم أعلق أو ألتفت إليه، فشعر بتوتري، ربَّت على كتفي:

-لا تكن قاسي القلب على رفيقك فإننا جميعًا قد تغلبنا الأفكار الشريرة.

-لقد سئمت اللعبة.

- عندما تجيد اللعب ستستمع به.

نهض من مكانه، أخذ حقيبته، ابتسم لي، غادر الحافلة، وظل مقعده شاغرًا.

دُهشت من مغادرته السريعة، دون أن يترك لي رسالة جديدة، فما قاله هي عبارات عادية، تُقال في مناسبات عادية، ولا يمكن تدوينها في الرسائل المصيرية التي ينتظرها رجل مثلي، يحتاج دائمًا إلى وخزات خفية تنبهه بأن شيئًا يحدث في مكان قصِيّ يجب أن يرحل إليه سريعًا ليشهد لحظة ميلاده، فلا يمكن أن أكون متفرجًا أبلهًا يأتي بعد النهاية

يُعلق في عنقه كاميرا، ويلتقط الصور لما أصبح ماضيًا تليدًا، بل يجب أن أكون جزءًا من الصورة ذاتها.

ما يؤرقني الآن هي أرض "واهي" التي تجمع تلك البقع الخضراء التي انبثقت في وسط الصحراء القاحلة، وكأنها ألقت بها لتحدثنا عن قدرتها في صنع جنان الأرض، وصنع الموت أيضًا، فالصحراء هي سماء الأرض التي يمكن أن نمسها دون أن نلتمس منها المُزن، ومن يقصدها كأنما قصد امرأة صريحة، تكشف عن مفاتنها دون خجل، لكنها قوية جدًا لا تموت إلا إذا هطل المطر وألبسها ثوبًا مزركشًا يداري سوءتها، مددت بصري إلى الفراغ، والرُبا البيضاء التي ألتهمتها الرياح، فحوَّلتها إلى نمالٍ بيضاء ضخمة تقف مصلوبة تحمل في فمها كتلاً من السكر، تبيعها للعابرين، ورحت أستعير من ذاكرتي بعض رموز المخطوطة التي تحكي عن حقيقة أخفاها قومها من اليهود في إحدى عشر كهفًا، وبقيت الحقيقة الأخيرة يحتفظ بها محارب قديم يسكن كوخ صغير تحت شجرة في الصحراء، سيظل حيًا حتى يصل إليه من يمنحها إياه، ثم يموت، أو يحيا من جديد، لذلك يجب أن أكون أول من يصل إليه، لكن الألغاز الكثيرة التي تحركها المخطوطة تضعني في مأزق كبير، وكأني أبحث عن حقيقة في بحر من الرمال المتحركة،

فأحيانًا تشير المخطوطة لإمرأة ترعى الإبل وتحتفظ بالحقيقة في جرابها الجلدي، والحصول عليها يحتاج إلى ملء جرابها بالذهب، وأحيانًا تشير إلى طفل صحراوي يحتفظ بها في أحشائه والحصول عليها يستوجب قتله، وأحيانًا تشير إلى أنها مدفونة في لثام فارس أمازيغي، والحصول عليها يستوجب مبارزته بسيف "الساموراي"، وقطع رأسه.

استقرتْ الحافلة على أرض "بنتا" فسحبت حقيبتي من مكانها، وترجَّلت على الرمال التي حملتني برفق وكأنها كانت تنتظر قدومي لتتلقفني بين حناياها الطيبة، فلم يباغتني الشعور بالاغتراب، أو الوحشة، بل كان شعوري غريبًا يتسلل إليّ بأنه كان لي بيت هنا، وزوجة وولد ثالث اسمه "يوسف" أيضًا، خرجت من المحطة وأنا أملأ رئتي بالهواء الجاف، فطوته دمائي داخل شراييني سريعًا، حتى انتهى رحيقه بحلاوة في القلب، سعدت بوجوه ساكنيها كمن آنس نارًا وسط الظلام، لكن ألغاز المخطوطة مازالت تتدفق على عقلي كخرير ماء فوق رأس حليق، لتنحت حفرة عميقة تتجمع فيها كل آلام الجسد المخدر بالزئبق الأبيض، الذي دفعه ملك أرض "نبو" إلى عروقي ليحظى بدوره الخالد في حكايتي التي لا أعلم متى أو أين تنتهي، وقفت على الرصيف أنتقى

"كروزة" تقلني إلى فندق قريب، فجاء من يغريني لركوب عربته المعدلة التي حلت فيها الدراجة النارية، محل الحمار الأعرج، فصارت أسرع "كروزة" في الكون كله، ولا أظن أنه يوجد في الكون كله ما يشبه "الكروزة" فحمل الرجل حقيبتي، ومسح صندوقها الصغير بكم جلبابة، ومدّ يده ليساعدني على الصعود إليها، لكن قبل أن أستجيب له، وأمدُ يدي تدخلت "كاريتة" بدائية يجرها فرس "باغاوي" أبيض اللون، قفزت غرته القرمزية داخل إطار المشهد فجأة، نزل سائقها وتقدم نحوي وبلهجة لطيفة وجه إليّ ترحيبه:

-أهلاً. دكتور "مازن".

التفت إليه مندهشًا، فمد يده يصافحني:

-مرحبًا.

-أرسلني إليك صاحب الحكاية.

اندثرتْ الأسئلة التي توقفت على طرف لساني، وحدقت في وجهه الصحراوي الأسمر الذي بدا من تحت عمامته البيضاء الملفوفة بإتقان كقطعة ليل مستديرة سقطت فجأة في سماء النهار، أخذ حقيبتي من صاحب "الكروزة"، ودفع له حسابه، واستأذنه في الرحيل،

ثم صفع فرسه بعصاه الخيرزان صفعة خفيفة، بعد أن ركبت إلى جواره، فطارت على أثرها "الكاريتة" نحو الصحراء المظلمة إلا من بقع النار التي تضيء من بعيد، حاولت أن أستفسر منه عن وجهتنا، عن أي شيء، لكنه كان قد أوقف حواسه كلها، مركزًا بصره في الطريق، فأصبح لا يسمع، ولا ينطق، ولا يشعر بوجودي، فنزع حقيبتي، وكيس الزاد بقوة، وألقى بنفسه من "الكاريتة" وتركني لمصيري، حاولت أن أقفز خلفه لألحق به، لكن شيئًا ما منعني من فعل ذلك، التقطت لجام الفرس الجامح، فصارت كل الأشياء من حولي لا تشبه أي شيء، وبدا أمامي نهر طويل من الليل حالك السواد يحده خيطان حمروان، فأيقنت أنني الآن قد سقطت بين فكَّي "القابلا"، قاومت كثيرًا، حتى انقطع اللجام، فزاد الفرس من جنونه، صهل حتى تحول الصهيل إلى عواء، وتجرد من بياضه، وهيئتة الملائكية، فرأيته ذئبًا يجرني إلى عوالم الشر، لم أجد بدًا إلا أن أستسلم، وأتنحى عن مقاومتي حتى لا أنكسر، فعلت "العربة" وانخفضت، اهتزت بشدة، حتى استقرت أمام معبد "التنبؤات"، اختفى "الذئب"، وبدأت الرمال تفتح فمها لتبتلع "العربة" في جوفها، ثم لفظتني بعيدًا، فسقطت أمام الباب، نهضت من مكاني، حينما سمعت فرقعة عظام جسدي وهي ترتد في أماكنها،

صعدت السلم الحجري ومشيت هائمًا على وجهي، حتى انتهيت في غرفة "قدس الأقداس" تفاجأت بـ"تشاكي" تجلس تحتضن الشمس، ومن أمامها حقيبتي السوداء التي كنت قد فقدتها، وكيس الزاد:

-مرحبًا. أنا تشاكي هل تريد اللعب معي؟

صوبتْ شعاعًا نحو رأسي، فاخترقها، ركعت على ركبتي في هدوء، لكن قبل أن أكمل الطقوس بالسجود، أمرتني أن أفتح الحقيبة وأخرج الكتاب، فانصعت للأمر لكن يدي اصطدمت بالفراغ داخلها، ومن وسط ذهولي، وعرقي الذي غمر جسدي كله، ارتد الشعاع إلى قلبها كقذيفة برق، فاحترقت في لمح البصر، وارتفعت الشمس في السماء، تشق طريقها نحو الشروق.

- اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ.

نطق"القسيس" الذي قفز من خلفي فجأة، بتلك الكلمات، قبل أن يضمني إليه بقوة، وهو يناولني حقيبتي السوداء، حيث يقبع كتابي.

-اسكن "جبل الموتى" فهناك الملجأ والملاذ.

-لماذا استبدلت الحقيبة؟

- اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ.

ظل يردد تلك الكلمات، مزيحًا درجات السلم من خلفه، حتى خرج من باب المعبد، واختفى في الخارج، وبقيت أنا في قدس الأقداس، أَسْتجمع قواي التي فقدتها، محاولاً استيعاب ما حدث، حتى غمرت الشمس المكان، وأصبحت كل طرق الخروج واضحة.

في الخارج بدت أرض "بنتا" كحلم رائع، فوسط الكثبان الرملية التي يشقها النخيل، وأشجار الزيتون المتداخلة، لا تستطيع سوى أن تتمادى في الحلم، وتتمنى ألا تستيقظ منه أبدًا، رفعت رأسي نحو الفتيات العابرات نحو أرزاقهن الصغيرة، وسألت نفسي، متى تختفي "تشاكي" من هذا العالم لأرى نفسي بين هؤلاء؟ علَّقْتُ كيس الزاد على كتفي، وحملت حقيبتي السوداء، وسِرْت في اتجاههن علَّني أستنشق من عطرهن ما أشرح به صدري المتَّخم بقطران المدن، لم يلتفتن نحوي، فأحنيت رأسي ودفنت بصري في الرمال، وانتظرت حتى توارت الفتاة الأخيرة التي ظلت تتلفت بدلالٍ من خلف الأغصان الخضراء، التي تداخلت مع براقعهن المزركشة فبدت وكأنها زهور تفتحت على استحياء، كانت عين "جوبا" على بُعد خطوات قليلة حيث يستعد الأطفال العراة لصدم أجسادهم بالماء البارد، قفزوا جميعهم في لحظة واحدة فطال وجهي البلل، أغمضت عيني وأخذت أنصت إلى

ما تهمس به الطبيعة في أذنيّ، فزقزقة العصافير التي ابتهجت بالنور تشي بالفرحات المتناثرة على التلال، أما صوت القنابر فظل يجمع الحزن من بين حبيبات الرمال، ويقذفه على أوراق الأشجار الصفراء المتساقطة، فتحت عينيّ وسرت نحو "شالي" بعد أن خلعت نعليّ لأشعر بالأرض، وتشعر بي، وأعرفها، وتعرفني، فحينما أتى "الإسكندر" إلى هنا، وصعد إلى المعبد وأفشى له الإله "آمون" بالسر الكبير، الذي رفض أن يبوح به إلا لأمه، صار ابن الإله الذي باركته الكهنة ليحكم البلاد، لم يكن يعلم هؤلاء أنه خدعهم، لأن "آمون" لم يبح له بأي شيء، ولم يسمع "الإسكندر" أي شيء، لكن الأرض وحدها هي التي يمكن أن تسمع، وترى وتطلع على نوايا الناس، فتبقى تحمل الحقيقة حتى وإن لم يصدقها أحد.

دس العقرب الأبيض سمه داخل دمائي، فلم أقاوم الألم كثيرًا، كما لم أقاوم روحي التي تشتاق إلى الصعود لأتخلص من ذنوب الأرض سريعًا، فالروح دائمًا ما تحمل دلائل الرياح؛ في هدوئها وعقلها، واضطرابها وقلقها، في حزنها، وفرحها، في دنوها وتعلقها بالسماء، فهكذا هي تدور في أجسادنا منذ نفخها فينا الله، لذلك يجب أن نقدسها ونجاري ثورتها كما الأشجار، ارتميت تحت شجرة زيتون، وأخذت أحملق في

الصقر الذي يفرد جناحيه ويحوم حولي، وفقاعات الشمس الملونة التي تتساقط من بين أغصانها، فرأيت العالم من حولي وقد تبدد، وتلاشى، وأصبح بقعًا زرقاء تُضيء، وتنطفئ، فالسم الرائع يتجول في شراييني، ويمتزج بكل ذرة حمراء تقابله، فيحولها إلى كائن وديع، يرفعني بعيدًا عن تلك الأرض المنهكة ببقايا البشر، تخلصت من كل أثقالي الآن وأصبحت ملاكًا يرى من أعلى ما لا تراه كائنات الأرض، فليس الموت هو ما يحيق بي، بل هو شيء أشبه بغلالة رقيقة تهدهدني بين غصنين، إنها حقًا متعة التخلص من الأحلام السيئة، فرموز المخطوطة تلهو أمامي، تتبدل، تعلو، تنخفض، تتكاثر، تنفجر إلى شظايا صغيرة، وتنتشر كزهور برية صغيرة تطفو على سطح غدير من عطر، أيقنت الآن أن الحقيقة تولد من اللاموت، وأن الشر يسكن بين حنايا الحياة، فالموت لا يتعارض مع الحياة، لكنه عكس الميلاد، أما الحياة فتتجاوز أشكال العيش، الحياة لا وقتية وأبدية، إنها ما يكمن أسفل هذا العالم الجلي، فالسم الذي استسلم له "سقراط" لذيذ جدًا لأنه ينزف بالخلود، أما "آمي دوات" فقد أفرغ جسده من كل وعاء يحوي الشر، أو السم، فبقي جسده وماتت حكايته.

كانت قنبرة بيضاء تقف فوق قلبي تمامًا تتلو أهازيج من الماضي

السحيق، نقرت على صدري ثلاث نقرات متتالية، فانفتح على مصراعيه، التقطت قلبي بمنقارها، ثم طافت به في السماء، فأصبحت أرى الأرض كمن يعلم كل شيء عن أخبارها، عادت سريعًا وردته إليّ، وحلقت كملاك اختفى في بؤرة ضوء ومضت في عينيّ ثم تلاشت، شعرت بفتاة الواحة تبتسم، وسط حلقة العتمة الكبيرة، خلعت برقعها المزركش فسرح شعرها الأسود الطويل يطوقني، ربطته على شرايين القلب ليمنع وصول السم إلى حجراته الصغيرة، صبت على جبهتي بعض الزيت، وأحاطتني بالملح، أخذتْ كيس الزاد، ووضعتْ جواري ثلاث تمرات، التفتتْ إليّ قائلة:

-خلق الله القلب قبل الدماغ، وجعله مفتاح الحياة للأجساد، فظل ينبض بين يديه، ثم خلق منه خلايا، تركت بصمتها على أعضاء الجسم كله، فخُلق الإنسان قلبًا نورانيًا حرًا، ثم خلق الله الدماغ ليسيطر على الجسد، ويروضه، ليميز بين خير وشر، إلا أن القلب ظل في عالم معزول عن سلطته، فهو العضو الوحيد الذي يتلقى أوامره من السماء، والسماء فقط، فكن قلبيًا تسمو، واجعل العقل للتراب.. وما للتراب يفنى.

رفعت رأسي المثقل بالألم لأطالع وجهها الأسمر الجميل، الذي بدا

وسط أشجار الزيتون كثمرة رائعة، مكتملة النضوج، وهممت أن أشكرها، لكنها بادرتني قائلة بلهجة محذرة:

-لا تصعد إلى "شالي" فلن تعثر على ضالتك بين أهل المدائن.

تركتني وحيدًا ورحلت عني، فأخذت أمد بصري للسماء، حيث يحوم صقر الصحراء، ينتظر فريسته التي يخلفها الموت، لكنه لملم جناحيه، وعاد من حيث أتى بعد أن رأى روحي وقد ردت إلىّ، أسندت ظهري على جذع شجرة الزيتون، لألتقط أنفاسي، فالطرق الخاطئة دائمًا تأتي بالمصائب الكبيرة، شعرت بالجوع فجأة فبحثت عن كيس الزاد، فلم أجده معلقًا في عنقي، لكنني تعثرت بالتمرات الثلاث، التهمت الأولى بنَهَم، والثانية بوجع، أما الثالثة فلم تكن تصلح للأكل لأنها كانت تحوي رسالة الرقاع:

"في جبل الموتى ستعثر على نجاة العالم في لفافة الملاك"

حملتُ حقيبتي، ونزعت جسدي من بين مغازل السم الحانية، تقيأت كل ما في جوفي من لعنات سوداء، فأدركت أن الترياق كان يكمن ها هنا في التمرات الثلاث، اهتزت الأغصان المتشابكة قبل أن أغادر المكان، فلم ألتفت إليها، وتظاهرت بعدم اكتراثي بمن يقف يرْقُبُني من بعيد،

ليطمئن أنني ما زلت حيًا.

صعدتُ إلى جبل الموتى حيث النجاة من الموت، جلست بين القبور أنتظر القادم، الذي يأتي من غير موعد، لكن يبدو أن تلك المرة لن يأتي أحد، وعلنيّ أجد ضالتي بنفسي، فـ"لفافة الملاك" لن تتوقف عندها الحقيقة، فالحقيقة لا يمكن أن تنتهي بين مضاجع الموتى، استلقيت بظهري فوق مقابر "الرومان"، ونظرت لملامح القمر الذي جاء يذكرني بكل ما مضى، فالذكريات تكسوها الفضة، والمستقبل يخفيه التبر، أما حقائق التاريخ فيغلفها النحاس والفخار، لذلك فهي باقية لا ينظر إليها اللصوص، طالعت قبور الجبل التي تشبه مستعمرة النمل، وأخذت أتجول بين مئات الفتحات، وأردت لو أتوسل إليها فتحة تلو الأخرى بأن تكشف لي عما في باطنها، لكنها أمنيات واهية لرجل كسول، اتجهت صوب مقبرة "سي آمون" التي شعت جدرانها بنور حيوي، بفعل ضوء القمر المنعكس عليها، دخلت ببطء شديد، وتحسست الجدار الذي نقشت عليه الآلهة "نات" تقف تحت شجرة جميز، تحمل في يدها اليمنى صحيفة قرابين من الخبز، وفي يدها اليسرى إناء تنصب فيه المياه في بركة صغيرة، بينما تنساب فتتحول إلى مفاتيح الحياة، وإلى اليسار "سى آمون" يتعبد لـ"أوزيريس"، وطائر

"البنو"، قبضت على مفتاح الحياة المتدلي من عنقي، والذي كانت قد أهدتني إياه "مانو"، فأضاءت مفاتيح الحياة الصغيرة في بركة المياه، وتحركت النقوش على جدران المقبرة، فرأيت معركة كبيرة دارت بين جنود "نات"، وتماسيح "سوبيك"، سقط فيها "سي آمون" مضرجًا في دمائه بعد أن طعنه طفل صغير يرتدي جلبابًا ويحمل في عنقه كيسًا قماشيًا، وبينما يلفظ أنفاسه الأخيرة صوَّب إلى الطفل خنجرًا فأصابه في قلبه، فهرعت "نات" نحو الفتى وضمته لصدرها حتى فارق الحياة، وضعت رأسه على ركبتيها وظلت تبكي بكاءً شديدًا، فصعدت روحه كملاك يحلق في السماء، ينظر لوجوه الناس بعد أن أنجاهم من الشر، انتهت المعركة، وعادت "نات" تقف أمام شجرة الجميز تخاطب قنبرة بيضاء تحمل بين منقارها قلبًا لرجل مجهول، جلس تحت شجرة زيتون يقرأ لفافة وضعتها فتاة بين شقي تمرة.

خرجتُ من المقبرة أتنفس الصعداء، وسألت نفسي عن جدوى رسالة قد تحققت قبل أن تصل إليّ؟ فـ"لفافة الملاك" عشت أحداثها بالفعل، فرأيت العالم كله يلهو في لحظة واحدة كمن يعلم كل شيء، لكنني لم أحظ بأي شيء، ولم أتذكر سوى صيحة عالية انطلقت من مكان ما، انتفض لها كل البشر ثم عادوا كل إلى حال سبيله، فالرسائل المقدسة

لا تمنع التنبؤات، ولا تشق الوقائع، والأحداث، لذلك فنحن فقط نقرأ سطورها دون أن نزيد أو ننقص منها، فقد دفن جيش "قمبيز" العظيم حيًا في بحر الرمال، ولم تمنعه نبوءة كهنة "آمون" من التقدم نحو الصحراء، ولم يستطع أن ينجو بنفسه من الموت، رغم علمه المسبق بالنبوءة، وقفت أمام مقبرة "سي آمون"، فوقعت عيني في المقابل على مقبرة التمساح "سوبيك"، وقد علق على بابها لافتة حديثة، تشير إلى أنها مقبرة عثر عليها بحالة جيدة، خلال عام ١٩٤٤، على جدرانها نقوش زاهية، وداخلها تابوت صغير من الجرانيت لطفل مجهول، انتهيت من قراءة اللافتة، وابتسمت، لأنني وحدي من يعلم صاحب التابوت الآن، قلبت اللافتة الإرشادية رأسًا على عقب، وغادرت المكان، رحت أبحث عن مقبرة تؤويني حتى الصباح، بعيدًا عن ذئاب الواحة، ووحوشها المفترسة التي تخرج من جحورها ليلاً لتصطاد فرائسها.

مع شروق الشمس انطلقت الصيحة الكبرى، فتفتقت القبور، وخرج أصحابها من رجال، ونساء، وأطفال، يمارسون حياتهم على سطح الجبل وكأن شيئًا لم يكن، اختبأت في مقبرتي التي خرج منها ساكنوها وكانت امرأة، وطفل صغير يبدو أنه أحد أبنائها، وزوجها الذي كان يرتدي لباس الحرب، وأخذت أرقب ما أشاهده من بعيد، فالقيامة لا

يشهدها إلا الموتى، وأنا رجل حيّ أرزق، أشرب الماء، وآكل الطعام، وأدبُّ على الأرض بقدمي، وأرتكب الحماقات، وأستغفر الله، ثم أعود لارتكابها مرة أخرى، نظرت إلى ملامحهم الذابلة، وملابسهم البالية التي تهدلت من أجسادهم كجلد فاسد، وعشت رعبًا لم أشعر به من قبل، لكنهم كانوا يغادرون الجبل، وينزحون في اتجاه "شالي" المدينة الحصينة، حيث الحرص على حياة زائلة، والسعي إلى موت زائف، فتحت حقيبتي، وأخرجت كتابي لأتشبث بالحقائق، لكنهم أوقفوا تقدمهم، التفتوا إلى الخلف حيثما أختبئ، وغيَّروا مسارهم تجاهي، تجمعوا خارج المقبرة، وأخذوا ينحتون بأظافرهم على الصخر رموزًا غريبة، ثم تراجعوا، إلا واحدًا فقط، وقف بملامح إغريقية شبه مكتملة، يحمل سيفًا، ودرعًا نحاسيًا، حدق في وجهي طويًلا، ثم صاح بأعلى صوته، فصاح خلفه الموتى جميعهم، ألقى بدرعه عاليًا، وتراجع إلى الخلف، فالتفوا حوله حتى اختفى بينهم، اختفوا جميعًا عندما ابتلعتهم الرمال.

كدتُ أختنق، فخرجتُ من المقبرة سريعًا، أردتُ أن أهرب من هذا الواقع الذي يُشبه هذيان رجل أقبل على الموت، لكن يبدو أن لحظات الانكشاف التي أعيشها هي أشبه بتلك اللحظات الأخيرة التي يراها

المقبل على الموت، سرتُ نحو الفراغ الجاسم من حولي علَّني أقابل من يرحمني من هذا العذاب، كنت أفكر جديًا في العودة بعد أن شعرت بأن الطرق الصغيرة تتشعب إلى طرق أخرى أصغر، فأصغر، حتى أصبحت كأنني أسير في أنابيب شفافة دقيقة جدًا لا ينفذ إليها الهواء، وقعت عيني على الدرع النحاسي، فانتشلته من الرمال، ورحت أقرأ النقوش، والرسوم التي حفرها أحد العارفين، فتفاجأت بما كتب بلغة إغريقية مندثرة، وسيئة جدًا:

"هناك في "كوكهليت"، على جبل "جزين" تحت سلالم كهف علوي، تحت الأرض يُوجد صندوق، ومحتواه من ستين تالين فضة، عند مدخل ينبوع "بتشام" توجد أوعية من الفضة، وأوعية من الذهب من الهبات، والفضة، ويبلغ مجموعها مائتي تالين، في المجرى العظيم تحت الأرض لحجرة الدفن باتجاه بيت حجرة الدفن، فإن المجموع يبلغ أحد وسبعين تالينًا، وعشرين ميناس".

مُحيت كل نقوش الدرع، فتحول إلى قطعة نحاس خربة بمجرد انتهائي من فك طلاسمه، ألقيته من يدي، فابتلعته الرمال حيث دُفن صاحبه، وبقيت أنا على وجه الأرض أسبح في لغز كبير، ألهو معه ويلهو معي، لم أكن أعيش متعة كبيرة، بل المتعة الحقيقية تكمن هناك عند النهاية،

فما قرأته على تلك المخطوطة النحاسية هو خريطة لكنز ضخم دُفِن في مكان ما، وما جئت أبحث عنه ليس بكنز من الذهب والفضة، بل ما أبحث عنه هي قطعة رقاع تائهة، كُتبت لتكمل حقيقة ناقصة تتعلق بحياة البشر لا بموتهم، فالكنوز هي من أعمال الموتى تركوها مخبوءة في كهوف مظلمة كي نظل نعيش في وهْم البريق، فننصرف عن الحقائق التي قد تُغير مصائرنا، بجمع الوهم الكبير، لكن الزُّبد يخرج أحيانًا من باطن الصخور الثمينة، فالحجارة لا تكف أبدًا عن البوح بالأسرار الغائبة، لذلك خلقت أنا لأفهم تلك اللغة، فـ"سليمان" الترجمان أراد ذبح هدهده لولا أنه افتدى نفسه بالنبأ العظيم، وها أنا أبحث عن نجاتي وسط الأحياء والموتى.

في مقبرتي كان "ياسين" يرتب مزرعته الفاضلة، ويقضم الشيكولاتة، أما "الدكتور إمام" فجلس يقرأ الحقائق التي جمعتها في كتابي، بينما انشغلت "مانو" في إرضاع "يوسف"، لكن "نهاد" لم تظهر في المشهد، ربما ألْهتها أعمال المنزل عن الحضور، أغلق "الدكتور إمام" الكتاب بعد أن أومأ برأسه راضيًا، ابتهج لحضوري، لكنه امتص دهشتي قائلاً:

-دائمًا ما أمنح ثقتي لأهلها.

-لكنني.

-تعبت؟

-بل مللت الذهول.

-الدماء ليست شيئًا مفجعًا للقتلى.

-لكنني لست بقاتل.

-من لا يصل للحقيقة فقد قتلها.

-حيَّرتني الطرق المتشعِّبة.

-الحقائق دائمًا ما يدفنها أصحابها أسفل الكنوز.

-هل أعود إلى "كوكهليت"؟

-امض في طريقك ولا تنظر إلى الخلف، فطرق العودة مضللة.

-لكن الذكريات دائمًا ما تؤرقني.

-حينما تُرغم نفسك على التسكعِ داخل مدائن الذكرياتِ فلا يمكن أن تُغادرها اختيارًا، فدعْ نفسك تنسابُ طوعًا إلى حيثُ تبتغي، فسرعان ما تزولُ آلامك حينما تعلم أن عند الله المنتهى.

اختفى "ياسين"، و"مانو"، و"يوسف"، ولحق بهم "الدكتور إمام" وبقي كتابي مفتوحًا أعلى الصخرة.

عادت إليّ فتاة الواحة تحمل كيس الزاد، منحتني إياه بعد أن أضافت إليه قنّينة ماء من "عين آمون"، ثم تحدثت بكلمات أمازيغية مقتضبة لم أفهمها لكنها ملهمة، أشارت إلى أسفل جبل الموتى، ثم جلست القرفصاء تغنّي بصوت حجري أغنية ساحرة تحكي بها قصة راعٍ صغير خرج صباحًا إلى الجبل يرعى غنمه، فدلَّته شاة شاردة على ثلاث جرات من النحاس في كهف مظلم، لكنه فشل في فتحهم، فجلس فرحانًا بكنزه الثمين، يحلم بقصر كبير يسكنه، ومن حوله خدم، وحشم، وجوارٍ، وعبيد، ولما نزل إلى المدينة ساعده أحد النجارين على نزع السدادات الخشبية عن الجرار، لكن خاب أمله حينما عثر داخلها على رقاع ماعز، تحمل رسائل قديمة كتبها قوم اعتزلوا الناس، وسعوا للبحث خلف حقيقة الأشياء، وعندما كشفت لهم الطبيعة عن أسرارها، خطُّوا حقائقهم التي عاشوها على الرقاع، ثم تركوها في الجرار لصاحب الحظ السعيد، لكن الفتى الأحمق ظل يبكى كثيرًا لضياع حلمه، فحمل الجرّات الثلاث، وبعثر ما فيها على قارعة الطريق، حتى جاء من أقصى المدينة رجلٌ، جمعها، وحزمها برباطه الأحمر، وأخفاها في رَحله، ثم صعد إلى الجبل ليجمع الحقائق الباقية من أحد عشر كهفًا، وهبط إلى المدينة ليحكم العالم، لكن بقيت حقيقة

ناقصة، من دونها تموت كل الحقائق.

أخذتْ الفتاة تردد أغنيتها مرات، ومرات، حتى ظننت أنها لن تكف أبدًا، لكنها كانت رسالة طويلة لا بدَّ وأن أفهمها، فيجب أن أنتهي من غزل ثوب الحقيقة كاملاً قبل أن يصل إليه أصحاب الخيط الأحمر، ويكملوا غزله بحقائقهم الخادعة، فيتربَّعوا على عرش الدنيا، فإما نؤمن لهم فيرضوا عنا، أو يقتلونا وينثروا جثثنا على قمم الجبال ليلتقمها الطير، ونُحشر في حواصله، صفقت لها حينما انتهت، فشكرتني، ثم نهضت من مكانها، وسارت في اتجاه القبور، لكنها توقفت والتفتت نحوي، حدَّقت في وجهي طويلاً، ثم استسلمت للرمال التي التهمتها ببطء شديد حتى اختفت تمامًا، فنبتت من قبرها شجرة زيتون وارفة الظلال، لم أحاول التدخل أبدًا، فتلك الوقائع يجب أن استسلم لها، لأنها ستنتهي شئت، أم أبيت، نظرت إلى شجرة الزيتون التي أضاءت في وضح النهار، فزادته نورًا على نور، وأيقنت أن اللّه قد تجلى ها هنا، فخرَّ جسدي ساجدًا، أما روحي فقد ظلت معلقة بين سماء، وسماء.

حملتُ حقيبتي، وعلقت كيس الزاد في عنقي، وهبطت من جبل الموتى إلى حيث يقطن الأحياء، لكنني لا أعلم إلى أين سأذهب بينهم؟ فالعيش مع الأحياء يسير كما العادة، أما مع الموتى فكل شيء مختلف،

والحقائق الغائبة دائمًا ما تقفز من الطرق التي لا نتوقعها، لكن تلك الطرق كالفرص لا تأتي كثيرًا، لكنك إن فوَّتها تختفي سريعًا، وتنطوي على حقيقتها إلى الأبد، فالطريق المنشود لا يقابلك إلا مرة واحدة، وليس أمامك إلا أن تفوت فيه، أو تنساه، وتبحث عن طريق آخر يأتي لك بحقيقة مختلفة تمامًا، لكنني لا أملك الاختيار فقط أسير في الدروب وفق خطة رسمها هذا الرجل الذي يراقبني من بعيد مختبئًا خلف الأغصان دون أن يكشف لي عن وجوده، ومن أجل ذلك أشعر بأنني مجرد هامة من هوام الأرض، تنتظر رؤية بؤر النور لتتهافت عليها علَّها تعثر على ضالتها، فتخوض الرحلة دون أدنى مقاومة، لكنها إن حَادَتْ عن الطريق الصحيح نالت العقاب الذي يدفعها إلى الجنون.

-انتهت رحلة الموت، فمرحبًا بك في رحلة الحياة.

ردد الرجل السبعيني تلك الجملة ثم أمرني أن أتبعه إلى بيته المحفور في قلب الصخور حيث يعيش في الصحراء، قدَّم لي ثلاثة أحجار زرقاء على طبق من فخار، وطلب مني أن أبتلعها ببعض من ماء "آمون"، لم أنصع لطلبه، ورفضت رفضًا قاطعًا أن أفعل ذلك، فحمل أحجاره، ووضعها في جيب جلبابه، وأخذ يقرأ بعض الكلمات الأمازيغية غير المفهومة، فشعرت بماء يتدفق في فمي، وأحجارًا تنزلق إلى جوفي

رغمًا عني، فنظرت إليه فاغرًا فاهي، حينما أشار لي بأصابعه المتجعدة ناحية النافذة الوحيدة في المغارة، فرأيت نهرًا يجري، وبستانًا من زهور تتقافز حولها بعض الغزلان البرية البيضاء، وفتاة تجلس تمسك في يدها آلة "الماندولين" تعزف لحنًا مبهجًا، وتغني بصوت غير مسموع، التفتّ إليه مندهشًا، لكنه عاد يتمتم بالكلمات الأمازيغة نفسها، فاختفى المشهد، وعادت الصحراء:

-يمكنك الآن أن ترى وهج الأماكن.

-الحقيقة هي كل ما أريد أن أراه.

ضحك الرجل ضحكة مستهزئة، وطلب مني أن أغادر بيته، لأكمل رحلتي، لكن قبل أن أمرق من الباب نادي عليّ قائلاً:

-أحسن ترتيب أشيائك القديمة.

-جئت لأغزل ثوب المستقبل سيدي.

-على سفح صخور قديمة فوق هضبة جفَّفتها الرياح يعيش قوم ينتظرون الثعلب الشاحب الذي يمتلك موهبة رؤية المستقبل، لكنه نتيجة فقدانه صوته يتواصل مع الناس عبر العرافين، العراف يغزل قبل الغروب على الرمل جداول مستطيلة، مزركشة برموز تتضمن أسئلة بالإشارات

فقط، ثم ينثر فوق الجداول حبوب الفول السوداني التي يحب الثعلب الشاحب أن يتلذذ بطعمها، وعند الفجر يعود العراف إلى رموزه ليتلقى إجابات على جميع الأسئلة، من خلال آثار الثعلب الشاحب.

بادرته بابتسامة عريضة حينما ناولني بعض حبوب الفول السوداني، ثم ودَّعته وأنا أفكر في صاحب الحكاية الذي دائمًا ما يرسل إليّ حكمته على لسان هؤلاء، لكن أين أشيائي القديمة تلك؟ فأنا لا أمتلك سوى كتابي هذا، والمخطوطة، وبقايا رسائل الرقاع، وكيس الزاد الذي يحوي خبز الشعير، والتمر، والبصل، والعسل، والسمك الجاف، وماء "آمون"، وحبَّات الفول السوداني والحجارة الزرقاء التي تسكن جوفي، غادرت المغارة هائمًا في الصحراء الشاسعة حيث اللاشيء، فأشياء من حولي أصبحت لا تشبه الأشياء التي نتشبه بها أو نشبه بها الآخرين، جلست على الرمال، وأفرغت ما في حقيبتي، وكيس الزاد، وأخذت أرتبها، لكن لا شيء يشبه الآخر، فالحقيبة تحوي ورقًا، والكيس يحوي طعامًا، أعدت كل أغراضي إلى مكانها، وأخذت أفكر في أشيائي القديمة تلك؟ لكنني لم أصل إلى أي إجابة، فقررت أن أنسى، أو أنتظر، أخذت أطوف ببصري يمينًا، فيسارًا، ولأعلى حيث السماء، وتمنيت أن يكون طريقي الجديد إلى أعلى حيث يسكن الله، دعوته كثيرًا أن

يمنحني اليقين الذي به تهدأ روحي، لكنني أعلم أن كل شيء خُلق بقَدَر، وها أنا أسبح في فضاء الأرض كما النجوم، وكأنني كُتب عليّ أن أعيش من أجل أن أُضِيء شقوق الأرض.

هطل المطر الغزير حتى خضب الرمال بالبلل، فراحت ترقص فرحًا، وتقفز كما الأسماك في بحرها، وتتناثر في كل مكان كحبوب الذرة عندما تمسها النار، فارتوى الظمأ، واشتعلت الأرض بالحياة، فانتشر الكلأ، ونبتت زهور الإقحوان، واخضرت أشجار النبق، والسدر، والصبار، فاستلقت القوافل على السهل، تضرب أعمدة الخيام، وتدق الأوتاد، وتجدل الحبال، وتبني موائد النار، وتحفر الآبار، حيث لا مكان للظمأ، ولا مكان للجوع، ولا مكان للموت، فشربت الإبل أولاً، ثم الماعز والأغنام، وأخيرًا الخيول، ثم جاء دور النساء والأطفال والرجال، وحينما اكتمل بناء مدينة القماش، وجفّ عرق الرجال من تعب العمل والترحال، وقف رجل شديد السَّمار، عاري الصدر، حاد الملامح على فوهة البئر، شاهرًا سيفه، وأخذ يقرأ عليهم قانون الحياة بصوت جهوريّ انتفضت على وقعه الطيور، وهربت الجرابيع، والجرذان إلى الجحور:

-القتل لمن يردم بئرًا، أو يمنع ماءً، أو يسرق خبزًا من فم جائع، أو

يهتك عرضًا، أو يذبح حلوبًا، أو يقتل نفسًا بغير نفس.

ثم صاح بنبرة أعلى"الموت للخائن، والحياة لنا" فردد خلفه الرجال: "الموت للخائن، والحياة لنا"، "الموت للخائن، والحياة لنا"، "الموت للخائن، والحياة لنا".

ردّ الرجل السيف إلى غمده، بينما عاد قومه يجمعون فتات الحياة داخل جحورهم قبل انقضاء الشتاء ليعيشوا عليها في الصيف، بينما تأهبت دواب الأرض لتنهل من أطلالهم في الصيف لتعيش عليها في الشتاء، فديمومة الرزق يوزعها الله العدل على عباده كما يوزع الرحمات، والحقائق، فالله لا ينسى خلقه، بينما نحن من ننسى أنفسنا، فندور نبحث عنها كما نبحث عن المطر، دخل الرجل إلى خيمته، وخرج خادمه يتلفت يمينًا، ويسارًا حتى وقعت عينه على من يحمل حقيبة سوداء، ويعلق في عنقه كيس الزاد، اقترب منّي وبلهجة هادئة تحدث:

-سيدي القاضي يريدك في خيمته.

سار أمامي بخطى سريعة، فتبعته حتى دلفت إلى قلب الخيمة، التي خلت من مظاهر الحياة، إلا من فراش بدائيّ بسيط، وجرّة صغيرة تحوي بعض الماء، وحامل خشبي جلس خلفه، يرتل خواتيم سورة

"يوسف"، توقف فجأة عندما ألقيت السلام، رد سلامي، وأردف قائلاً:

-مرحبًا بصاحب الكتاب.

-مرحبًا. سيدي القاضي.

-علمت أنك في سباق مع ساعة الرمل.

-الوقت لا ينتظر الحمقى.

-الوقت لا يظلم أبدًا

.-

-اصعد إلى جبل الجنون لتهدأ صحيفتك.

-تلك هي الرسالة؟

- لا تسأل كثيرًا فتظلم نفسك.

-الإجابات تطفيء النيران.

-ناقتي في الخارج في انتظارك.

-ناقتك؟

-تلك هديتي لك. وهدايانا لا ترد.

حاولت أن أتحدث إليه، لكنه عاد يرتل القرآن غير عابئ بوجودي، فخرجت من الخيمة، فلم أجد أي شيء سوى صحراء قاحلة تغزوها جحافل النمل، وناقة صفراء تقف وحيدة هناك على مَرْمى البصر، لقد اختفوا جميعًا، وامتنع المطر، وعاد الصيف، افترشت الرمال، وأخرجت كتابي فرأيت الحقيقة الجديدة وقد كتبت، ولغز المخطوطة قد تغير.

(٥- جبل الجنون)

سكنتَ قلبي وفيه منك أســرار ** فليَهْنِك الدار بلْ فليهنك الجارُ

ما فيه غيرك من سرٍّ عَلِمْتُ بـه ** فانْظُرْ بعينيك هل في الدار ديّار

تلال ليبيا.

أعطى الضابط الإيطالي الكبير الإشارة لجنوده بإعدام الشيخ الذي وقف في ثبات غريب، يبتسم لشعبه، وينظر إلى وجوه الأطفال، ويحدق في التلال التي تحيط بالساحة الكبرى، تدلَّى جسده سريعًا بين السماء والأرض، فانطلقت زغاريد النساء، وهتاف الرجال بحياة "سيدي عمر" الذي ألقى الجنود جثته في صندوق سيارة واختفوا بعيدًا عن أعين الناس، بينما ركض طفل ناحية المشنقة والتقط نظارته الطبية

التي سقطت من يده بعدما صعدت روحه إلى السماء. وهنا سقطت النهاية.

أمرنا أبي بإغلاق التلفاز واللحاق بركْب النائمين، لكنني لم أنمْ ليلتي قط فقد ظلت أحداث الفيلم المهيب تمور في وجداني، وتعيد ذاكرتي سرد صورها لحظة بلحظة، فاقترحت على أخي الصغير أن تكون لعبتنا في اليوم التالي محاكاة هذا الفيلم المثير مع أبناء الجيران، فأصر أن يجسد دور "عمر المختار"، فرفضت بشدة، لكنه سرعان ما لطخ ذقنه بالدقيق، ووضع على رأسه غطاءً أبيض، وارتدى جلبابًا لأبي، وأدى دوره بمهارة فائقة، حتى أتى المشهد الأخير، فوجدته يستسلم تمامًا لقدره المحتوم، حينما أحكمت وثاق الحبل حول عنقه، وعلقته كالذبيحة في مستشرف منزلنا الذي استأجره لنا أبي في "بنغازي" خلال عمله مدرسًا في إحدى مدارسها، حتى انتهى دور أخي العظيم الذي اختاره لنفسه إلى الأبد.

(يرحمهم الله من ماتوا يتأرجحون بين السماء والأرض).

لا أعلم لمَ تذكرت تلك الحادثة المؤلمة الآن؟ لكنها الحقيقة التي لم أستطع الهرب منها، رغم أن أخي هو من أنهى حياته بنفسه حينما

قذف الكرسي من تحت قدميه ليكمل تمثيل المشهد الأخير بكل براعة، لكنه لم يكن يعلم أنه سينهي اللعبة إلى الأبد، ففوق تلال ليبيا يرقد جسد "يوسف" في سلام بين قبور الشهداء، أما أنا فبقيت حيًا كأشرار الحروب لا تفارقني مشاهد القتل، كما لا يفارقني الذنب الكبير الذي عشته مع كل نظرة ترمقني بها أمي، أو كل ارتعاشة في صوت أبي حينما تداهمه ذكرى أخي، فأنا القاتل الذي لم يقتل، وأنا المذنب البريء الذي لم يُذنب، وأنا الطفل الذي تمنوا موته حيًا، لكنهم ماتوا جميعًا وبقيت أنا وحيدًا، أفتش عن الحقائق الصغيرة بعدما فقدت حقيقتي الكبرى، نعم. أنا الطفل الذي أقسم لهم مئات المرات بأنه الذئب الذي لم يقتل أبدًا، وأنه البئر العميقة التي ستلفظ أخيه حيًا يومًا ما، ورغم ذلك لم يصدقوني، بل ظللت آكل وأشرب بينهم، وأشعر أنني لا أستحق الحياة. فقد اختار موسى للسامري العقاب بألا يُحدثه أحد وأن يعتبره قومه غير موجود –ياللّه– ما أشد هذا العقاب. فأنا لست السامري الذي خدع قومه بِخُوار العجل ليعبدوه من دون اللّه. أنا لم أصنع عجلاً ذهبيًا خاويًا أبدًا بل هم من صنعوا داخلي نصف حياة تأبى أن تنصرف عن روحي التي تحلق فوق حدائق من صبر، ومُر، وأثل، وقليل من سدر، فلا يُوجد ما يستحق أن أقف أمام هذا الاختيار، ولا يُوجد ما يبرر أن

أشكوهم إلى الله.

حينما تلقيت نبأ موت أبي بعد أيام قلائل. تركتهم جميعًا، تركتكم جميعًا، وهرعت لأبحث عن الركن الغائر بين كنبات الصالون، فهناك كنت أحشو جسدي الضئيل لأهرب من عصاه، التي يقرع بها أثاث المنزل محدثًا صوتًا جنونيًا، يطير معه قلبي، وعقلي، ويقشعر بدني. بدني كله، ورغم أن عصاه لم تمسني أبدًا إلا أنني كنت أظل مختبئًا لساعات طوال، أطول من عمري القصير كله، أبكي. وأبكي. وأبكي. أبكي كثيرًا حتى يغلبني النعاس، فتأتي اللحظة التي يمد فيها لي يده من دون عصا، لأخرج من جديد، وأرتكب الحماقات الصغيرة، التي كانت تدفعني في كل مرة أن أهرب إلى هناك. إلى الركن الغائر بين الكنبات المخملية الحانية.

أذكر أنني بعدما ارتكبت خطئي الفادح هذا، وأقسمت له بأنني لم أقتل أبدًا، ركضت سريعًا لأقفز من مستشرف المنزل قبل أن يلحقني بعصاه، لكنني تفاجأت بأنه قد ذهب إلى هناك، إلى جثة أخي، انحنى عليها وبكى كثيرًا، بكت أمي كثيرًا، لكنني لم أبك أبدًا، وعدلت عن فكرة الانتحار، ثم هرعت إلى الكنبات لتؤويني من نظرات أمي، وعصا أبي، بينما لم أكن أعلم أنها لن تأتي لتلاحقني أبدًا بعد هذا اليوم.

أهداني القاضي ناقته الصفراء، ومنحني سيفه البتَّار، فالجانّ يخشى قطع الحديد اللامع، كما يخشى مواجهة القتلة، فانطلقت الناقة تعدو في الصحراء، تعبر الوديان الضيقة، وغابات الأقاحي، والصبّار، حتى رقدت عند "جبل الجنون"، وقفت أمامه من بعيد، ورفعت رأسي نحو السماء الصافية التي خلت من النجوم، وأخذت أتلو ما حفظته من القرآن، حتى أنني تخليت عن حواسي كلها، فشعرت بجسدي وقد أضحى كمزقة ورق بيضاء تطيرها الرياح في الاتجاهات الأربعة، لكن برودة الجو هي ما كانت تثقل ما تبقى من عظامي الهيكلية، فنزعت الغطاء الصوفي من فوق ظهر الناقة التي تسمرت في الرمال، وتدثرتُ به لعل الدفء يزورني، أشهرت سيفي، ومشيت في اتجاه الجبل المخروطي الكبير، أحلج الخطوات إلى حيث يستقر اللغز، وتتحول المخطوطة إلى كائن هادىء أليف، قفزت خلايا الرعب تملأ قلبي، فالمغامرة تفوق التحمل، والمجهول يتغوَّل في كل لحظة تمر حتى صار شبحًا كبيرًا يقف أمامي ويضحك ضحكات هستيرية، زفرت زفرة عميقة أستعيد بها قوتي، فتبدلتُ على أثرها إلى رجل شجاع جدًا، لكن الفارس الذي هبط من أعلى ممتطيًا جواده، يُسابق الريح قطع عليّ الطريق، فخطَّ برمحه في الرمال خطًا طويلاً، ثم أمرني بلهجة سريعة:

-لا تتجاوز هذا الخط حتى يمر يومان لا تطلع فيهما شمس وإلا ستحترق قبل أن تخطو خطوتك الأولى.

عدت لأجلس جوار ناقة القاضي، بعد أن أيقنت أنني كنت أسير في اتجاه خاطئ، فاصطدمت يدي بالتميمة المتدلِّية من عنقها، تحسّستها في الظلام، فشعت بالنور، ثم خرج منها طائر ضخم حلق ناحية "غات"، فعلمت أنه آن أوان السفر إلى هناك قبل أن تدركني الشمس فامتطيت ظهر الناقة، وبدلت طريقي إلى المدينة التي فتحت يديها لتحتضنني رغم أنك لا تلمح منها إلا بعضًا من نور المصابيح التي يزين بها الطوارق أسرارهم الصحراوية، فرأيت بُنَى وعمران، وطرقًا، وكأنني لم أغادر مدن الساحل، فالمدينة لازالت متمسكة بردائها الأخضر، وعاداتها وتقاليدها القزحية، فصارت قبلة لسواح البحيرات الكبرى، وجبال أكاكوس، والرمال الحرة، فبِتُّ ليلتي في فندقها الوحيد، لأنعم بأحلام رقيقة ناعمة إن زارني النوم في ليلي الطويل، فهزَّني شوقي لتدخين سيجارة، فطلبت من النادل الوحيد الذي يدير الفندق بأن يحضر لي قدَّاحة، فقال لي مبتسمًا:

-"غات" مدينة لا يصعد منها الدخان سيدي.

نظرت إليه مستغربًا لكنه علل ذلك قائلاً:

-الدخان هو لعنة تقذفها الشياطين.

أعرضتُ عن فكرة التدخين، وخرجت من الفندق لأطمئن على ناقة القاضي التي تركتها عند أطراف الطريق بعد أن اشتقت إلى الفراش الوثير، فقادتني قدماي إلى مخيم به أعشاش وأخصاص ومنافع، نُظمت بشكل رائع وجميل، ليسكنها السواح من كل مكان. براح تتمنى أن يطول بك المقام لتستمتع بحلاوته وعذوبته وسحره، فرأيت الناقة تفرد ذراعيها أمام كوخ قديم، وتأكل من خشاش الأرض، فعلا رغاؤها بمجرد أن رأتني، ودمعت عيناها معاتبة، أو غاضبة، فأخذت بناصيتها، وربت على سنامها، فنهضت وأخذت تلعق وجهي، فخرج من يسكن الكوخ، وكانت امرأة، فحدجتني بنظرة ثاقبة، ثم راحت تزيح أحجار سبحتها السوداء بيمناها، ورفعت يسراها بعصاها التي نزلت فوق رأسي، فشقتها حتى سالت الدماء، لم تصدر عني آهة واحدة لأنني لم أشعر بألم، لكنني شعرت بذنب القتل لإهمالي للناقة التي تركتها وحيدة بعد أن أخذتني حياة المدينة، فصاحت بصوت عجائزي قوي:

-عُد من حيث أتيت فالناقة لا تسير إلا على الرمال.

-لكنها أمانة في عنقي.

-عُد عند الشروق وستجدها في انتظارك.

انصعتُ للأمر، وطويت الطريق سريعًا حتى وصلت إلى الغرفة رقم (١١) في الفندق، وقد صبغت الدماء ملابسي، فانزعج النادل عندما رآني على حالتي تلك، فأحضر الشاش والقطن، وأخذ يبحث عن جُرحي ليضمده، لكن لا أثر لجرح في جسدي كله، اختفى الجرح، وترك الدماء الحمراء القانية لتذكرني بالفاجعة، فاجعة القتل، فارتاب النادل في أمري، وتسرب إليه الشك بعد أن تحولت في نظره من جريح إلى جانٍ، فأقسمت له بأنني لم أقتل أحدًا، لم أقتل أبدًا، توسلت إليه أن يصدقني، لكنه رفع رأسه عاليًا ثم أردف قائلاً:

-كل من سكن تلك الغرفة خرج منها قاتلاً، أو مقتولاً.

-لم أقتل. صدقني.

- المهم أن تصدقك الصحراء سيدي.

جلستُ في منتصف السرير أرتجف، بعدما أيقنت أن الرسائل التي يرسلها الله يتلقاها القلب، أما رسائل الرقاع فلا مكان لها داخلي سوى أنها علامات تأتي وتختفي، فظللت أقسم لأبي، وأمي بأنني بريء من

دم أخي، لكن لا أحد يسمعني، فقط أنا الآن مع أنا، ولا بدّ أن أصدق نفسي ورسائل الله، حتى وإن كذبني العالم كله، هدأت من روعي، وأيقنت أنني إذا أردت أن أرسم قلبًا طاهرًا فيجب ألا أكف عن رفع فرشاتي عن السماء حتى أنتهي.

عاد النادل يحمل لي قميصًا جديدًا، وطلب مني أن أحتفظ بالقميص المدمم في حقيبتي، ثم عرض عليّ الطعام فأخبرته بأنني أحتفظ بطعامي في كيس الزاد، ابتسم ابتسامة خبيثة، فشكرته، فنظر إليّ قائلاً قبل أن ينسحب مغادرًا الغرفة:

-لا تجزع من المآسي فهي كما المطر كلما انهمرت حوَّلتك إنسانًا.

ارتديت القميص الجديد، واحتفظت بقميصي القديم في حقيبتي السوداء، أخرجت كيس الزاد والتقمْت ثلاث تمرات، مع جرعة ماء، وضعْت رأسي على الوسادة، ثم أخذني النوم إلى جوار الملائكة.

في الصباح لم تأت الشمس، بل استيقظت على ليل فاحم وقف يسخر من كل أفعالي خلف النافذة الزجاجية، فتحت كتابي، فاصطدمت بصفحة سوداء، لم يُكتب فيها حرفًا واحدًا، لكن وجهًا غائرًا ظل يطل عليّ كلما أمعنت في النظر للسواد، أغلقت الكتاب سريعًا،

وفتحت المخطوطة فوجدت اللغز قد تغيَّر إلى لغز آخر، لعنتها، ولعنت نفسي، ولعنت اللحظة التي لفظتني فيها أمي إلى الدنيا، لكنني عدت واستغفرت الله، دلفت إلى الحمام واغتسلت، بل أزحت عن جسدي كل جنون الأرض لأستقبل حفنات الجنون الجديدة بكامل أناقتي، توضأت، وارتديت ملابسي، ثم سجدت لله فرأيت نفسي أخرج من حلقة النار، ويستقبلني أناس لا أعرفهم بالدفوف والمزامير، عانقني بعضهم، أما البعض الآخر فابتعدوا عني وانشغلوا في نسج خيوطهم الحمراء في طرق أخرى، فأيقنت أن قلبي قد تحرَّر، وآن لي أن أرى نفسي بصورة أرضاها.

أخبرني النادل مستغربًا بأن هناك من أتى وترك لي رسالة، ثم رحل، فطلبت منه أن يبرزها، فأحنى رأسه متأسفًا لفقدها، أو اختفائها، فكظمت غيظي، واحتفظت بصمتي، وحيرتي، لكنه عاد يتحدث عن براءتي قائلاً:

- الأبرياء تصلهم الرسائل متأخرًا سيدي.

- لكن رسالتي قد وصلت بالفعل.

- هل قرأتها؟

- رسائل الله لا تُقرأ بل تُحس.

هزّ كتفيه، وعاد يعتذر، ثم رحل عني بوجه كسته الحمرة، ويد مرتعشة، وعرق غزير غزا جسده كله، فبدا وكأن أصابه المس.

في الصباح التالي كانت الشمس قد تسللت إلى غرفتي، وقفت فوق رأسي تمامًا تدغدغ جبهتي، فاستيقظت على الحقيقة التي يراها الجميع، لكنهم اعتادوها فصارت ضوءًا عاديًا جدًا يُشرق كل يوم وهم يفترشون أسِرَّتهم بأجسادهم، لكن شاء صاحب الحكاية أن يحرمني منها ليومين كي أنتبه بأن هناك حقائق كبيرة جدًا تنمو حولنا كل يوم لكننا غفلناها، التفت إلى النافذة الزجاجة التي شقت الجدار فبدا كطاقة من النور، فرأيت "ياسين" يجلس بعيدًا يرتب مزرعته في هدوء، أما "نهاد" فكانت نائمة في سريرها كالملاك، مسحت على شعرها، ثم نهضت من مكاني، مشيت وكأنني أدوس السحاب، فعاد إليّ الشوق، الشوق الإلهي المفعم بالنور الذي يشع من قناديل الأولياء، فليس للعاشق سوى فؤاد واحد يجلس به مع الله حينما تنفض من حوله المجالس، اقتربت من النافذة، أردت أن أمد يدي للمتَّشحين بالبياض، لكنني لم أستطعْ، فرأيت وجهًا يشبهني تمامًا أشعث الرأس، طويل اللحية، أسمر الوجه، وكأنه وجه لإنسان أول، إنه أنا. فسألت نفسي كم

مكثت؟ كم مشيت؟ كم نمت؟ فالتفَّت الدفوف تُحيطني من كل جانب، جثوت على ركبتيّ في منتصف الغرفة وتركت روحي تنساب، تتسرسب، وتنسحب عن صندوق الشر الذي أسكنه، حتى نفذ الصوت، وتخطى العازل الوقح، الذي يفرق بيني وبين المنتهى، فصار جسدي يرقص على وقْع موسيقى السماء. ارتفعتُ. صعدتُ. قاومتُ ما يجذبني نحو الأرض. سكنت بين السحاب، ولم أرض السقوط إلا كقطرة تهمي على نبتة عطشى، عانقتني، سعدت بي، ثم شكرتني، فكيف لي أن أهرب من نار الشوق والبخور لا يفوح عطرًا إلا بالنار؟.

وحدي أنا وحدي قد مللت القرب والبعد

ضاحك بنهاري وبليل من الهجران

يبكي بعضي على بعضي

تهت بين الزحام والجسد ينعي من سبق باللحد

يشكو إلى الروح والروح تشكو القلب للجسد

والصوت ناداني أيا عبدي

أقبل ولا تُدبر فإني قد مددت إليك بالعفو يدي

استغفر الله من عصياني ومن ذنبي

فامنن علي رب العلا وأجرني وخذ بيدي

وحدي أنا وحدي

لـ(إبراهيم يوسف)

نزلتُ إلى المدينة مرة أخرى لأبحث عن الكوخ حيث ترقد ناقة القاضي التي سأكمل بها رحلتي إلى "جبل الجنون"، لكن سائق الحافلة السياحية الذي اعترض طريقي لألتحق بالفوج السياحي قد ألْهاني عن هدفي، فجلست في المقعد الوحيد الشَّاغر الذي كان في انتظاري ولا يحمل رقمًا، كما مقاعدي تلك التي تبوَّأتها من قبل، فجاب بنا البحيرات الكبرى (قبر عون، مندرة، أم الما، مافو) ثم توقف أمام الجبل من بعيد وأخذ مرافقنا السياحي يسرد علينا قصة "كهف الجنون" حيث أكد لنا بأن سائحين غربيين دخلا الكهف تحديًا، فغاب أحدهما واختفى، وخرج الآخر مستغيثًا صارخًا فارًّا من هوْل ما رأى، ولم يذكر ما رآه، فكثرت أسئلة، واستفسارات السائحين عن الكهف والجبل، أما أنا فظللت صامتًا عن كل شيء، فقط كنت أفكر في أمور أخرى أعمق من مجرد نزهة عابرة، نظرت الفتاة التي كانت تجلس في

المقعد الموازي إلى السيف الذي أحمله، فحاولت إخفائه، لكنها ظلت تتبع تحركاتي بقلق بالغ، ابتسمت لها لأُزيح عن خلدها فكرة الشر، فسألتني بصوت هامس:

-أين الكتاب؟

أيقنتُ للتو أنها من أصحاب الحكاية، تأملت ملامحها التي تبدلت قليلاً، فكانت هي فتاة الرغيف التي قابلتها في القطار، نظرت لمعصمها علَّني أتعثر بالخيط الأحمر، لكن وقعت عيني على أسورة ذهبية نُقِش عليها مفتاح الحياة، فعادت تسأل باللهجة ذاتها:

-أما زلت جائعًا؟

-معي كيس الزاد.

- ستتمنى مني كسرة خبز يومًا ما.

أخبرنا قائد الحافلة عبر مكبر الصوت بأن الرحلة قد انتهت، غادرتُ الحافلة، أما الفتاة فتسمَّرت في مقعدها، رحلوا جميعًا، وانطلقت الحافلة إلى حيث لا أعلم، ولا يهمني أن أعلم، لكن الفتاة ظلت ترسل إليّ نظراتها الحادة عبر النافذة الزجاجية، رفعت حقيبتي، وكيسي وسيفي، ومشيت حائرًا بلا هدف، بل كنت أفكر في الفتاة التي برقت

في ذهني فجأة ثم اختفت، عن أي كسرة خبزٍ تتحدث؟ لا أعلم. حقًا لا أعلم! رفعت رأسي إلى التلال التي اشرأبت من قلب الصحراء فرأيت أخي "يوسف" يُلوح لي من بعيد، وينادي بأعلى صوته:

- اللعبة لم تنته بعد يا "مازن"؟

- لا أجيد اللعب يا أخي.

-ستأتيني يومًا لنكمل اللعبة.

لكنني سئمت اللعب، سئمت الحياة ذاتها، وآن لي أن أستريح، آن لي أن أبكي، آن لي أن أموت بعيدًا عن الجنون الذي خيَّم على حياتي، فبتُّ أرى كأني لا أرى، وأشعر بكل شيء كأني لا أشعر بأي شيء، غاب "يوسف" وسط التلال وتركني على قارعة الطريق أكمل رحلتي الطويلة، فآتاني رغاء الناقة من خلف الصخرة التي برزت من باطن الأرض، فركضت نحوها، عانقتها بقوة كأني أعانق أمي التي خرجت من منزلنا يومًا ما ولم تعد، بحثت عنها كثيرًا، ناديتها كثيرًا ولم تعد، امتطيت الناقة التي شقت طريقها في الظلام إلى جبل الجنون، لم يكن الضوء يتسلل من أي مكان إلا من بريق السيف الذي ظل يشع كقضيب الكهرمان، توقفت الناقة أمام الجبل الذي بَدَا كقطعة من الفحم الحجري، أخرجت كتابي،

وهيأت نفسي لاستقبال الواقع الجديد، أو الخيال المفعم بالحكايات الجديدة، ذكرت الله كثيرًا، وكبَّلت قلبي الذي كان يخفق وسط رمال الصحراء، وتذكرت كل شخوص الحكاية، مروا أمامي واحدًا تلو الآخر، تركوا لي ابتسامة ثم غابوا جميعًا كضلالات هلامية سوداء، ظلت تتبعني حتى صعدت إلى القمة، لا شيء فوق الجبل سوى الحجارة المتناثرة هنا وهناك، لا أسمع صوتًا، لا أتلقَّى نفسًا، ولا تأتيني لغة سوى الصمت الغارق في الظلام، تحسست الطريق المنحوت كشريان، وانسابت خطواتي نحو العدم، نحو فراغ الكون المُوحش، لكنني كنت أشعر بأنني ثابت في مكاني لا أتحرك، فالأرض فقط تلهو من تحت قدمي، أين أنا بحق الله؟

ظللتُ أقاوم النُّتوءات التي تُحاصرني كمسامير النعش حتى انتهى بي الطريق إلى الكهف، توقفت قليلاً قبل أن يصعد الضوء الأحمر الذي يشعّ من العين البازغة من الصخور، تراجعت للخلف، ارتجف جسدي كله، واصطكَّت أسناني، بل وانتصب شعر جسدي كله، حينما آتاني صوت خفي:

- أنت الآن في حضرة "إن-ها-رع".

-.

- أصمد أيها الإنسي الشقي.

-.

- "رازيل" سيخرج عليك الآن من كل مكان.

-.

- لا ترتجف أيها المسكين الضعيف.

قاومتُ رائحة الخوف التي تهافتت مسام جسدي على إفرازها، فتحت الحقيبة سريعًا وأخرجت المخطوطة، أمسكتها باليمنى، وأشهرت سيف القاضي باليسرى، فشعرت بأنفاس باردة تحاصرني من كل جانب، ارتسم دخان على جدران الكهف كفَتَى مُقنَّع يحمل في يده حرباء معقوفة، انتفخت شرايين جسدي، شيء ما يدور في كياني كله، يلفني في شرنقة من حرير، ينْخر كل شيء خلقه اللّه داخلي، إنه الزئبق الأبيض التي انتشرت رائحته النفاذة تملأ المكان:

-أنا "رازيل" لن أسجد لك أبدًا يا كتلة الطين.

نشرتُ المخطوطة في وجه الظل الذي تكاثر من حولي، فأخرج جيشًا

كبيرًا من حاملي الحراب الذين اصطفوا كسرية عسكرية تستعد لقتل البشر، تناثرت الرموز، تبعثرت، تجمعت، انتشرت، تتابعت كعداد الحياة:

-أنا "رازيل" الشيطان الهابط... اسجد لي أيها الإنسي المسكين، وسأمنحك الخلود.

تسمرتُ في مكاني، لم أهتز، ارتعش سيف القاضي، فتحولت إلى تمثال فضي يبرق في الظلام، انتشر نوره يصارع ضوء النار، يختلط بضوء النار، زاد البريق، ارتفعت الصخور من حولي، تدور حول رأسي في حلقة كبيرة، كأنها كواكب تطوف حول الشمس، زاد البريق، توهج الضوء الأحمر، تكاثر الخيال أكثر فأكثر:

-بحق قلوب البشر اسجد لعين الشر.

رفعتُ رأسي عاليًا، فزاد البريق، تشبثت في المخطوطة التي أصبحت كجمرة نار بين يدي، فاتسعت حدقة، سالت منها الدماء:

-اسجد أيها الإنسي لتحكم العالم.

اقتربتُ من "إن-ها-رع"، اقتربت. اقتربت حتى أصبحت في منتصف بؤبؤ الإبصار، حدقت فيها بقوة، غرست فيها السيف، فتدفق البريق

الأبيض يسكنها، انحسر الدخان، عادت الصخور تستقر على الأرض، صارت المخطوطة كقطعة ثلج، تجمدت تمامًا، توقف جنون اللغز، تغيرت نبرة الصوت:

- على شاطيء المحيط ستجد المحارب الأعمى يجلس تحت الشجرة في انتظارك.

انهزم الضوء الأحمر، غاصت العين في الرمال ابتلعت البريق، اختفى الظل في الظلام، فاحت من جسدي رائحة عطري المفضل، جثوت على ركبتي، رفعت رأسي عاليًا أتأمل البدر الذي سقط من السماء ليكشف لي عن كل الوجوه الجميلة التي عرفتها، فرأيت وجه أمي في الخلف يتدثَّر بالضوء الخافت، يرتعش أحيانًا، يكتمل أحيانًا، يتلاشى، ارتفعت التكبيرات من مكان ما، أُغشي عليّ:

-نحن لا ننهزم ولا نموت أيها المسكين.

.-

-سنظل نلاحقك حتى الحلم.

تلاشى الصوت. تكسر كقنِّينة خمر أبيتها، هدأ الجبل، اندملت الشقوق، وانقشع الضباب، فتحَت عيناي على قدمي القاضي الذي

جلس جوار ناقته يشعل ركوة النار، ويحتسي الشاي، ويغزل برمحه خطوطًا طولية وعرضية متقاطعة على الرمال، لم يبتهج بعودتي إلى ظل الجبل سالمًا، بل لم يبد أي انطباع ينم عما في داخله تجاهي، وكأن شيئًا لم يحدث، تحسست جسدي العاري تمامًا، وتعجبت كيف أتيت إلى هنا كما ولدتني أمي؟ لملمت أشيائي المتناثرة، وحاولت أن أداري سوْءتي بيدي، فقذف لي القاضي بجلباب أزرق، وسروال، ولثام أسود، وأمرني أن أقرأ الفصل الثاني من الكتاب قبل أن أهم بارتدائهم، فمن أرض "نبو" يبدأ كل شيء، ناولني كوبًا من الشاي، ومع أول رشفة غمر جسدي كله دفء غريب، كأن أمي عادت من جديد لترضعني في فراشي، ضرب القاضي بيده على الأرض وطلب مني أن أجلس جواره حيثما استقرت ضرباته، ثم أخذ يحدثني عن "القبالا"، التي لم أخضع لسطوتها، واستطعت بما اصطفاه لي أن أنجو بعقلي من سيطرتهم الوجودية التي تفرضها على العالم كله، فلم أقبل أبدًا أن أنصاع، أو أسجد للنار التي تسكن عين الشر، فهبطت من جبل الجنون بعقل مكتمل، آن له أن يصل إلى الحقيقة الكبرى التي هي أكبر بكثير من فك لغز صغير حملته مخطوطتي الناقصة التي كان يلهو بها طفل على أنقاض بيت منهار، وهنا شد القاضي على يدي قائلاً:

-أنت الآن مؤهل للهو وراء العالم الدنيوي يا فتى!!.

فالحمقى فقط هم من يبحثون داخل الحدود التقليدية بحواسهم الخمس، لكنهم جهلوا أن هنالك عالمُ آخر خفي، لا يشعرون بوجوده، لأن له قوانين خاصة تعلل وجود أبداننا على تلك الأرض، ووجود أرواحنا في السماء، لكن تلك القوانين لا يدركها إلا صاحب الحدس الأكبر.

-نعم هناك عالم آخر يفوق الخيال يا فتى.

لذلك تسعى "القبالا" أن تُخضع كل باحث عن حقيقة ما لتضمه إلى جيوشها، لتسطيع أن تمتلك كل الحقائق التي أوجدها الله، لكن القليلين ينجون من حربة "رازيل"، ونار "إن-ها-رع"، التي تخلق ضوءًا ساحرًا، خلابًا، يحرمنا من نور الله، فلا نبصر أبدًا إلا ما أرادوا لنا أن نراه.

نظرت إليه مصغيًا لما يقوله، فتساءل قائلاً:

- قل لي يا فتى ماذا تشعر حينما تفكّر في كلمة "ضوء"؟

أوغلت في صمتي لأستمع إلى الإجابة:

- الضوء إنّما هو الخروج من الظلام، الضوء هو الفرح والبهجة، الضوء هو الشعور بالمحبّة. ولا عجب إنّنا نفكّر هكذا، لأنّ الضوء حسب حكمة القبّالة هو المصدر لكلّ الطيّب والخير في الخليقة، هم يصنعون

لأنفسهم ضوءًا خاصًا، يُلهم، يسحر، يُخضع، يجذب إليه كل الكائنات الضعيفة، لكنه في النهاية يحول الكوكب إلى أرض محروقة.

استسلمت إلى الصمت تمامًا بعدما راق لي حديثه، فعاد يتحدث:

- الضوء هو القوّة الفعّالة ما قبل الخليقة، بل هو الّذي خلقها، وقد قال الحاخام القبّالى "إسحاق لوريه أشكنازي" في كتابه "شجرة الحياة": اعلم أنّه قبل أن يُلهم المُلهَمون وقبل أن تُخلق المخلوقات، كان هناك النور. النور اللاّنهائي الأزلي الّذي يملأ الوجود".

تنهد القاضي متململاً من صمتي –ربما–، وأردف قائلاً:

- الضوء هو القوّة الفعّالة الّتي تفعل فعلها حسب قاعدة بسيطة وهي: الإعطاء، والإعطاء فقط. الضوء خلقنا لكي يمنحنا الخير المُطلق والأبدي. والقبّاليّون الّذين حصلوا على الخير المُطلق والأبدي كما يظنون يقولون: إنّ الضوء حاضر لكي يمنحنا في كلّ لحظات الوفرة والغزارة والمتعة اللّانهائيّة ولكنّنا لا نعرف كيف نتسلّم هذه الحسنات؟. ولكي نعرف كيف نتسلّمها، لا بدَّ وأن ننجو بأنفسنا من خطّة القبّالة.

مدّ يده نحوي، وقبض على معصمي قائلاً:

- انهض يا فتى. امتط هديتي وامض في طريقك ولا تلتفت إلى الحقائق

الصغرى.

- لقد اختلطت الحقائق سيدي وبتّ لا أعلم عمّا أبحث.

- من الآن وصاعدًا ستبحث عنك الحقيقة التي تبتغيها.

- تشير المخطوطة إلى محارب أعمى ينتظرني عند المحيط.

- ربما تجده هناك أسفل الشجرة قبل أن يداهمك الوقت.

- ماذا يحمل لي هذا الرجل سيدي؟

- لا تسأل كثيرًا فتجني ثمارًا عجافًا قبل أوان الحصاد.

أحتاج الآن أن أتأمل العالم من خلف ظهورهم جميعًا، فعليهم أن يصمتوا، ولو للحظات وعلى العصافير، والأمواج أيضًا أن تصمت دون أن أفتعل الصمم، امتطيت الناقة، ووضعت اللِّثام على وجهي، ودسست أشيائي في الخرج الصوفي، ورفعت رأسي لأعلى شاعرًا بعظمة ما، شعرت أنني أخرق الأرض، وأبلغ الجبال طولاً، نظر إليّ القاضي مبتسمًا:

-يا فتى قال الإسكندر الأكبر "افتحوا يدي بعد مماتي وستجدونها خاوية"

صفع الناقة على فخذها الأيمن، فانطلقت تمخر في رمال الصحراء، إلى حيث لا أعلم، بعد أن انقطعت الرسائل التي ترسم لي خريطة الطريق، فتحت الكتاب، فرأيت الحقيقة الجديدة قد أضاءت كما الحلم، فالأحلام هي هبة الله التي يمنحها لعباده كلما ضاق بهم الواقع وأحكم عليهم وِثَاقَه فإذا تحققت فهي مِنَّة، وإن ظلت معلقة؛ فهي رحمة، وإن استحالت فهي؛ حقيقة أخيرة نحصل عليها يوم نصعد إلى السماء.

لازلت أرى وجهه من بعيد كخيال يقف عند النهر، يرقبني من بين الأشجار، ويمسك في يده قرطاسًا، وحبرًا يكتب به ما يشاء، أما أنا فما زلت أحمل الكتاب الذي التصق بي كما القدر، لأكون نقطة الضوء الجديدة التي يشد إليها العارفون الرحال، فلم يكن حلمًا، أو وهمًا، بل هو رجل اختار لنفسه الرحيل بعيدًا بعدما أشفق على حال قاتله، وظل يرقب من يحمل كتابه من بعيد علّه يصل إلى ما لا يعلمه .

(٦- إلى حيث لا أعلم)

مسافرٌ إلى اللّه وزادي الهَوَى

وبعضُ أشياءٍ مِن هُوَ عَلَى أَنَا

فليسَ في عُمْري سِوى سجْدة

وتسبيحة عشق. ودمعة خشوع.

على الأرض المتحركة أمواج الرمال لا تهدأ، تعلو، وتعلو، تقذفني بعيدًا إلى حيث المنتهى، تأخذني إلى آخر نقطة في السماء، وتغوص بي إلى نقطة التقاء القلوب في باطن الأرض، حيث الثرى الأول، فأسمع، وأرى، وألْتَحِم بهياكل الكائنات، أطرق الأبواب المغلقة، وأصارع أحراس العالم السفلي، أخرج منتصرًا فأصطدم بالكون المهزوم، أعيش

للحظات بين الأبيض والأسود، ثم أعود أخط خرائطي بألوان لا يعرفها البشر، أمزق الطرق القديمة، وأمحو آثار أقدام سبقتني إلى هنا، فلا يبقى إلا أثري أنا، ترتفع الهالة الكبيرة، تنتفخ كفقاعة، تحتويني لكنها لا تنفجر، تطير بي إلى قمم الجبال، لأشاهد كل التماثيل المقدسة التي نصبها الإنسان، تهبط برفق، تهبط، تهبط، ثم تنفجر، فأسبح إلى حيثما كنت، أعود إنسانًا عاديًا، يحب، يكره، يبكي، يضحك، يطعنه المرض، ويُشفيه الدواء، ينزف الدماء الحمراء، ويموت إذا توقف قلبه.

انتهت العاصفة.

لكن لفح الصحراء لم ينته، اشتد الظمأ، وجفت العروق، نضبت الحياة، وفرغ كيس الزاد، طوحه الهواء بعيدًا، فرأيت كل الفراغ ماءً، رأيته حقولاً خضراء، رأيته فتاة جميلة تحمل فوق رأسها سلة من فواكة الجنة، أهرول يمينًا، يسارًا، خارت قواي، لا شيء أتكئ عليه سوى الرمال، والرمال، الرياح، والرياح، ثم الموت:

- ستتمنى مني كسرة خبز يومًا ما.

-الآن أنا أتمنى كل شيء سيدتي.

-اذبح ناقتك واشرب من قربتها الماء لتعيش.

-بل أموت أنا وتعيش الأمانة.

-ستعيش إذًا.

نبشت الناقة الأرض بقدميها، فثارت دوامة الغبار، انفجر الماء، ليست معجزة كما تظنون، فالمعجزات لا تأتي في زمن صار فيه كل شيء ممكنًا، بل هي الحياة التي تأتي على حين غرة، فنعيد بها سيرتنا الأولى عندما نقف على حافة الموت ننتظر الفرج، شربت حتى ارتويت، شربت الناقة، وشرب الطير، والثعالب البيضاء التي تهافتت على المكان كقطط أليفة، نبتت أشجار التين، فأكلت حتى شبعت، اختفى الماء سريعًا، وصارت الأشجار حطبًا تشتعل فيه النيران، فامتطيت الناقة، وأكملت رحلتي الطويلة، غير عابئ بما حدث، فربما هو السراب، وربما هو الحلم، وربما هي الحكايات الأسطورية التي قرأتها في كتب طويتها منذ زمن طويل، لكنها حقيقة تحدث الآن لأقاوم الفناء، وأصل إلى النهاية حيث تتوقف الأرض عند المحيط.

أشعر الآن أنني أعيش كما الإغريقي "ديوجين" الذي أمضى جل حياته داخل برميل واتخذه مسكنًا له، وكان يوقد مصباحًا في وضح النهار، ويمشي في شوارع "أثينا" مدعيًا أنه يبحث عن الإنسان الفاضل الحكيم، الإنسان الذي لا يوجد بين سكان المدائن، فاختار أن يعيش

حرًا، رغم أنه سُجن وعذب، وبِيع مرة للقراصنة في سوق العبيد، لكنه تهكم من بائعيه وقال لهم:

-خذوني أيها العبيد فأنتم في حاجة لسيد.

لم يكن يمتلك أي شيء، وكان معتادًا على ضبط النفس والتقشف الصارم مُعرضًا نفسه إلى البرد والحر، فارتدى عباءة خشنة وحمل عصا ومحفظة صغيرة، وكان يعود ليلاً ليستلقي في البرميل! ليثبت للناس أن الفضيلة ليست مجرد نظريات، وكلمات، وثرثرة يطلقها الفلاسفة، فذهب يومًا إلى الفيلسوف اليوناني "انتيثينس" أحد أتباع "سقراط" وطلب منه أن يقبله كتلميذ فرفض الأستاذ، وعندما ألح عليه بطلبه ضربه الأستاذ بعصاه فقال "ديوجين":

- اضربني كما تشاء ولكنك لن تجد أبدًا عصا أصلب من تصميمي على البقاء.

لم يهتم بالأفلاك والنجوم كما اهتم قومه لأنها حقائق زائلة، فكان إذا سمع رجلاً يتكلم عنها سأله:

-متى كان نزولك من السماء؟

ثم يلتفت ساخرًا إلى من حوله، قائلاً:

-إن هـؤلاء يتكلمون عن الكواكب، وهـم لا يعرفون حقيقة ما تحت أقدامهم.

فظل يتمرد على قوم يقدمون القرابين للآلهة، ويتطيرون بها ، ونسوا ما يعانونه من آلام اليقظة، لكنه ظل يبحث عن حقيقة ابتغاها، دون أن يحمل سيفًا ولا قلمًا، ودون أن يمتطي ناقة يَهِيم بها في الصحراء، بل كان يسير في الأسواق والشوارع، ويدخل المعابد والمدائن يحمل قنديلاً في وضح النهار يبحث به عن الحقيقة، لكنهم لم يستمعوا إليه، فأفنى عمره كله من أجلهم، وفي النهاية سخروا من موته، فقتلتهم حقيقته، بينما قدر الله لموسى النبي مآربه الأخرى التي لم يذكرها، فألقى بعصاه فصارت ثعبانًا، وضرب بها البحر فشطرته، وصك بها الحجار فتفجرت عيونًا من الماء، لكنه مات قبل أن يدرك مبتغاه، فرأى الأرض من بعيد دون أن يطأها، فأخفى الله موته كي لا يقدسه قومه، وينصرفون به عن حياتهم.

نزلت الناقة بين بيوت فاقع لونها، حمراء، صفراء، زرقاء، سوداء، بيضاء، بلا رسوم، أو صور، لكنها مليئة بالتعاريج، والنتوءات، والحفر، بيوت عشوائية متداخلة، تنحرف جدرانها بشكل ساخر فانتازي مضحك، وأحيانًا مخجل ومضحك أيضًا، حينما تشبه مفاتن النساء،

وأعضاء الرجال الذكورية، أما البعض الآخر فلم يكن لشبهه أي معنً، سوى أنه كتلة من الرمال والحجر، لم يكن للبيوت أبواب، فقط هي مفتوحة على مصراعيها تنتظر من يدخل ويخرج دون استئذان، كما الهواء، أو كهوام السماء، والأرض، لم يلتفت سكانها للزائر الجديد، لم ينظر أحدهم إليّ أو يسأل عن سبب وجودي، سرت بينهم أتأمل وجوههم التي تتَّشح بملامح الموت، وجوه ملساء لامعة، فلا عين ترمش، ولا شفة تنبس، ولا أنف تشم، ولا دماء تحجل في عروقهم، تعثر أحدهم بجسدي، فسقطت على الأرض، سقط جواري، تشمم رائحتي، وتحسس وجهي، وضع أصابعه فوق أنفي، ودسَّ أصبعيه داخل تجويف عينيّ، مشى بأصابعه برفق على جسد الناقة، ثم صاح بأعلى صوته:

-دنيء بيننا. كائن دنيييييييء.

التفوا من حولي وكأنهم مقبلون على حفلة شواء، كانت أنفاسهم تترجرج، وأناملهم ترتعش، وأسنانهم تصطك، اقتربوا مني بحذر ليتفرجوا على المسخ الإنساني الذي جرفته الصحراء إليهم، صاح رجل منهم:

-لا تلمسوه. اللعنة. اللعنة.

وبينما كانوا يتسابقون للابتعاد عني، توقفوا فجأة وكأن على رؤوسهم الطير، ثم شقوا طريقًا لمرور كبيرهم، دسَّ جسدي بعصاه، انحنى عليّ، تحسس ملامح وجهي، وضع أصبعيه في تجويف العين، ثم بسط راحته على موضع القلب:

-إنه رجل مسكين يحتاج إلى العطف.

فهاجوا، وماجوا، وهللوا، وكبروا، ثم انتشروا داخل بيوتهم، وخرجوا سريعًا، يضعون أمامي الخبز، والتين، والتمر، وأوعية العصيدة، وجرار العسل، واللبن، ربت كبيرهم على كتفي وأمرني أن أُشبع جوع يومي، ولا أدخر من الطعام ما يكفيني لليوم التالي، سادت لحظات صمت خلال تناولي الطعام، تبعتها همهمات من هنا، وهناك، استدعى كبيرهم مجلس الحكماء، همس في أذنهم واحدًا تلو الآخر، ثم تبرع أحدهم لسؤالي:

-لماذا أتيت إلى هنا؟

- أتيت باحثًا عن الحقيقة.

- الحقيقة لا يصل إليها مبصر أبدًا.

-الخرائط ستدلني على الطريق.

-نحن نؤمن بالأشياء دون أن نراها.

-ونحن نؤمن بالله دون أن نراه.

ثار ضجيج المتفرجين بهمهمات أمازيغية لا أفهمها، فاحتدت لهجة الرجل:

-نحن نرى الله. نرى العالم كله بقلوبنا.

- بل أنتم لا ترون شيئًا فالسماء زرقاء، الرمال صفراء، الشمس برتقالية، القمر فضي، البحر؟

-أنت تصف وهمًا كبيرًا يا هذا.

- أستطيع أن أصف لكم العالم كله.

-العين ترى ولا تؤمن، فترى النور ولا تضيء، وترى الظلام ولا ترى ما يستره، لكن القلب يرى كل شيء ولا نراه، ولكنه وحده من يؤمن بما يراه ولا نراه

دق كبيرهم الأرض بعصاه فساد الصمت، انسحبوا جميعهم إلى منازلهم، وبقيت أنا معه وجهًا لوجه، أمرني بأن أقترب منه، فانصعت لأمره:

-هل تراني جيدًا؟

-نعم سيدي.

-أتسطيع أن تصفني الآن.

-أنت رجل ممشوق القوام، أسمر الوجه، ضرب البياض...

- مهلاً. مهلاً. أنت لا ترى شيئًا.

-وكيف أرى إذًا؟

-افتح كتابك وناولني إياه.

دُهشت للحظات من طلبه، ثم أحضرت الكتاب، فالتقطه من بين يدي، وأشار إلى الصفحات الخاوية وسألني:

- هل ترى شيئًا هنا؟

- الصفحات فارغة.

- أنا أرى كل شيء، أرى كل ما تبحث عنه.

- أتوسل إليك أخبرني بالحقيقة.

-ليس كل ما تختاره بعينيك فقط يمكن أن تراه، فهناك ما يفرض نفسه

دائمًا على الصورة رغمًا عنك.

أمسك بيدي، ثم أخذني إلى طريق طويل، تدلت منه مئات الأجراس فوق رؤوسنا بصورة عشوائية، فأحيانًا يقصر الخيط على اليمين، وأحيانًا يمتد على اليسار، وأحيانًا أخرى يواجهك في المنتصف، فكنت أتخبط بها فتقرع، وتقرع، وتقرع، فيعلو صوتها أكثر فأكثر، أما الرجل الأعمى فكان يعبُر الطريق في سلام، واثقًا من نفسه، فلا يصطدم بأيّ منها، أفلتُّ يدي حينما انتهى بنا الطريق عند حافَّة الجبل، نظرت إلى أسفل الوادي السّحيق، فابتسم قائلاً:

- الآن! اغمض عينيك. ولا تُفكر. توقف عن التفكير تمامًا، واجلس حيثما أنت.

وضع كفيه على رأسي واستطرد حديثه:

- خذ نفسًا عميقًا. ستصحبك الحقيقة إلى رحلة فريدة، رحلة ستغير حياتك المليئة بالمآسي، رحلة ستُغنيك، وتجعلك على علم بكل شيء، وتشعر بالسلام، أنت الآن برفقة الحقيقة الكونية التي لا تكذب أبدًا. كن معها تمامًا، اقطع التفكير في العالم الصغير التافه. خذ نفسًا عميقًا. إنها لك فقط. في هذا الكون كله نحن مجرد مظهر صغير من

مظاهره، كل واحد منا في بحث عن الصحة الجيدة، السلام، المعرفة، الوفرة، التناغم، وقبل كل شيء السعادة، والحياة الآمنة في كل الأوقات والمواقف، كل شخص يحاول جاهدًا ليصل إلى تلك الحالة، ولكن هل يمكن تحقيق ذلك حقًا؟ نعم، يمكن تحقيق ذلك بفهم الطاقة الكونية، ومعرفة الذات، أنت الآن تسمو إلى كل مكان في الكون، بين المجرات والكواكب، بين البشر والذرات، إنه الفضاء في كل شيء، الذي يعدل بين المخلوقات، إنها القوة، قوة الحياة، التي تجعلك تسير فترى كل العوائق، دون أن ترى، وتسبح في اللاشيء دون أن تسقط، أو تشعر بألم. أنت أقوى من كل الآلام، تخل عن جسدك الدنيء، تحرر من الأثقال، وتقدم. انهض. اعبر إلى الجانب الآخر، سيحملك الهواء لأنك أسمى منه، اقبض على بؤرة الضوء أمامك، اهتدي بها، فلن تخدعك أبدًا لأنها الحقيقة.

نهضت من مكاني وتقدمت إلى الأمام، حملتني وسادة حانية، تركتني أطير، قفزت أخرى تحملني، تركتني، حملتني أخرى، وأخرى، وأخرى، عبرت إلى الجانب الآخر، العالم كله يحتويني، يُعانقني، يُرحب بروحي كأنما أنا كوكب دريّ رائع، جميل، عدت سريعًا كدفقة برْق إلى حيثما كنت على الجانب الآخر، عبرت الطريق الطويل دون أن أصطدم

بالأجراس المتدلية، فتحت عيناي، فلم أر من منازلهم سوى أطلال تأكل من بقاياها الطير، اختفوا جميعًا، وبقيت أنا أرى كل الأشياء من حولي كأنما لم أر من قبل. أجهشت بالبكاء بعدما رأيت الله. ولأنه خالق الحب وخالقني، فلم أستح أن أقصده طالبًا حبًا. أمنحه لمن أُحب لأن ما سكن فؤادي لا يكفي أن أرده إياه.

أمسكت بلجام الناقة، وسحبتها خلفي إلى الصحراء الشاسعة، التفتُّ إلى الخلف لأودع الضباب المتكاثف الذي وقف كجدار يعزلني عن الماضي، فما فات يسكن في الخلف، لكنه لم ينته بعد، بل يلتصق بنا كثقل نجره بأقدامنا، ليذكرنا بخطانا الماضية، أما خُطى الحاضر فهي قرار يدفعك إلى الأمام، أو يعود بك إلى الخلف، أو يجعلك راسخًا في مكانك كما أنت، لكن قراري الآن صار واضحًا وضوح القلب، والعودة إلى الخلف أضحت أمرًا مستحيلاً، أما إذا توقفت فستغمرني الرمال وأختفي تمامًا كأني لم أكن، ولن ينبت مني سوى تلة صغيرة تشي بأن شيئًا ما كان هنا، ملّ الطريق الطويل ثم توقف كوتد أحمق ظن أنه سيهزم الرياح، فالعابرون بين تلال الثلج إذا سكنوا تجمدوا سريعًا وصاروا كتلاً بيضاء مضحكة تحطمها الصواعق إذا أرادت، لذلك كان يجب أن أركض للأمام، أركض، وأركض لأسابق الموت، وأقاوم الزمن

الذي يتسرب من سم الخياط دون أن أدري، لم أعد أهاب الموت، ولا حتى الوحوش الضّارية، أو القوارض السّخيفة، بل ما يُزلزل قلبي الآن هو كل ما يبحث عني ويرقبني من بعيد دون أن أراه، فمن ينتظر مجهولاً لا يعرف ملامحه، هو كإنسان يرتكب كل فواحش الدنيا وينتظر ولا يعلم متى سيحل به العقاب.

عدت لأعانق الفراغ، ولا شيء غير الفراغ، فكل النهايات، تلتحم باللانهاية، وما أنا إلا حبة سوداء تدحرجها الرمال الناعمة، نعومة الشر النبيل، فبت وكأنني أنزلق على جلد أفعى ملساء، لكنني تفجأت بصوت يأتيني يخرج من قبو، أو قبر، أو شيء من هذا القبيل:

-"الآن فقط أيقنت أن الصحراء كالموت تعدل بين الجميع".

قالها البدوي بعد أن عانقت الرمال جسده كله وكأنها أنثى مجنونة تجبره أن يرقص معها للحظات ثم همت بدفنه في أحشائها، فظل محتفظًا باحدى يديه مرفوعة إلى أعلى منتظرًا يدًا أخرى تسحبه إلى السماء، لم أكن أمتلك أي شيء، بل وقفت عاجزًا عن إنقاذ حياته، حاولت مرارًا وتكرارًا، مددت له يدي، لجام الناقة، خلعت جلبابي، ولثامي، لكنه كان بعيدًا جدًا، لم أشعر بالذنب، لأنني أردت له الحياة، أردت لو أمنحه نصف حياتي ليعيش، لكن أخي مات دون أن أحاول أن

أمد له أي شيء، ليته كان أخي، ليتني كنت، وليت ما حدث لم يكن، إنه الشق المظلم الذي يسكن قلبي ولا يغادره، ارتديت جلبابي، وأحكمت وثاق لثامي، ثم امتطيت الناقة وأسقطت تلك اللحظات من حياتي، وغادرت دوامة الفراغ، بعد أن فطنت اللعبة، فالبدوي هو من افتداني بروحه كي لا أسقط في عثرات الطريق، فالرسائل المطوية أستطيع قراءتها الآن، وأنا على يقين تام بأنني أصبحت أكثر علمًا من صاحب الحكاية، الذي ما زال يجلس في نهاية الفراغ، ويظن أنني لن أصل إليه أبدًا يومًا ما، لكنني أرى مقعده تمامًا كما أرى أصابع يدي، وأشعر به كما أشعر بأحشائي، وأستطيع أن أقبض عليه كما أقبض على الهواء، فرسائله المدهشة صارت عادية جدًا، أصبحت أكتبها له حرفًا حرفًا قبل أن تصلني منه إليّ.

هناك خلف الجبل الشاهق تتدفق الرائحة، يحملها الهواء، فيعدل القسمة بين الاتجهات الأربعة، الرائحة لا تشبه شيئًا، لكنها تضيف إلى الحياة حيوات أخرى، تنتشر كعطر فواح، وتفيض كماء جار وسط بستان من زهر، تمنح الصخور أسماءها المجهولة، تُرَوض الرمال المتوحشة فتجعلها كصلصال طيِّع، تسحبني معها إلى مكان معلوم، لا يبدو للناظرين، ولا يتدثَّر بطقوس الصحراء، ليس بواحة تتجمع حولها

القبائل لتعيش أيامًا ثم ترحل بعد انقضاء الخير، وليس بقفر مُوحش تسكنه الأفاعي والعقارب التي تفرّ إلى جحورها مع هطول المطر، رائحة لا يستنشقها إلا الحالمين لترشدهم إلى الطبائع الخفية العالقة بين المسافات.

توقفت بالناقة حيث استقرت بي الرائحة، فأرخت عوارضها عند مشارف الحي الذي استقبلني أهله بالترحاب، تجولت بين الخيام المتناثرة، وبين مواقد الطعام الحجرية، التي تعلوها أوانٍ ضخمة فارغة يضرمون تحتها النيران، وينتظرون ما يسد جوعهم بصحون فارغة، لكن الرائحة كانت تتصاعد من الأواني مع الضباب الكثيف، الذي تهافتوا عليه يغرفونه بأيدهم ويأكلون منه لحمًا، وخبزًا، ويشربون لبنًا، وعسلاً، ويطعمون أطفالهم، لقد منحتهم القسوة قناعة الوهم، وقد منحهم الوهم فانتازيا الحياة، ناولني أحدهم طبقًا وأشار لهم بأن يفسحوا لي الطريق لأنال نصيبي، فالغرباء لا ينتظرون دورهم، فقبضت على الضباب، وتظاهرت بمضغه بين أسناني، وبعدما انتهيت شعرت بأنني ملأت معدتي بشرائح اللحم المشوي التي أعشقها، مذاق لم أشعر به من قبل، أردت أن أعود لأخذ المزيد، لكن أحدهم اعترض طريقي قائلاً:

-الوهم كالحقيقة لا يتكرر أبدًا.

حدقت في وجهه طويلاً ثم تراجعت للخلف، فاصطدمت بآخر، بانت ملامحه من تحت لثامه الأسود كوحش تبرق عينيه في الظلام، دفعني نحوه بقوة بيد، واستل خنجره من غمده بيد أخرى ووضع نصله على نحري، وبلهجة خشنة تحدث:

-ماذا تشعر الآن وأنت على مشارف الموت؟

-أشعر بأن عمري أطول من عمر قاتلي.

-وماذا لو تركتك تعيش؟

-سيصدأ خنجرك في غمده إلى الأبد.

- تنتظر حقيقة جديدة في كتابك إذًا؟

-بل تبحث عني الحقيقة.

رفع الخنجر من على رقبتي برفق، ثم صافحني بقوة، وأهداني إياه:

-أحسن حمل سلاحك ولا تقتل إلا إذا أردت أن تأكل، ولا تأكل إلا إذا أردت أن تعيش.

اصطحبني معه إلى خيمته التي نصبها في مؤخرة خيام قومه، جمع

الحطب، وأشعل فيه النيران حتى صار جمرًا متوهجًا كقطع العقيق، ثم وضع فوقه إبريقًا نحاسيًا قديمًا ليصنع الشاي فصار المشهد خلابًا لرجل ملثم تضدرج وجهه بحمرة النيران، وسط ظلام الصحراء، رفع الإبريق ليصب الشاي في كوبي قائلاً:

- لا بدَّ أن تعلم سيدي أن الشاي الأخضر يجري في عروقنا كما الدماء، فاستمتع باحتسائه، واشفق على جمرات النار التي حولته إلى مشروب لذيذ لا نضيف إليه السكر، فقط نضفي عليه من أحلامنا الممتدة كما الرمال، لنرى أنفسنا كما نحن، لا كما ترونا أنتم.

احتسيت كوب الشاي الأول فكان مذاقه قويًا، ومرًا كما حياتهم في الصحراء، ولما انتهيت ناولني الكوب الثاني فكان عنيفًا كما الحب، أما الكوب الثالث فخفيف كآخر رمق في الحياة، رمقت عينيه بنظرة طويلة، حاولت بها أن أكمل ملامحه التي غطاها اللثام، فابتسم ابتسامة لم أشاهدها، لكنني شعرتها جيدًا:

-هنا ستجد الرجال يستحون من أفواههم، لذلك ستراهم ملثمين ونساءهم كاشفات، فأفواه الرجال يجب ألا تكون بوابات مفتوحة تدخل منها قوافل الجان والشياطين، ولا تخرج منها أبدًا روائح السوء.

مد يده إلى لثامي، لف به وجهي كله، وأحكم وثاقه:

- حافظ على فمك دائمًا ملثمًا كي تظل بيننا رجلاً عظيمًا لا امرأة يتسلل من ثغرها الشر والشيطان.

- أين أنا الآن؟

- الأماكن المجهولة تمنحك القوة.

- لكن الوهم يحاصر رحلتي الطويلة.

- استفتِ قلبك فليس كل النور حقيقة.

-إنني أهتدي بخالق القلوب.

-ضع يدك على قلبك وحتمًا ستراه.

اعتلى صهوة جواده، وأشار إليّ بأن أمتطي ناقتي وأرافقه في رحلة طويلة إلى مدينة الخوف، فمن الخوف تخرج الحقائق نقيّة كما أحجار الألماس البلجيكي الرائعة، قطعنا الصحاري الشاسعة، مررنا من فوق رؤوس الذئاب، ومن بين ثنايا الأفاعي، ودُسنا بقايا العظام والجماجم المتناثرة، فشرقت شمس، وغربت شمس، وتبعنا قمر، وودعتنا نجوم، وجاء ليل، ورحل ليل آخر، وطل علينا نهار، وهطل مطر، واستلقينا

بين شقوق الأرض الميتة، وتوسَّدنا بالعشب، أكلنا يوم، وجعنا أيامًا، جمدنا برد، ولفحتنا نيران، ارتفعنا، وهبطنا، رقصنا معًا، وانزوينا بعيدًا لنبكي فلم ير أحدنا دموع الآخر، افتديته بروحي، وافتداني، أحببته، وأحبني، فكشف لي عن وجهه في الظلام، فرأيت ملامحًا تشبهني تمامًا، تشبه أبي، تشبه أمي وأخي، تشبهنا جميعًا، حتى جاء يوم أخبرني فيه بالفراق، عند أبواب المدينة المغلقة الأبواب، أخرج كتابه وقرأ عليّ كلامًا لا أذكره الآن، لكنه سكن قلبي كحمائم بيضاء اطمأنت لسكناها فبنت عشًا، ووضعت بيضها في سلام، غاب بعيدًا.

وقفت أمام أبواب المدينة، رفعت رأسي لأطالع أسوارها الشاهقة، وأخذت أفكر في حيلة للدخول، أزحت لثامي عن وجهي، ورفعت راية بيضاء، ثم جلست أنتظر، ففاحت رائحة "الإدرنالين" تزكم أنفي، فغمرني العرق، وشعرت بقلبي يخفق بقوة، حينما ارتفع صوت البوق يعلن عن وجود غريب جاء قاصدًا المدينة، فتحوا بابًا جانبيًا خرج منه غزالاً بريًا جاء يتشمم رائحتي، فألقيت خنجري على الرمال، فالتقطه بفمه وعاد به سريعًا إلى الداخل. فتحوا الأبواب جميعها.

اعتليت الناقة ودخلت بهدوء، إلى حيث الصمت. الصمت، الخوف، الخوف، لا شيء هنا سوى الصمت، والخوف، ركضت الأطفال إلى

أحضان أمهاتهم، أما الرجال فتواروا خلف الجدران، جدران ليست لبيوت، لكنها حواجز صنعوها للاختباء، تحدثوا من خلفها، انتشر الهمس، فأخرجت الكتاب من الحقيبة، تصفحت حقائقه المكتوبة، فخرجوا جميعًا من أوْكارهم، زالت رائحة "الإدرنالين"، نظرت إلى وجوههم التي امتلأت بعيون اتَّسعت أحداقها، ترجّلت من على ظهر الناقة، وحملتُ طفلة جاءت تُهديني دميتها، وترد إليّ خنجري، مسحت على شعرها، قبَّلتها، وقبلت الهدية التي تشبه طائرًا مفترسًا، وابتسمت، فارتفع الصوت، سمعت أصواتهم، حلقت الطيور، وعادت الفتيات تنسج غزلها، لكن أحدًا لم يرحب بي، أو يتحدث إليّ، أو يسألني، أو يستفسر عن وجودي، فسرت مع جموع الرجال في طريق لا أعلم إلى أين ينتهي، أو متى ينتهي، لكن طائرًا ضخمًا كان يهبط فوق رؤوسهم، يستسلمون له تمامًا، ويرفعون له أياديهم فيقبض على أحدهم ويحلق به بعيدًا، فيبكون لأنهم لم يقع عليهم اختيار الخلاص، إنهم يبحثون عن الخلاص من الخوف أكثر من بحثهم عن الحياة.

انتهى بي الطريق إلى حيث يعمل هؤلاء، فلم تستطع عيني احتواء الصرح العظيم الذين انهمكوا في بنائه، صرح يعلوه عش ضخم اقترب من اكتماله وضعوا فيه كل ما يمتلكون؛ طعام، شراب، وذهب، دهشت،

تساءلت، سألت أحدهم لم يجب، سألتهم جميعًا عما يبنون لم يجيبوا، لكنهم أجابوا بعبارة واحدة، في وقت واحد:

-الطيور قادمة من الخلف.

التفقت إلى الخلف فلم أجد إلا تلال الرمال، نظرت إلى السماء فلم ألمح إلا سحبًا غائمة:

-طيور "القطرس". قادمة.

-لِمَ أنتم خائفون؟

-من لا يخف لن ينجو، ومن يمت فقد نجا.

-اصنعوا من العيدان سهامًا ورماحًا. واقتلوا عدوكم.

-الخوف أنفى للموت.

-الخوف يموت إذا أردنا له الموت.

صعدت إلى الصرح، ركلت العش بقدمي فهوى على الأرض، وقفت على قمته، فأخذ الرجال يقذفونني بالحجارة، حاولوا أن يلحقوا بي، لكنهم كانوا يتساقطون كالفراش المبثوث كلما اقتربوا من القمة، ألقيت بخنجري لأعلى فسقط الطائر مضرجًا في دمائه، تناثرت الدماء على

وجوههم، هبطت سريعًا، فانهار البناء، صحت فيهم بقوة:

-ابنوا بيوتًا. ازرعوا شجرًا. فقد ولَّى زمان الخوف.

عمّ الصمت، تحسسوا قلوبهم، ضاقت أحداقهم، بانت ملامحهم كما خلقها الله، ألقى الرجال ما في أيدهم من عيدان، سجدوا جميعًا لله شكرًا. ثم ركضوا ناحية أبواب المدينة. فتحوها عن آخرها، رحبوا بالعابرين إليهم، ثم التفتوا إليّ يرحبون بي كأنهم يكتشفون وجودي للمرة الأولى، أشعلوا حلقات النار، ذبحوا الذبائح، ارتدوا ملابس مبهجة، خرج الأطفال يرقصون، رقصوا جميعًا، أتتني الطفلة الصغيرة تقف أمامي بابتسامتها تحمل في يدها عروسًا صنعتها لها أمها من القماش والقش، مسحت على شعرها فقبلتني من جبهتي، اعتليت ناقتي ووقفت أتأملهم من بعيد، ثم رحلت عنهم في صمت، على وقع الأغاني الأمازيغية، ويد طفلة صغيرة ظلت تلوح لي من بعيد.

حاولت أن أفتح كتابي لأقرأ. لكني لم أستطع، فقد التصقت صفحاته، تجمدت، صار ككتلة حجرية عديمة الفائدة، حاولت مرارًا وتكرارًا لكن الصفحات أبت أن تستجيب لرغبتي، قلبت الكتاب يمينًا، يسارًا، هَدْهَدته، فتحت حقيبتي لأتأكد أنه هو الكتاب، ولا يوجد كتاب آخر

غيره، لم أخطئْ إذًا، لم أرتكب ذنبًا عظيمًا، لم أفقد يقيني، لم أجزع، لم أفزع، أو أسجد لشيطان قط، إذًا فلماذا يعاقبني صاحب الحكاية؟ لماذا تستمتع بعذاباتي يا من تجلس هناك تنتظر دموعي وتبتسم، أو تضحك، أو تبكي، أو؟ لماذا تحرمني الأمل الذي كلما عثرت عليه انتهى، وغاب، واندثر، وتدثَّر بألف سراب، ثم ينفجر من حيث لا أعلم، فأسير إلى حيث لا أعلم؟ حتمًا سأشكوك إلى الله يومًا ما.

ارتطمت الناقة بالأرض منهكة، ربما أعياها التعب، أو أنها صارت مثلي تقف وسط بؤرة سوداء لا ترى منها أي شيء سوى خطوط منزوية تتقاطع مع البريق، تقطع كل بريق، ويبقى احتدام السواد، ينبت منه بقعًا عديمة اللون، وعديمة الرائحة.

ارتطمتُ بالأرض. ظهرت"نهاد" تسألني عن مفتاح المنزل، مددت يدي وسحبت الحقيبة، فتحتها بصعوبة بالغة وناولتها إياه، سلمته لـ"ياسين" الذي كان يقف خلفها، فسلمه للدكتور "إمام" الذي كان يقف خلفه، فسلمه لـ"مانو" التي ألقت به في مجرى النيل، ففاض عن آخره، ربَّتت على سطحه بيديها فجف ماؤه وبانت الأعماق أرضًا منبسطة، فتقدم ابني "يوسف" الذي كان يمشي على وَجَل، فكلما قابله حجر تعثر به، فسقط، ونهض، نهض، وسقط، حتى وصل إلى المجرى،

التقط المفتاح وعاد به يرده إليّ:

- أنت الآن وحدك من يمكنه قراءة الحقيقة يا أبي.

حدقت في ملامحه الصغيرة، لمستها بأصابعي المرتعشة، فعاد يردد:

- الآن وحدك من يقرأ الحقيقة يا أبي.

أخذت المفتاح من يده، فابتسم، ثم اختفى في لمح البصر، اختفوا جميعًا، أخرجت الكتاب من الحقيبة، وضعت المفتاح في ثقبه، فانفتح الصندوق الحجري الذي استقر الكتاب داخله، انتزعته ببطء شديد، ثم فتحت صفحاته، فرأيت الحقيقة الجديدة وقد خطَّها صاحب الحكاية كما عشتها، فعادت روحي تدور بين شرايين جسدي الذي تجمَّد، فالروح إذا ارتفعت سجدت، وإذا هبطت سُجنت، وإذا نُثرت اندثرت، وإن مالت ملَّت، وإذا اشتاقت رانَت، وإذا تلهَّفت برقت، وإذا أحبت استكانت، وإذا كرهت سقطت، وإذا أُصيبت زهدت، وإذا صعدت نجت، وإذا بقت فنت، لذلك كان يجب أن أستمر في رحلتي قبل أن يفنيني الوقت، فأظل حبيسًا في قمقم الزمن أستجدي الرحمة ممن ستلقيه الحكاية من جديد ليكمل الرحلة من بعدي.

(٧- ارتداد)

حقيقة الحقّ مُسْتنِيَر××صارخه بالنبا خبيـر

حقيقة الحقّ قد تجلَّتْ××مَطْلب من رامها عسير

ركد الغبار يتراكم على الجثث المتناثرة، جمع قطاع الطريق غنائمهم، ودفنوا قتلاهم في الرمال، ثم زرعوا صدور رماحهم في قلوبهم، وجلسوا يتشاورون في اختيار من سيتولى أمرهم بعد مقتل قائدهم، فاتفقوا فيما بينهم بعدما اختلفوا، بأنهم سينصبون أول رجل يدخل عليهم زعيمًا عليهم، وإذا أبى قتلوه، حتى يأتي غيره ويرضى بما قسموه له، فيمنحونه سيفًا، وفرسًا، وفراشًا وثيرًا، وخيمة كبيرة، تحفها نساء بيض، فيرتب لهم الخطط، ويشم رائحة القوافل المحملة بالخير، ويرتب لهم لحظة الهجوم، لقطع الطريق، وربما يقتل خلال المواجهة، لكنه إن أقام بينهم العدل، ودعا إلى الفضيلة قتلوه، فلا حياة بينهم إلا

لقوي ظالم، استلقى اللصوص على الرمال بعد أن أقاموا حلقة تلتقي فيها أسنة السيوف، في انتظار القادم المنتظر، فأثرت الغبار خلفي، امتطيت الناقة، وأحكمت لثامي، وانطلقت نحوهم كالعاصفة، فنهض أحدهم صائحًا:

-الزعيم قادم.

توقفت أمامهم، وبطرف حذائي التقطت سيفًا، وأشهرته أمام وجوههم، وأمرتهم بأن يثبتوا في أماكنهم، فارتسمت على ملامحهم فرحة غريبة، ألقيت حبلاً ملفوفًا، وأوعزت إلى أحدهم بأن يكبلهم، ويشد على أيديهم فلا مناص من الهرب، أو المقاومة، فمن يرفع رأسه سأطح بها في الصحراء، فاستسلموا كاستسلام الحمل الوديع، فنزلت من على ظهر الناقة، ونصَّبت نفسي قائدًا عليهم، ومن لن ينصاع لأوامري سأجعله فريسة للوحوش الضواري، تأكل من لحمه بعد أن تسويه الشمس، فصاحوا جميعهم:

-عاش الزعيم. ملك الصحراء.

استوليت على سلاحهم، ووزَّعت عليهم القليل من الغنائم، وأستأثرت بالباقي لنفسي، فضربوا لي خيمة كبيرة، ووضعوا عليها راية سوداء،

وكلبًا شرسًا للحراسة، فصنعت رقعة رملية ونثرت عليها بعض الحصى، ثم رسمت خطوطًا وهمية لدروب الصحراء التي سأبسط عليها سلطاني، وألعب الدور الذي رسمته لنفسي كما يجب، فأنا الآن الحاكم المتجبر، القوي، الظالم الذي تمنّوه لينشر الفساد في الأرض، فجمعتهم أمامي وأخبرتهم بلهجة خشنة بأن كل شيء هنا ملكي أنا، حتى أرواحهم التي تسكن أجسادهم أنا الذي أملكها، أقتل من أشاء، وأترك من يشاء يحيا بأمري، فلا جرعة ماء تسري في عروقهم لا علم لي بها، فأحنوا رؤوسهم على صدورهم معبرين عن طاعتهم لكل أوامري، رفعت رأسي لأعلى وأخذت نفسًا عميقًا، وأفسحت لهم باب الخيمة للدخول، جلسوا حول رقعة الحصى، فحركته يمينًا ويسارًا ووزعت عليهم الأدوار، فشخص للاستطلاع، وشخص لقيادة الهجوم، وما تبقي منهم فلخوض المعارك، أما الغنائم فلي وحدي، لا يأخذون منها إلا ما يسد جوعهم، فتبادلوا النظرات التي تخفي غضبًا مكتومًا، فصحت فيهم، بأني أنا من يمنحهم الحياة، ومانح الحياة لا بدَّ وأن يستأثر لنفسه بكل شيء، فحاول أحدهم أن يعترض فلحقته بصفعة قوية أردته على الأرض فاقدًا للوعي، فخروا جميعهم طائعين.

أتاني صوت الحادي يغني للقافلة من بعيد، فنبح الكلب، وسمعت

جلبة تقطع الصمت المحدق خارج الخيمة، فخرجت إليهم وذكرتهم بأدوارهم التي منحتها إياهم، لكن تملكهم الذهول حينما أخبرتهم بأنهم سيخوضون معركتهم من دون سلاح، فوقفوا متسمرين في أماكنهم، وشعرت خوفًا يتسلل إلى قلوبهم، فصحت فيهم:

-من يخف يمت، أو يُقتل.

فانطلقوا بخيولهم يسدون منافذ الطرق على القافلة التي أخبرنا المستطلع عن عدد فرسانها، وإبلها، وكلابها، وهوادجها، وبضائعها الوفيرة، فسمعت صراخًا، وصياحًا، وصهيلاً، ورغاءً، لكنني لم أشم رائحة الدماء، فقط كان الهدوء هو من ساد، انتظرتهم طويلاً حتى عادوا محملين بالغنائم، والنساء.

-ألقوا أسلحتهم وفروا سريعًا. لم نكن في حاجة إلى القتل.

تفوَّه أحدهم بتلك العبارة، حينما وقف أمامي يُعطيني التمام، فنظرت إليه نظرة طويلة، فما قاله يحتاج إلى التدبر، فهم لم يحتاجوا إلى القتل أبدًا، فقد ضيعوا حياتهم لهثًا خلف الدماء لا خلف الغنائم، فبمَ تفيدهم غنائمهم وسط صحراء قاحلة، الغني فيها هو غني بشربة ماء، والفقير فيها هو فقير بظمئه للحياة؟ التفتُ إلى النساء، وأمرتهم أن

يختار كل واحد منهم فتاة بكرًا ليتزوجها، أما الثيِّب فيتركوها لخدمتي، فانتشرت بينهم لغة حانقة لم أفهمها، لكنني كنت أعي جيدًا ما أفعله، ألقيت إليهم من الغنائم ما يعينهم على العيش لأيام، واستوليت على الباقي كاملاً، فاحتدم النقاش بينهم، وارتفع الصوت، فانشقوا على أنفسهم فريق معي، وفريق عليّ، وهنا قطعت اللغط قائلاً:

- من لا يرض بقضائي فالصحراء قضاؤه.

فصمتوا جميعهم، وبقيت أنا أشهر سيفي، وألقي بأوامري، هنا، وهناك، أمرتهم أن يستبدلوا خيمتي بقصر كبير، من الرمال والحجارة، يعملون على بنائه ليل نهار، ويصنعون لي عرشًا مرصعًا بما يكنزونه من جواهر، وذهب، وفضة، فصاروا كل يوم يبنون جدارًا وأمنحهم القليل من غنائمهم نظير ما يصنعون، فأنجبوا بنينًا، وبناتًا، يفتحون أفواههم للطعام، فزروعوا أشجارًا منها يأكلون، وحفروا آبارًا منها يشربون، بعد أن ضاق بهم العيش، وانقطعت عنهم الغنائم لانشغالهم في البناء، فصارت صحراءَهم واحة وارفة الظلال.

مرت شهور طويلة حتى اكتمل بناء القصر، فاعتليت عرشي، وقررت أن أضع لهم قانونًا صارمًا، فكل ما تثمره أشجارهم لي، ومن يمد يده على قيد زيتونة دون إذني فعقابه أن يُصلب وتأكل من رأسه الطير، أو يُدهن

جسده بالعسل ليكون طعامًا للذباب، فأنا مالك الأرض ومن عليها، فجاءوا يطلبون العدل، فرفضت رفضًا قاطعًا، وذكرتهم أن الظلم في حضرتهم هو نجاة من القتل.

القتل؟

كم كانت تلك الكلمة غريبة على مسامعهم، فما نطقت به صار غريبًا حقًا، فمن يزرع ويأكل من زرعه لا يقتل أبدًا، ولا يظلم أبدًا، بل هو أحرص الناس على حياة من هؤلاء الذي عاشوا يبحثون عن أقوات غيرهم. مرت أيام علا فيها نباح الكلب، واكتمل القمر حتى صار بدرًا معلقًا في السماء كنافذة نورانية تنبعث منها رائحة الأمل، فشعرت أنهم يدبرون شيئًا ما، شيئًا أشبه بالحقيقة الكبرى التي جئت أبحث عنها، إنها الحقيقة التي لا مناص منها ولا هرب منها إلا إليها، إلى الحياة الرائعة التي تملأ الأرض بالخير، والحب، والجمال، والمطر، إنها "الثورة". الثورة على ما صنعوه لأنفسهم وعَبَدوه، وظنوا أنه إلههم الأعلى الذي يُطعمهم لحمًا بريئًا، ويسقيهم الدماء، فلا يشعرون بذنب، ولا بقتل، ولا بصراخ امرأة، أو بكاء طفل، بل استأثروا لأنفسهم ظلمًا يشبه الوهم، أو يشبه الحق، فزرعوا في الأرض سيوفًا ينتظرون منها

الرزق، حتى ثقلت جلودهم، وماتت قلوبهم وملأتها الحجارة.

ارتفعت حناجرهم في الخارج حتى كادت تتمزق، وطاحت سيوفهم تلمع بالحياة لا بالموت، بل هم الآن يرغبون في الموت من أجل الحياة، فسيف الظلم لا يصهره إلا هذا الصوت الذي تستجيب له السماء، والأرض، فتهافت الناس من كل حدب وصوب، بعد أن خلق منهم الماء، والشجر رهطًا كبيرًا جذوره ثابته، وفروعه بيد صاحب الحكاية التي نعيشها جميعًا، وقفت في مستشرفي أمعن في النظر لقسمات وجوههم الغاضبة، التي تعلوها مشاعل الحق المضيء التي لا تنطفئ أبدًا. عدت إلى عرشي المرصع بالجواهر، وقلبته رأسًا على عقب، حملت حقيبتي، وكتابي، وارتديت جلبابي، وأحكمت رباط لثامي على وجهي، ثم امتطيت ناقتي وشققت صفوفهم، وآثرت الرحيل إلى الصحراء دون أن يشعروا، وكأن ستارًا أسدله الله بيني وبينهم، ألْهاهم عن رؤيتي، التفت إليهم من بعيد وهم يتدفقون من أبواب القصر المشرعة عن آخرها. وابتسمت.

وماذا بعد؟

فالحيوات التي أعيشها لا تمنحني ما جئت أبحث عنه، بل أنا من يمنح الآخرين ما ينقصهم، أما مخطوطتي المُبهمة فما زالت ناقصة، ولن

تكتمل إلا إذا طويت كل تلك الجبال، والتلال، والشقوق، والرمال خلفي، أعلم أنني أرتكب خطأ فادحًا بالتفكير في مثل تلك الأمور، فذلك مُنافي لقواعد الحكاية، وربما أتلقى عقابًا شديدًا سيأتيني آجلاً أم عاجلاً، لكنني لم أعد أخشى العقاب، ولم أعد أنتظر الرسائل المطويّة التي يأتي بها الحمقى الذين اختصروا حياتهم في حملها إليّ، فالحقيقة التي شئت أن أصل إليها، لن تنتظرني كثيرًا، لذلك يجب أن أقرر الآن فإما أن أعود وأتركها تسبح في المحيط، وإما أن أواصل الرحلة وأعود بها كما عاد من قبض على الذئب من ذيله، فتحت الحقيبة وحملت الكتاب بين يدي، قرأت الحقائق المدونة واحدة تلو الأخرى، فلم أجد جديدًا فتلك الحقائق عشتها بالفعل، ولا أجد فيها ما يشبع رغبتي على المواصلة، فيمكنني الآن أن أخط باقي الكتاب بيدي، وأغزل حكايات طويلة وممتعة من نسج خيالي بعد أن زال عني الإنبهار، فكل الأحداث من حولي صارت عادية جدًا، حقًا أشعر أنني بتُّ أبحث عن اللاشيء، أو أنني أبحث عن شيء هو في قبضة يدي بالفعل، قلَّبت الكتاب يمينًا، ويسارًا، ثم طوَّحته في الصحراء، وألقيت حقيبتي بكل ما فيها، فحملتها الرياح بعيدًا إلى حيث أرغب، أو إلى حيث يرغبون هم.

هبت رياح خفيفة منعشة، احتفيت معها بتخلصي من قيودي، أنا حر

طليق الآن، أستطيع أن أسير في كل مكان، وفي أي مكان يقع عليه اختياري، فعقلي، وعقلي فقط أصبح هو سيدي الذي يحكم، ويتحكم في كل أفعالي، أصنع خرائطي، وكتبي، كيفما شئت، وحيثما أشاء، فما الجدوى من البحث عن حقيقة غائبة والبشر قد هبطوا من السماء ليملؤا الأرض بالفساد؟ فالشر هو قرين للخير حتى النهاية، وأنا بكتبي، ودفاتري، وأقلامي، وحقائقي مجرد نقطة صغيرة لن تمزج ماء الشر المستشري في القلوب، والمتربع على عروش العالم، فالسيوف لن تشق أنهارًا، والرصاص ليس بذورًا تنبت أشجارًا، وكل كلمات الساسة الكبار لن تخلق الحكمة التي ننتظرها لنصعد إلى الجنة، فلا معنً للخير من دون شر، ولا قيمة للثواب من دون عقاب، ولا للأبيض من دون الأسود، والجنة التي التي أرنو إليها، وأجاهد من أجلها، هي عالم خالد من ذكريات جميلة مضت ولم تأت بعد، وأمنيات اكتملت وانقطعت، وأحلام تحققت ولم أحصل عليها، وخيال فاق طاقة الخيال، وألوان مبهجة رأيتها ولم أرها، ومذاقات تلذذت بها وافتقدتها، وروائح استنشقتها لا تُمل، وحفنات ماء إذا تجرعتها لا أظمأ بعدها قط، فكل له جنته التي يبتغيها، لذلك يجب أن أتخلى عن حلمي هذا وأعود إلى مدرس التاريخ أنحني أمامه، وأقبل يده، وأعتذر له عن تمردي، فيجب أن أكون

جرة فارغة أسلم له نفسي ليملأها بحقائقه الزائفة، كي أصبح بشرًا عاديًا، يأكل الطعام، ويسير في الأسواق، ويموت، ويموت، ثم يموت، فلا حياة لمن يحيا كائنًا عاديًا، ولا حياة لمن يتعلق قلبه بمآرب البشر التي يعيشون فيها دون أن يشعروا بأن هناك من يسعى إلى مآرب أخرى.

هبت ريح عاصفة، حملتني بعيدًا، دارت بي في كل مكان، أخذتني، راحت، وجابت، ارتفعت، وحطت، غاصت، غاصت، نخرت الصخور، شقت الصدور، مزقت الأرض، نسجت حول جسدي خيوطًا حمراء، لفته كموميا‌ء فرعونية متمردة، لم أستطع الخلاص، بل صرت كفريسة العنكبوت التي وقعت في فخها، وتنتظر مصيرها الأخير، لم أقاوم أبدًا، بل استسلمت تمامًا للعقاب، أو القدر، انطلقت سريعًا، قفزت بي إلى أعلى، شقت رتق الحكاية والصفحات المدونة، وقذفتني وسط ضوضاء المدينة، حيث أقود سيارتي أقاوم الزحام، و"ياسين" ابني يجلس في المقعد الخلفي يشهر "تشاكي" في وجه العابرين، ولا أحد ينتبه للإشارة الحمراء، حتى أنا عبرت سريعًا دون أن أُعيرها أيّ اهتمام، وأخذت أتملص من بين السيارات كحيّة رقْطاء ناعمة، وأقفز كأرنب بريّ يريد الحصول على الخس، والجزر، حتى نفدت بجلدي الجديد إلى منزلنا، لم تكن "تشاكي" بالنسبة لي كائنًا غريبًا، بل كانت

ما تحمله من سيمياء القتل دمية رائعة جدًا ومبتكرة، صنعها إنسان ملهم.

استقبلني بواب العمارة بفواتير الكهرباء، والماء، وصيانة المصعد، ووصّل الإيجار، أما "نهاد" فلم تستقبلني كزوج غاب عنها شهورًا وربما سنينًا طويلة، بل أملت عليّ أوامرها العسكرية بمجرد أن رأتني، فمعطفي لا بدَّ وأن أنزعه وأعلقه على مشجب جوار الباب، وحذائي لا بدَّ وأن أُطهره وأضعه في خزانة الأحذية، أما حقيبتي فمكانها المكتب، بينما عاد "ياسين" يبني مزرعته ولم يستثن منها الوحوش، بل توّج الأسد ملكًا عليها، فصارت كل الأحداث في اتجاهها المعدول، أو الصحيح، دلفت إلى مكتبي بعدما أبدلت ملابسي، ونظرت إلى كتبي القابعة في المكتبة الكبيرة، وانفجرت ضاحكًا، فتلك العقول الحمقاء قد ضيَّعت عمرها هدرًا، وبقينا نحلم أن نتغير، فالإشارة الحمراء هي مجرد ضوء يزين الطرق المتقاطعة، والغلبة للأقوى الذي يستطيع أن ينتصر ويرفع رايته فوق ركام الفوضى، دقت ساعة الحائط تعلن قطاف ساعة جديدة من عمري القصير، فالتفتُ إلى عقرب الدقائق فتفاجأت بأنه يتبختر في الاتجاه المعاكس، فركضت إلى غرفة النوم، وأخرجت علبة السجائر من "الكمود" وقرأت تاريخ الصلاحية الذي

مر عليه سبع سنوات كاملة، فأيقنت أن الأحداث باتت ثابتة والزمن هو من تغير، الآن أنا أرى كل شيء عاديًا جدًا، بعد أن تخليت عن بحثي عن الحقيقية، عدت إلى مكتبي بخطوات متباطئة، وألقيت بجسدي سريعًا على الكرسي الهزاز، ثم ضغطت زر الريموت لتنطلق موسيقى " تشايكوفسكي" لم أفكر بعدها إلا في "أنا"، نعم آن لي أن أفكر في "أنا" فقط على وقْع تلك الدقّات التي تضرب الجدران برفق، وعنف، وحمق، ودهاء، لم أذكر أي شيء مما مضى، أو مما سيأتي، فاللحظة الحالية هي ملكي، ويجب أن أقبض عليها بكل قوة قبل أن تنحدر إلى وديان الماضي، فتصبح ملكًا للجميع، فلماذا أقطع كل تلك المسافات، وأنا ما زلت هنا؟ لماذا لا أعيش ككائن بوهيمي يفكر فقط في قوائم الفواتير الطويلة التي تنتظره كل يوم، وتمر من أمامه كل الأحداث وهو يجلس في مقاعد المتفرجين يضع ساقًا على ساق ويصفق لمصارع الثيران الغبي؟ لماذا أحمل قلمًا دائمًا في جيبي جوار القلب تمامًا وأظل أُدون من يسقط، ما يسقط من بني البشر ليقرؤوه وهم مستلقين على ظهورهم ويحتسون القهوة ويدخنون السجائر، والغليون والنرجيلة؟

انتهت المقطوعة.

وبدأ عزف "نهاد"، عزف التساؤلات عن يومي كيف كان؟ عن عملي

وطلابي؟ وعن بائعة الكتب الفاتنة التي تعترض طريقي كل يوم لتبيع لي كتبًا أُتخم بها مقعد السيارة الخلفي دون أن أقرأها؟ لم تترك لي مسافات ولو قليلة للإجابة، بل ظلت تسأل، وتسأل، وتسأل، وتحدثني عن والدها ضابط الجيش المغوار، الذي ضحى بحياته، وبيته من أجل الوطن، ثم في النهاية تخبرني بأنه سيشرِّف منزلنا على مؤدبة الغداء، متجردًا من حراسه، ونياشينه العسكرية، إنه حقًا رجل متواضع، يفسح قلبه للجميع، ويُنصت للجميع، ويتحدث قليلاً، كم تمنيت موته، أو اختفائه من حياتي، هذا المُنَغص لكل حياتي الذي يحتل مقعدي على رأس الطاولة، ويجلس بكل قرفٍ ينتقد كل أفعالي، وكل كتبي، وكل مخطوطاتي التي يعتبر نفسه صانعها، فالعسكريون هم من صنعوا التاريخ كله، بل هم من يمنحونا الحياة.

في ميدان "طلعت حرب" وتحت التمثال تمامًا قابلت الأستاذ "إدريس" مدرس التاريخ، ناديته فالتفت إليّ بقرفه المعهود، تذكرني سريعًا، حيث كان يلقبني "بشامبليون العظيم"، انحيت على يده وقبلتها، واعتذرت له عن كل ما صدر مني وأنا طالب صغير لا يعي أن الفرنسيين هم أصحاب الفضل علينا، وليسوا الإغريق، فحجر رشيد ظلَّ لمئات السنين في مكانه دون أن يلتفت إليه أو يحاول أن يفك طلاسمه،

كإشارة المرور تمامًا التي نعبُر من جوارها ولا نعلم لمَ وضعها رجل سخيف أراد أن يعطل بها طابور الفوضى الجميل؟ و"شامبليون" وحده من جذب انتباهنا بأن في هذا المكان حجرًا يستطيع به أن يُغير مجرى التاريخ، فربَّت على كتفي مبتسمًا وقبل اعتذاري، ثم انصرف منتصرًا على الولد الغبي الذي أراد أن يصبح بطلاً يُصفق له زملاؤه الموتى.

في الجامعة جلست أمام طلابي أتأملهم، فالمحاضرة اليوم لن تكون كما الأيام السابقة، فليس هناك ما يستحق أن أقطب وجهي من أجله، ولا داعي أن أتظاهر بجدية لا تتعدى رابطة العنق، وأظل أكبت داخلي مهرجًا ضخمًا ظللت أقبض عليه لسنوات طوال دون جدوى، فالحقائق الثابتة في عوالم هؤلاء الغلمان ما هي إلا قصصًا وأهازيج يكتمون ضحكاتهم أمامها، وأمامي، فلا طائل من سردها طالما أنها لا تضيف شيئًا جديدًا إلى حياتهم العبثية، فسمحت لهم بإلقاء الأسئلة والحديث للمرة الأولى، فما أؤمن به لم يعد له مكان الآن بينهم، فأخبرتهم بأنني أعتبر "الجاحظ" أول رسام "كاركتور" في العالم عندما رسم بورتريه رائع في "رسالة التربيع والتدوير" لصديقه "محمد بن عبد الوهاب" بالكلمات والوصف الدقيق، وإنه في النهاية مات موتة أسطورية يتمناها أي مثقف عندما سقطت الكتب فوق رأسه فأردته قتيلاً، فاندهش طالب

قائلاً:

-أيعقل أن تقتله الكتب بهذه السرعة؟

فأجابه طالب آخر: ربما من يسجل التاريخ خشي أن يكتب بأن الإسعاف أتى متأخرًا.

فضحكوا جميعًا، وضحكت معهم، وأيقنت أخيرًا أنني قد أضعت عمري كله خلف وجه عابس لن يُغير في رؤوسهم أي شيء، فمن أردت أن أبحث له عن الحقيقة قد مات، أو قُتل، أو أنه لم يولد بعد.

اقتربت مني طالبة تسألني عن اسمي، أو هُيئ لي ذلك، فمحاضرة اليوم لم يكن "مازن" هو من يلقيها، بل شخص آخر استيقظ صباحًا، وارتدى بدلته الرمادية، وذهب إلى الجامعة ليستمع إلى طلابه، ولا يثرثر هو، بعد أن ظل يقذف إليهم بحقائق خطها أناس لم تخرج نظراتهم عن رقاع الماعز، ونسي أن يتلقى حقيقتهم، التي تفوق الخيال، فأجبتها بابتسامة عريضة:

-أنا متفرج جديد.

هزت كتفيها مستغربة، وانصرفت تتلفت خلفها، وكأنها تبحث عن شيء ما، ربما تبحث عن "مازن" ذاته، لكن كيف لها أن تعثر عليه وهو ما زال

يبحث عن نفسه وسط ركام العالم كله؟ لكنه لا يعلم أين يكون، أو كيف سيكون؟ فهو لا يختار لنفسه الأشياء، والأماكن، والأفعال، بل تأخذه ريح، وتذهب به أخرى، أما إذا قرر أن يختار طريقه عاد من حيث بدأ، وفقد كل حِيَله التي يعيش بها حياته كما يريد، الآن تجبره كل الأشياء أن يراها مجردة من الإنحرافات والتعاريج، حتى أصبح يسير على خط مستقيم، فالأغبياء وحدهم هم من يسلكون الخطوط المستقيمة، لذلك هم يعيشون في نعيم، أما النعيم الذي أعيشه فأصنعه لنفسي كما شئت، فبيتي أعيش فيه كما أريد أن أعيش، وعملي أركن إليه كما أشتهي، لكنني غفلت أن لكل هذا وجه واحد فقط، يراه الناس جميعًا، لكنني وحدي من يرسم وجوهًا كثيرة، ويعيش بينها، ويتعامل معها ويسايرها، فمن يبحث عن الحقائق البعيدة لا تشغله حقائقه القريبة التي لا تنفع، ولا تضر، لأنها سهلة المنال، لذلك أتركها لمن ينشغل بها، لكنني اليوم فقدت كل شيء اختيارًا، بعد أن أضعت كتابي بيدي، وتركته يذهب هباءً.

على شاطيء النيل جلست على المقعد الخشبي لأستمتع باللحظة قبل أن تصبح في عداد الماضي، لكن دفقات البرد بدأت تطاردني، فزاد إصراري على المواصلة، كانت دندنات عود قد بدأت تستيقظ من

مكان ما، فالتفتُ إلى حيث تقبع النغمات، فرأيت شيخًا جالسًا في المقعد الموازي لمقعدي، أخذت أتأمل الحلقة المنعقدة حوله من باعة (الترمس والحمص، والذرة)، وهم يرددون خلفه بانسجام يضفي على النفس بهجة وحياة (حب الوطن فرض عليا، أفديه بروحي وعنيا)، توقفت أمام الحلقة، وبدأت أنساب معهم من دون أدنى مقاومة، فالأوطان كما العصافير لا يمتلكها أحد، لكني الآن أحنو إلى اختيار مثقل بالحجارة، لأن حياتي لم يعد بها شيء أراه، ولم تعد في شوارعنا حفنة دفء أكتب في أحضانها كلمة وطن، فالوطن الآن لبطل مستعار، الوطن الآن يصدقهم، وينخدع بهم، أما هؤلاء فيصدقوه.

رافقني الشيخ لاستكمال رحلتي التي بدأتها على الكورنيش، أخذ يحدثني عن زمن الطرب الأصيل، و"شارع محمد علي، وعماد الدين ثم حدثني عن منيرة المهدية، وسلامة حجازي، وعبد الوهاب، وأم كلثوم"، ثم توقف ليسألني عن سبب وجودي في مثل هذا الطقس على شاطئ النيل، فأجبته دون تردد:

- أتيت لأُدَندن معك.

رمقني بنظرة استغراب، ثم ربَّت على كتفي، مبتسمًا:

- ومن يستمع إلى نغماتي لا بدَّ وأن يعود إلى حقيقته يومًا ما.

- لقد فقدت كل شيء.

حدق في ملامحي للحظات ثم انصرف عني طارحًا خلفه الضباب، ناديته بأن يعود لكن دون جدوى، لم يدم إعجابي بفصاحته كثيرًا، فخواطري مشحونة بما هو أهم من مجرد كلمة مبهمة ألقاها عليّ رجل تجاوز السبعين عامًا وانصرف، وقفت وحيدًا أمام صفحة النيل العامرة بأضواء القاهرة، وملأت صدري بالروعة، لكنني استيقظت على صوت من يستغيث بي من الغرق، ودون أدنى تردد خلعت سترتي، وألقيت بنفسي في مجرى النيل محاولاً إنقاذه، لكنه قبض على معصمي، وجذبني إلى هُوة سحيقة، ثم دفعني بقوة إلى الخارج، لم يكن شاطيء النيل هو واقعي الذي ينتظرني، بل كانت الصحراء في استقبالي، نظرت حولي فرأيت ناقتي تحمل حقيبتي بين فكَّيها، وتقف في انتظاري، تحسست جسدي العاري، ونظرت حولي لأصطدم بالفراغ، الفراغ مرة أخرى هو من يربح، ارتديت جلبابي، وأحكمت وثاق لثامي، ثم امتطيت الناقة، وأنا أضم الكتاب إلى صدري بقوة، وسرت في طريقي لأكمل رحلتي التي لم تنته بعد، لكن دندنات العود كانت لا تزال تتردد في أذني، وأشياء أخرى من هنا، وهنا، وهناك، لم أنصع للشمس

التي لونت حلمي الجديد، أو واقعي الذي يأبى أن يغادرني، فسقطت أمام عيني هالة زرقاء، رأيت من خلالها جبالاً شاهقة يعتليها أناس يحملون رايات سوداء يلوحون بها للقادم من البعيد، وينادون بصوت مقطوع أن توقف، أو أتقدم- لا أعلم- لكنني قررت أن أسلك طريقي الطويل، فالحقيقة تنتظر على أي حال عند خط النهاية، وما المنع إلا رحمة يُبتغى منها عطاءً خالدًا.

فتحت الكتاب فرأيت حقيقة كبيرة كُتبت لم أعشها، لكنها شاخصة بكل أحداثها، أخذت أقرأ بنَهَمٍ عن ملك أحاط مدينته بأسطورة خرافية، حكم بها شعبه سنوات طويلة، فحوَّل عقولهم إلى صناديق خاوية، فمن تُسول له نفسه أن يفكر، أو يُعمل عقله، أو يبتكر شيئًا ما يُحرم من العيش بينهم، فيطردونه خارج الأسوار لتهضمه معدة الوحش الضخم الذي يمد زراعيه الطويلتين ليحتضن المدينة منتظرًا فرائسه من الملعونين، لكنهم اكتشفوا أخيرًا أن من يحكمهم قد مات، ففتحوا الأبواب، وتدفقوا إلى الخارج، فاصطدموا بحماقتهم، عندما اكتشفوا أن الوحش الرابض في الخارج، ما هو إلا ريح هوجاء تضرب التلال، فتصدر خوارًا يشبه الخوف، فتحسسوا رؤوسهم المنتفخة، وبطونهم الضامرة، وصاحوا بأصوات متواترة:

-عشنا كثيرًا، لنموت طويلاً.

فأيقنوا أخيرًا أنهم بُلهاء، فخرّوا ضاحكين، عندما رأوا مدينة أخرى خارج مدينتهم يسكنها من حُكم عليهم بالموت، يحكمها ملك آخر يمقت الأغبياء، فقضوا ما تبقى من حياتهم معلَّقين بين مدينتين، مدينة هدموها بأيدهم، وأخرى لم يترك أهلها حجرًا واحدًا لهم ليقيموه.

ضحكت كثيرًا على رجل أحمق ألقى بكتابه للريح، وأراد أن ينفذ من عوالم الحقيقة، إلى عالم فسيح يشبه الحلم الطويل الذي ينتهي بالموت، فندمت لأنني لم أعش تلك الحقيقة الرائعة، وظننت أنني لا طاقة لي بتلك الرحلة التي اصطفاني من أجلها صاحب الحكاية، فطويت كتابي، وضممته إلى صدري، وأوعزت إلى الناقة بأن تسرع الخطى لتشق الطريق، فما بداخلي من نهم للمقبل أضحى أقوى بكثير من رغبتي في العودة صفر اليدين، فجموع "القبالا" التي تتخم رأسي بالأفكار اللزجة أقسمت على نفسها أن تغويني بالحياة الزائلة، كما أقسم أبليس على نفسه أن يغوينا جميعًا لنبقى مخلدين في الأرض، لكنه نسي أننا ننفذ من قبورنا للسماء مرة أخرى، لذلك أنا على يقين بأن ناقتي النحيفة ستقودني إلى الجنة، هناك تحت الشجرة، على حافة المحيط، حيث

يجلس المحارب الأعمى في انتظاري يحمل في حجره حقيقتنا جميعًا، فالهجرة التي تنتهي بمدينة فاضلة لا يجعل لها الله طرقًا خاوية، مستقيمة، بل يجب على كل مهاجر أن يخوض حربًا طويلة حتى يصل إلى مبتغاه، فما قيمة الوصول إلى النهاية من دون حكمة كبيرة تتسرب إلينا من دون وعي؟ نظرت إلى الهالة الزرقاء التي سقطت أمامي مرة أخرى لأرى أناسًا يحملون نعشًا يطوفون به الصحراء، ويُخرجون منه جسدًا باليًا، يوارونه الرمال في حفرة صغيرة، مرت لحظات رفعوا فيها أكفهم للسماء يدعون الله، فخرج منها رجل فتيٌّ قتلهم جميعًا، وألقى بهم في مكانه، وأهال عليهم التراب، فدهشت لما تأتي به تلك الهالة من أحداث متقطعة خارجة عن سياق الحكاية، ثم أرجأت دهشتي لربما أمر بتلك الأمم في طريقي، يومًا ما، وأستعير منهم شربة ماء، أو كسرة خبز.

دخلت في وادٍ بين جبلين أسودين، يجري من تحتهما نهر من جليد، أما على الجانبين فكانت أبوابًا صخرية مغلقة، توقفت الناقة عند المدخل المظلم الذي تتشابك فيه الحجارة، وأبت التحرك، فأيقنت أنني يجب أن أخوض تلك الرحلة وحدي، تأبطت كتابي، وسرت بين الينابيع المتدفقة من حولي كشلالات تبرق على أثر ضوء خفي، حتى وطأت

قدماي طريقًا نحيفًا كالسراط، من تحته تتصاعد الأبخرة من بركان ثائر، مشيت وكأنني أعد الخطى، أنقل قدمًا، خلف قدم، حتى اتسع بي الطريق فصار كساحة كبيرة تنتهي بنصف شمس صفراء تنحدر نحو الغروب، غمرني العرق، فصرت كأنني أسبح في بركة مالحة وصل ماؤها إلى الأذقان، فرفعت كتابي لأعلى خشية أن تصاب أحباره بالبلل، لكنني سرعان ما تذكرت بأن للكتاب درع يحميه، سبحت. سبحت كثيرًا، لكن لا شيء ينتهي، فلم تعد قدماي تطال الأرض، وفقدت الشعور بجسدي الذي يحمل رأسي، فطَفَت على السطح خيوط حمراء، تتشابك، تلتف، تتلوى كأفعى، حاصرتني من كل جانب، حتى سدت عليّ كل سُبُل الماء، نظرت إلى أعلى فلم أر سوى سماء حجرية تملأ الفراغ العلوي، لقد اختفت السماء الزرقاء، واختفت معها النجوم والشمس والقمر، سقط الكتاب من يدي محدثًا حلقة كبيرة وكأن حوتًا صفع ذيله بالماء، ليبقى هو وليغرق من يغرق، فتشبثت به بكلتا يدي، فصار قاربًا من ورق يحملني نحو الشاطيء، متى ينحسر الشر عن هذا العالم، وتكف "القبالا" عن غزلها؟ لكن الفوز بالنهاية يُحتم علينا السباحة وسط النيران كي نحتفي بلحظة الوصول، غرفت حفنة بيميني من الماء، فرأيت رموزًا من الحقيقة تظهر في كفّي وتختفي، فأدركت

أنني أسبح نحو الطريق الصحيح، وقفت فوق الكتاب أستقبل المطر بعد أن ظهرت سماء الله تعتليني مرة أخرى، لتتخم صدري بالأمل، بينما ظلت تقترب ملامح جزيرة من بعيد، يبرق منها ضوء خافت، فأنا "الحلاج" الذي غزل بيديه أخبار مدائن قد مضت، فاصطفاه صاحب الأسرار ليكمل غزل حكايته التي لم تنته، بعد أن ظن الجاهلون يومًا أن أحرفه قد طمسها الماء، أنا الواثق، الموثوق بوثاق العهد الذي عقده بين أقصى، وأقصى، وأدنى، وأدنى، فتباعدت المسافات واقتربت، وقست، ولانت، فبت أجمع كل الخيوط نحو نقطة واحدة يسعى إليها من امتلأ قلبه باليقين، فبات يرى الله في نفسه، أكثر مما يرى نفسه، ويرى الله في غيره أكثر مما يرى غيره، ويرى الله في الأشجار، والسماء، والأنهار والمطر، أكثر مما يرى ما يرى، فزهد الورى، وأصبح قلبه معلقًا بالذكر.

(٨- حقائق مهملة)

سرّ السرائر مَطْـوِيٌّ بِـاثْبَات **في جانب الأُفْق من نور بِطيَّات

فكيف والكيف معروف بظاهـره ** فالغيب باطنه للذاتِ بالـذات

اسمع أيها الإنسان، وتمعن وشاهد، أيها الموصوف بالعقل والحكمة، الحياة معجزة ظهرت منذ أربعة مليارات من الأعوام، وأنت لم يمض على وجودك سوى مائتي ألف من الأعـوام، إنها حقبة قصيرة لكنها كانت كافية لاختلال توازن الأرض، حتى باتت حياتكم على الكوكب الأزرق مهددة بالزوال، هنا ستشاهد آثار نشأتكم الأولى، في البداية لم يكن كوكبكم سوى كتلة نارية مضطربة تكونت من الشمس وانفصلت عنها، سحابة من جزيئات غبارية تسبح في الفضاء، وشأنها شأن

العديد من المجموعات المماثلة في الكون، لكن هنا حدثت المعجزة، معجزة الحياة.

هذه الحياة التي تعيشها اليوم-حياتكم- ليست سوى حلقة من سلسلة لا تحصى، ولا تعد ولا تنتهي من الكائنات الحية التي توارثت الكون على مدى أربعة مليارات عام، فحتى اليوم مازالت البراكين الجديدة تشكل معالم أرضكم فتستعيدون معها بعضًا من نشأة الأرض في ميلادها الأول، صخور منصهرة تفور من باطنها تصبح صلدة، تتشقق تعتليها النتوءات تنبسط في هيئة قشرة نحيفة ثم تخمد ردحًا من الزمان، تتصاعد سحب الدخان من جوف الأرض رقيقة تسبح، وتتلوى في الأثير لتصبح شاهدًا حيًا على جو ذلك الزمان، جو خال من كل معالم الحياة ومثقل ببخار الماء، كانت الأرض قفرًا، لكنها وعدت بمستقبل مدهش خبأه لها الماء، ظلت الأرض تغازل الشمس، فلا تدنو دنوًا يحرقها، ولا تبعد بعدًا يجمدها، توازن عجيب حفظ لها ماءها سائلاً يجري في أوصالنا، تبخر الماء، وتكاثف في السماء، فانهمر المطر، جرت الأنهار، فشكلت بانسيابها معالم سطح الأرض، شقت القنوات، حفرت الوديان، وتركت الجزر كما هي يابسة، تدفقت بمياهها، حتى أدنى البقاع، فتكونت المحيطات، في طريقها انتزعت المعادن من

الصخور، وشيئًا فشيًا، أصبحت مياه المحيطات العذبة مثقلة بالملح.

من أين أتيتم؟

وأين قُدحت أولى شرارات الحياة؟

معجزة من معجزات الحياة هي حقيقة الحياة.

صمت الصوت الرخيم الذي ملأ عليّ روحي، وكياني كله، قبل أن أطأ بقدميّ خطوة واحدة على أرض الجزيرة الملتفة بأشجار الجوز القصيرة، الدانية من الأرض، انتشلت كتابي من المياه، بعد أن عاد كما كان كتابًا عاديًا قديمًا، ربما لا يلفت إليه إلا أنظار هؤلاء المغرمين بحقب الأزمان الغابرة، وظللت أفكر فيما سمعته، ورغم أنه لم يبد إلا واقعًا علميًا ربما سمعته، وقرأته آلاف المرات، إلا أنه جعلني أعيد التفكير مرة أخرى في تلك المعجزة التي انشطرت عنها كل الحقائق الغائبة، لكن أخذتني شهيَّتي إلى ثمار الجوز فرُحت أقطف منها، حبَّة ضخمة، وانهلت عليها بحجر حتى انفلقت، فشربت من عصيرها الذي يشبه في مذاقه مذاق النساء، ثم أكلت من الثمار حتى شبعت شبعًا اشتقت إليه منذ زمن طويل، مشيت أحمل كتابي حيث لا أحد، سوى أشجار قائمة تقاطعت بنظام غريب، فبدت أوراقها كعشاق يقيمون

حفلاً للتزاوج اللطيف، رفعت رأسي إلى أعلى، فرأيت ثمار الجوز وقد نُحتت عليها رموز متتالية من المخطوطة، فتلك الشجرة تحمل حقيقة "بناء الأهرام"، وتلك الشجرة تحمل بين ثمارها حقيقة مقتل "جون كندي"، وتلك تحمل حقيقة "الكتاب المقدس"، وهذه تحمل حقيقة "مثلث برمودا"، والشجرة المائلة هناك تحمل حقيقة"وحش بحيرة لوكنس"، أما تلك فتحمل حقيقية "نهاية هتلر"، والشجرة هذه التي بجواري تحمل حقيقة "وحش الثلج"، أما الشجرة التي تنتصب أمامي فتحمل حقيقة "هيكل سليمان"، وتلك، وتلك، وتلك "التي تحمل لغز الحياة والموت" إنها حقائق العالم قد اجتمعت بين ثمار الجوز على جزيرة نائية انبثقت من صحراء الرمال، جمعت الحجارة من كل مكان بعد أن حاولت جاهدًا أن أصعد الأشجار الملساء، وأخذت أقذف الثمار، وأحطمها واحدة تلو الأخرى، لكنها كانت خاوية، فبزغت ثمار أخرى مكانها تحمل الحقائق ذاتها التي أصبتها حجارتي، فأدركت أنها لن تتكشف أبدًا إلا لمن جاء يبحث عنها، أما حقيقتي التي أتيت من أجلها فليست هنا، لكن ربما قذفني صاحب الحكاية على سطح تلك الجزيرة فقط ليطمئن قلبي بأن لكل لغز صاحبه الذي سيأتي للعالم كله بلحظة الإنكشاف، الآن أيقنت أن آثارنا الغريبة على تلك الأرض لا

يمكن أن تنتهي حتى نصل إلى الحقيقة الكاملة.

دارت بي الجزيرة حول نفسها، مرة تلو الأخرى حتى تبدلت كل الأماكن، كل الحقائق، والأشجار، والثمار، وتشعبت طرق أخرى تملأ الأرض، اقتربت منها، فتشعبت إلى طريقات أصغر فأصغر، ابتعدت قليلاً فاندمجت حتى صارت جسرًا ممتدًا بين ظل، ونور، جديد، وقديم، عذب ومالح، حياة، وموت، حار، وبارد، حقيقة، ووهم، جمال، وقبح، حب، وكره، سعادة، وحزن، خير وشر، إنها التناقضات التي تسكننا فنظل طوال حياتنا نعبر منها إليها، فنشعر أحيانًا برضا، وأحايين أخرى برغبة في الموت، أو الانتحار، ثم إذا قررنا ذلك عدلنا عن الفكرة سريعًا، وعدنا نواصل العبور مرة أخرى، حتى تتخلى التناقضات عن ثنائيتها، وتبقى معلقة في اتجاه واحد فقط، فإما نور يملأ الدنيا، وإما ظلام يواري من اختار العيش فيه، فلا تبقى له ذكرى تُحكى ولا أثر يُرى، فيعبر إلى الجانب الآخر كأنه لم يعبر، ويعود كأنما لم يعد، ويسقط دون أن يشعر أحد بغيابه، لذلك لابد وأن أعبر إلى الجانب الآخر وألف يد تقدُّ قميصي لتبقيني، حتى أصل إلى هناك وألف يد تمتد إليّ تستقبلني، هكذا يعيش من كتب عليه أن يغير وجه العالم.

نفذت إلى الجانب الآخر من الجزيرة، بعدما ودعت أشجار الجوز

الملساء، فاستقبلتني صحراء قاحلة بيضاء مليئة بالنباتات الشائكة، وبعض من ثمار الجوز الجافة التي قذفتها الرياح، فتناثرت كرؤوس آدمية دفنت أجسادها في الرمال، قلبت نظري هنا، وهناك علَّني أجد ما يأخذني معه إلى حيث يجب أن أكون، لكنني لم أصطدم بأي شيء، فسرت على الأرض البيضاء حاملاً كتابي دون أن أترك خلفي أثرًا واحدًا، وكأنني طيف عابر، كانت الأرض ناصعة كالملح، وناعمة كالثلج، ومائعة كاللبن، وساخنة كرتق الفرن، لكنها لم تكن مؤلمة، فأخذتني معها، أو سارت معي، حتى انتهيت أمام البحر بأمواجه المتلاطمة الهوجاء، مددت بصري حتى اعترضني خط النهاية، فجلست أفترش الشاطئ، أراقب أسراب النوارس المهاجرة، فالبحر هو المكافأة الكبرى التي يرسلها الله لمن ضاق صدره لهثًا خلف الحقيقة، أمعنت في النظر لكل الوجوه التي عرفتها، والتي أخذت تنعكس تباعًا على صفحة الماء المضطربة، حتى جاءني وجه واحد لم يسبق لي أن رأيته، كان وجهًا شاحبًا، تقاطعت فوقه خطوط سوداء تركها الزمن، لكنه ظل مبتسمًا، ابتسمت له، فغاص في القاع، ثم قفز يحمل فوق رأسه كتابي، لكن كتابي كان لايزال في يدي، فأخذته بقوة، وضممته إلى صدري، ثم فتحته فرأيت الحقائق تتلوى داخله وكأنها ماء تحركه الرياح،

فأخذت أقرأ منه، وأتمتم، وألتهم السطور، وأحفظها في صدري، لكن يدًا كانت تمتد إلى كتفي وتربت عليه من الخلف، فالتفت، فإذا بناقتي تقف تضرب بقدميها الأرض، وتأكل من خشاشها، فابتهجت لوجودها، أرخت قوائمها كي أمتطيها وأكمل رحلتي، لكنها اتجهت ناحية البحر تمخر في الماء، وتصارع الأمواج، وأنا من فوقها أجلس القرفصاء، وأتفرج على العالم الأزرق الذي اجتمع حولي بكل شخوص الحكاية، الكل يغرق أما أنا فأطفو كقطعة فلين مغرورة، توقفت الناقة، انتفضت، تمزقت، حتى صارت جبلاً صخريًا شاهقًا خرج من باطن البحر، رفعت يدي لأعلى فاختفت في السماء، ثم عادت إليّ بيضاء من غير سوء، فأيقنت أنه الوعد الإلهي العظيم، فالرزق معلق ها هنا، يهبه الله لمن يشاء، والحقيقة التي جئنا نبحث عنها كما الرزق لا تنقطع أبدًا، حملت كتابي لأعلى فتلقفته أيادٍ من نور، وسمعت صوتًا يقرأ عليّ في خشوع:

أنت أيها الإنسان حقيقتك فيك وما تبصر، وحقيقتك منك وما تشعر، تزعم أنك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر، وأنت بعد هذه الحياة القصيرة تظن أنك خالد لا تبيد، تحيا، وتنشر الفساد، فتموت إن شئت على الخير، أو السوء، فتُبعث وتُحشر، وتستأنف حياة الكرامة في دار النعيم والمقامة، إن كنت أدركت سر مهمتك في الوجود،

فأخلص العمل للملك المعبود، وما هذا الجسم إلا قفصًا أنت فيه من المسجونين، وثوب تخلعه إلى حين، ثم يعود لك يوم الحساب، فامض في طريقك حيث تجد جنان الدنيا هناك حيث تنتهي الأرض عند المحيط، إلى المحيط".

عادت بي الناقة سريعًا إلى الشاطيء، حيث تبتعد السماء، وتطوف النوارس، فجلست منهكًا تحت ظل شجرة، أحاول أن أستوعب ما سمعته، وما لمسته بيدي، لكن لا وقت لدي للتوقف أمام أحداث الحكاية، فكل الأفعال لا بدَّ وأن تمضي كما يجب أن تنتهي، الآن يجب أن أبحث من حولي عن طريق طويل يختصر رحلتي، ويهديني إلى ما جئت من أجله قبل أن تعبر تسقط حبة الرمل الأخيرة إلى الجانب الآخر، وينتهي كل شيء قبل أن أصل إليه، وتصبح الحقيقة شيئًا عاديًا جدًا، لا يلتفت إليه العالم، فقد منحني هؤلاء كل مقومات الوصول، لذلك يجب ألا أخذلهم، فربما هناك من ينتظر ما سآتي به كي يحيا من موت محقق، أو يشفى من مرض عضال، فالحقيقة التي لا تغير ما بقوم هي كثمرة جوز فارغة، سقطت من فوق شجرة عاقر.

اجتمعت مجموعة من الفتيات شبه العاريات يغتسلن بدلال من عين ماء على بعد خطوات مني، فأشحت بنظري عنهن، فلما اكتشفن وجودي،

اختفين جميعهن في الهواء إلا فتاة واحدة، ظلت تقترب مني بخطوات حثيثة، فواريت عينيّ بكفيّ خجلاً، لكنها جلست أمامي، وأزاحت كفيّ ببطء شديد، فأبصرتها وقد اكتسى جسدها بغطاء لامع يشبه أصداف البحر، أمعنت في النظر لوجهها المتموج بالسمار المُخَضّب بحمرة الطبيعة، فابتسمت، ثم قالت بلهجة بربرية سريعة:

-أتيت من رحلة طويلة، وآن لك أن ترتاح.

- لا وقت لدي للراحة فالوقت لا يرحم مثلي.

- ثق أن في حضرة الجمال يتوقف الزمن.

-رحلتي لم أبتغ منها متعة أبدًا.

-إن الحقائق تحتاج إلى القليل من المداعبة يا رجل.

-بل الحقائق لا تنتظر من يداعب فتيات الطريق.

- نحن حقيقة إن عشتها لن ترحل عنها أبدًا.

- لذلك لن أستجيب إلا لمتعة الطعام والشراب.

-فتاة في يدك خير من ألف حقيقة على الشجرة.

ضحكتُ كثيرًا، فما قالته يستوجب الضحك، ثم سرت معها على حافة

الماء، أستمع إلى حكايا قومها الذين يسكنون الأعماق حينًا، وإلى غنائها الشجي حينًا آخر، حتى انتهى بنا الشاطيء عند سلسلة جبال قرمزية رائعة تضربها الأمواج، للحظات ثم تتركها لتستلقي عليها أشعة الشمس، حتى بدت كمسرح حجري كبير، قفزت فوقه الفتاة سريعًا، وانحنت تُحيي جمهورها المفترض يمينًا، ويسارًا، وأخذت تغني، وترقص حافية القدمين، رقصًا غجريًا مثيرًا، تقاطع مع هدير الأمواج المتكسرة تحت قدميها، فتظاهرت بعدم اكتراثي بما تفعله، لكنها ظلت تسحبني إليها رغمًا عني، تبعثر بعضي، وبعضي، فاح الصوت من بين شفتيها كما العطر، قاومت وجهها الثمل بالجمال، تراجعت، ارتعشت أوصالي، فسالت أنوثتها سحرًا على الصخور، غنج ودلال، وتوابل تنكش براكين الجنون، أفلتتني من بين يديها، فنظرتُ إلى جسدها الإنسيابي في ذهول بينما تحولت قدميها إلى زعنفة كبيرة دفعتها إلى القفز في المياه، فأيقنت أن الغواية عندما ندير لها ظهورنا تتحول إلى أفعال جميلة، تعود بها إلى سيرتها الأولى، أما إذا انصعنا إليها نتحول معها إلى أقبح حقيقة في الوجود، فدماء العاشقين التي تمر في العروق هي سيل من عقيق طاهر مزجه الله بالحب فإن فاضت أنبتت ألوانًا من الجنة وبقي جرحها بابًا يعبر منه المحبون إلى مدائن الفضيلة، لذلك

كان يجب ألا أفقد فضيلتي أبدًا .

نظرت إلى فقاقيع الماء المتتابعة التي خلفتها وراءها قبل أن تختفي تمامًا في القاع، وشعرت للمرة الأولى بوحشة قاسية، فما أحوجني الآن إلى رفيق يحدثني فأسمعه، وأحدثه فيسمعني، فتلك الصحراء القاحلة صارت لي وحدي، ولا شيء آخر سوى السماء، والرمال، والجبال، وحداء القوافل الذي يأتيني من بعيد كلما أصغيت السمع للفراغ، ففتحت كتابي للحظات، ثم طويته في بطء، وسألت من يقف بعيد يراقبني في صمت دون أن أراه، عن كل هذا الذي يضعه في طريقي كي أراه، بعد أن تشابكت الأحلام بواقعي الذي انحدر من رأسي ككرة وَبَرِية تلتقط الحابل، والنابل، حتى أصبحت كل الأحداث كخيوط متداخلة لا تلتقي، فبتُّ لا أفهم، ولا أعي، ولا أصدق ما أنا فاعله، صرخت بأعلى صوتي علَّه يسمعني، لكن ضاع صوتي، وشعرت بضآلتي التي بِتُّ أمقتها، فلا عودة مُجدية، ولا طرقًا تُضيء، أو تنتهي، فقط أسير نحو الماء كحجر تدحرج من فوق جبل لا شيء يعترضه، سوى شظايا تتطاير من حوله، يتفرج عليها، ويتمنى أن تصدمه إحداها، فيتفتت، ويُساير قوانين الطبيعة؛ سماء تنادينا دائمًا، وأرض تجذبنا، نحوها بقوة، حتى ننصاع إليها فنتلاشى ونصبح ترابًا تحملنا الرياح، ويسقطنا المطر، فأعود

معه من حيث أتيت، ما أروعها من حقيقة، من فَطِنَها عاش مرتاحًا، ومات محتفظًا بعقله، أما أنا فمجنونٌ كبير ألقته الأوراق البالية في دُرُوب تُشْبه الوهم، لا يسير فيها إلا من جاء يحمل فوق رأسه كتابًا، ويمسك في يده حقيبة سوداء، ويمتطي ناقة أهداها له رجل طارقي، قفز فجأة في عقر حكايته التي غزل بدايتها بنفسه، وترك النهاية لصاحب التوقيع الأخير، يطبع عليها قبلته، ويضعها جوار جدار كاد أن ينهار، وعليّ أن أصل قبل أن ينقضي كل شيء، وتصبح حكايتي كلها في عِداد العدم، وكأنني فأر صغير، ألقوه في متاهة وضعوا في نهايتها قطعة جبن، على سبيل المكافأة.

وطأت الأرض الحجرية الصلبة أنازع وقع الأقدام المتتابعة التي أتت تزاحم دقاتي ولا وجود لأصحابها، لكنني ألفتها، بعدما بقيت آثار وقع أقدامي راسية في أماكنها كلما غادرتها، فتلك الصخور الوفية لا تنسى أبدًا من يطأها، فتجتمع كل الخطى في تناغم غريب، وكأنها سيمفونية عشق تحمل لحنًا خالدًا لا يزول إلا بالموت، توقفت الدقات فجأة وبقي صوت العكاز الذي جاء يتكئ عليه رجل يسعى من أقصى الشمال متدثرًا ببُردة بالية، وغطاء للرأس أحنى داخله رأسه فأخفى ملامحه، توقف أمامي في وَجَل، فتراجعت بخطواتي للخلف، ليس

خوفًا هذا الذي أجبرني على التقهقر، ولكنها المهابة من اللغز الذي تنطوي عليه مآرب القادم الغريب، لملمت جأشي وتسمَّرت في الأرض لأقرأ الرسالة التي بانت من عنوانها الغامض، أشار للصخور بعصاه فعادت تعج دقاتها بقوة، ثم مر جواري غير عابئ بوجودي، لكنه التفتَ إليّ يأمرني أن أتبعه إلى حيث ينمو العشب خلف الجبل المنتصب في قلب الصحراء، وهناك كنا قد وصلنا سريعًا وكأنما الأحداث كلها أصبحت في عِداد الماضي في التوّ واللحظة، حتى أنني لم أشعر متى أتيت إلى هنا، فبصري لم يرتد بعد، لأحصي الوقت المرسوم على جبين الطريق الممتد نحو تلك الغابة الشاسعة، لم يتحدث الرجل سوى بكلمات معدودة، أو أنه لم ينطق أبدًا بكلمة واحدة، جثى على ركبتيه، مسندًا عكازه على صخرة نتأت جواره، ثم أخذ في خلع بعض الأعشاب من جذورها، دسَّها في خُرجه القماشي، ثم نثر عليها بعضًا من الغبار، التفت إليّ وأمرني أن أفعل مثلما فعل هو، فانْصعْت للأمر، لكنني قبل أن أبدأ في عملي، قبض على يديّ بكلتا يديه قائلاً:

- دع عيدانك تنمو بين كفيك قبل أن تقتلعها.

- لكنها ستموت إذا خرجت من أرضها.

- اجعل من الموت حياة يا فتى.

- الموت هو الموت يا رجل.

- إذًا فستموت الحقيقة بين يديك قبل أن تُولد.

- علِّمني كيف تكون الحياة.

- كن دائمًا الأقوى وستصل إلى مُبتغاك.

مددت يدي وبدأت في اقتلاع العيدان، فظلت تزهر وكأن الربيع جاء يتربع بين كفيّ، سعدت كثيرًا بهذا الذي جنيته، وأثمر، فاقتلعت المزيد والمزيد وأتخمت حقيبتي ثم نثرت على العيدان التراب، ناولني الرجل عصاه، وامتطى الناقة، فرحت أتبعه بخطوات تنساب كما الماء المنحدر من عَليٍّ، تجذبني رغبتي، ويشدني وَلَهِي لمعرفة المقبل المغمور بين طيَّات المجهول، فراح يصدح، وينادي على الحياة، ثم ينوح على أهل القبور ممن أرداهم المرض بين طبقات الأرض، فعجزت زيوت أعشابه عن علاجهم، حتى نبتت من فوقهم شجيرات من صبار، تطعن بأشواكها قلوب الأحياء، لتنذرهم بأن مالهم اليوم، سيكون عليهم غدًا، وما أتعس الألم إذا ما أصاب قلبًا مريضًا، أما إذا قصد قلوب الطيبين؛ فنجاة.

حط بقدميه أمام النهر، غسل أعشابه في الماء الجاري، وأخذ يعصرها في قارورة صغيرة دواءً يشفي السقيم بمقدار، وقدر، هكذا قال الرجل حينما بادرته بالسؤال، لكنه نصحني أن أتعلم صنع دوائي من أعشابي، فكل إنسان أدرى بدائه، وبدوائه، صمت قليلاً ثم تحدثت:

-لست مريضًا سيدي.

ابتسم لي ساخرًا، ثم ألقى بقارورته في النهر، فانفجر الماء بألوان الدنيا السبعة، فمرت الأحداث من أمامي كومضة سريعة، ثم عاد كل شيء كما كان، سماء صافية، وزهور زاهية، ونهر جارٍ، فأمعنت في النظر لوجهه الذي توسطه الظل، فرأيت عالمًا يسبح بين عينيه، فيه الكثير والكثير من الحقائق والبشر، لكنني لم أر نفسي بينهم، فاقترب مني قائلاً:

-المرض الذي يصادقك لا تشعره، لكنه حتمًا سيقتلك.

-وكيف أصنع له دواءً وأنا أجهله؟

ناولني قارورة صغيرة من زيت داكن، ثم أردف قائلاً:

-في تلك القارورة يكمن دواء كل شيء، انثره على أعشابك، واطحنها على وضوء بحجر يسبح باسم الله، ثم صب عليها من دموعك ما يكفيك

من البكاء، واتركها فوق هذا الجبل سبع ليال يكتمل فيهن القمر، ثم انتظر حتى تمطر السماء، خذ الخليط وصب عليه من مهجتك قطرتين، وهنا ستندفع كل أسقامك من جسدك كما هذا النهر الذي ينبع من قلوب الآملين، وعندما تشعر بأنك تشتهي كل النعم، اقترب من الناس واحمل عنهم الآلام، كن حكيمًا بفضائل الدواء، وإياك أن تظن أنك أنت الشافي، وإياك أن تنسى أن الدواء يفسد لو طال قلبك مرض، أو موت.

أخذت بما نصح، بعدما ترك لي عكَّازه ورحل، مرت الأحداث سريعًا، تتابعت، توالت في نظام عجيب حتى انتهيت من الخليط في الليلة السابعة، فوضعت زيت أعشابي ممتزجًا بدموعي، ودمائي في القارورة، ونزلت إلى الوادي أجمع من أخبار القرى، وأنادي على العليل لينْهَمَ من دوائي فيُشفى بإذن الله، لكن لا مجيب، فظلوا ينظرون إليّ بأعين يائسة، غير عابئين بدوائي، فتلك القرى دائمًا ما تسكنها دمعة طفل لا تجف، وصرخة امرأة ننتفض لها منذ الأمد ولا تنتهي، فالمرضى هنا أصحاء يموتون من دون أن يصيبهم مرض، فقط يسقطون كحبات البرد، ويختلطون بالتراب، ثم يصبحون لاشيء مع طلوع الشمس، إذًا فلا حاجة لهم للشفاء من مرض لا يعلمونه، ولا قيمة للدواء طالما أنه لا ينقذهم من الموت، فنثرت عليهم من غبار أعشابي، ورفعت العكاز

عاليًا فانهمر المطر، غسل الأرض، والناس، والحجر، فوقفت أتفرَّج عليهم من بعيد وهم يركضون بأرجلهم في حلقات الماء، فكانت لهم مغتسلاً باردًا، وشرابًا، فليس كل الدواء يصلح لكل ذي داء، فعيسى النبي نزل في قومه يُحيي الموتى، ويبرئ الأبرص، والأكمه، والأعمى، بإذن الله، صاحب الأمر، لكنهم تجبروا، وأغشتهم أبصارهم، فظنوا أنهم قتلوه مصلوبًا، فظلت قلوبهم يسكنها المرض، فالمرض الذي لا يجعل منك إنسانًا آخر هو شيطان، والدواء الذي لا يشفي قلبك هو سم يقتلك، ويقتل فيك كل من حولك.

كانت الناقة تسير على غير هُدى بين الدهاليز المحدبة، حتى انتهى بها المسير في قلب قرية خاوية إلا من أكواخٍ متناثرة نسجت من قش، وجص، وصوت الأنين الذي يلفّ الفراغ، خرج منها الأطفال تباعًا حفاة عراة، تضمخ من أفواههم رائحة الموت، فتقدم طفل من بينهم، توقف أمامي، ثم مدَّ لي يده كاشفًا عن كسرة خبز بين أصابعه المتجعدة، فرددتها عليه، احمرّ وجهه خجلاً، فصببت من قارورتي في يده قطرتين، حدق في وجهي قائلاً:

- ستتمنى مني كسرة خبز يومًا ما.

-لست في حاجة للخبز يا صغيري.

-وأنا لست بحاجة إلى دوائك.

-لكن المرض يسكنك.

-كلنا مرضى سيدي الحكيم.

-ستموتون جميعكم اليوم، أو غدًا.

-الدواء لا يمنع قدرًا.

-أعطني خبزك، وخذ دوائي.

-خبزنا لا نمنحه لمحتاج سيدي.

أخذ القارورة من يدي، وردّ إليها ما وضعته وسط راحته الصغيرة، فعاد الخليط كما هو من دون نقصان، حصرها بين أصبعيه ورفعها لأعلى لتتقاطع مع أشعة الشمس، ثم ألقاها إليّ، فتلقفتها دون أن أنبس بنبت شفة، وبعد لحظات من النظرات الطويلة المتبادلة، أومأ برأسه إلى رفاقه من الأطفال، فتتباعت خطواتهم الحثيثة نحو الأكواخ التي فيها يسكنون، ثم انسحب مبتسمًا معلقًا بصره ببصري حتى اختفى تمامًا وكأنه لم يكن.

قبضت على القنينة بيدي، ورحلت في هـدوء وفي قلبي شيء أشبه بالخنجر المسنون، لم أشعر بإجهاد قط، أو بتعب من أي نوع طوال رحلتي، بل كان قلبي هو ما يؤلمني دائمًا بهذا الشعور الذي يهاجمني كلما أنهيت مشهدًا غير مفهوم، وقفت على بابه الأخير كالأبله أنظر لكل الأحـداث خلفي علَّني أصل إلـى ما يسد تلك الفُـرج المفتوحة من حولي، لكن لا شيء ينتهي إلا بالحقيقة بعد أن أزيل عنها الغبار الذي تراكم عليها منذ آلاف السنين، فتحت قنينة الدواء وتجرعتها عن آخرها فبعدما عافتها قبائل المرضى فليس لها إلا أنا الآن، فأنا المريض الذي لا داء له، وأنا الصحيح الذي لا يُفيد مع آلامه نكران، دارت بي الجبال والسموات، والأرضين معًا، فحلق الطير يشتهي جسدي بعد مماته، فتجمدت دمائي التي أرضعتني أمي إياها، وبتُّ بلا حياة تدبُّ في وجداني، فهدني ألمي الذي صرخت بأوجاعه يوم ميلادي، وتجردت من حياة تبعث في النفس حياة، فياليتني كنت ترابًا، ياليتني كنت حجرًا سقط من جبل إلى قبر شقائي.

استيقظت من موتي الطويل فكانت تقف خلف النافذة الزجاجية تتابع ندف الثلج المتساقطة في الخارج، فغزا جسدي شعور بالبرودة، مددت ناظريّ نحو المدفأة المشتعلة، جذبت منها بعضًا من حبيبات الدفء،

اكتمل رسم اللوحة في الخارج، بقي منها بعض من الرتوش، نقحته لوزات الجليد في تتابع، كرة من أعشاب برية دحرجتها الرياح من أعلى الهضبة، أضافت شكلاً جديدًا إلى اللوحة، نغمات البيانو تصاعدت، بمقطوعة 'البجعات' من موسيقى 'تشايكوفسكي'، التفتت نحوي فبان لي وجهها الجميل الذي تتوسطه عينان زرقاوان ينعس فيهما لون الغدير، ثم قالت في هدوء:

-أنت هنا في مأمن من أوجاعك سيدي.

- من أنت بحق الله؟

-لا تسأل كثيرًا فتأتي الإجابات بما لا يسرك.

-لا وقت لدي. فيجب أن أصل قبل فوات الأوان.

-هنا يتجمد الزمن سيدي.

فتحتْ خزانة ملابسها وأخرجت منها عكاز الحكيم، وحقيبتي السوداء، وناولتني إياها، وأردفت قائلة:

-كل شيء على ما يرام، فقط عليك أن تنعم بوقتك هنا.

-هل فقدت الصحراء سيدتي؟

- الحقائق دائمًا ما تكمن بين اللاحار واللابارد، واللاعذب، واللامالح سيدي.

لم تمنحني المزيد من الوقت لألقي إليها بتساؤلاتي، ورحلت بعد أن أوصدت خلفها الباب، تقطعت النغمات، ثم سكنت، فنهضت من فراشي لألقي بنظرة على المشهد في الخارج، فرأيت ناقتي تقف وسط الصحراء في انتظاري، عدت إلى الغرفة فطال جسدي برد شديد، وعادت ندف الثلج في التساقط من جديد، فأسرعت إلى المدفأة الحجرية أستجدي منها الدفء، بينما وقعت عيني على البورتريه المعلق على الجدار أعلى السرير المعدني، حيث كان يجلس المحارب في آخر اللوحة التي كساها البياض يمد بصره نحو الأمواج المتلاطمة في المحيط، غير عابئ بالفتى الشارد الذي يقف جواره متأبطًا كتابه، وممسكًا بلجام خاوٍ، أما على الجانبين فكانت ظلال متداخلة مع ضوء شمس لا وجود لها، ومعالم أخرى غير واضحة تبدو كرؤوس غير مكتملة لبشر ضاعت ملامحهم وسط غيوم الشتاء، فاقتربت من الجدار، وأخذت أتحسس الخطوط الزيتية الشفافة، فدبَّت في اللوحة الحياة، وصارت تتحرك حركات عشوائية أشبه بحربٍ اختلط فيها الأعداء، والأولياء لكن خلت نهايتها من الموت، وقف الفتى يصيح بأعلى صوته

في وجوههم جميعًا، فانفجر المحيط يمزج كل شيء، وبانت الحقيقة التي من أجلها وُضعت كل النهايات، رفعت يدي عن اللوحة فعادت الألوان كلها إلى سيرتها الأولى.

عدتُّ إلى فراشي، وعادت مقطوعة "البجعات" تملأ المكان بموسيقاها الكلاسيكية الهادئة، وصرت مخلوقًا وديعًا يطرح تساؤلات كثيرة، ولا ينتظر الإجابة، فقط يريد أن تنتهي الحكاية في وقتها المحدد، فيلقي بحمله الثقيل ويستريح، لكن الباحثين عن الحقائق متى استراحوا تنهار كل البديات، ويسّبَح العالم كله نحو نهاية النهاية، فتتلاشى كل الأحداث، ويتحطم اللوح الكبير الذي يحمل مصائرنا، فيفقد الماضي خيط المستقبل، ويفقد المستقبل خيط الحاضر، وتصبح كل الجمادات هلامية ينفذ منها ذباب الأرض، لذلك فنحن من خلقنا الله لنمنح كل الأشياء خواصها، ونضفي على الأسماء كلها معانيها.

لقد منحني صاحب الحكاية الكثير والكثير، فبتُّ أدين له بالجميل، بعد أن علمني كيف أفض ختام الرسائل المغلقة، وكيف أبدأ حكايتي، وكيف أسلك الطريق، كما استبدل بصري بالبصيرة، وخوفي باليقين، ودمائي بإكسير الحياة، وقلبي ببذرة صغيرة تنمو في قلوب الأحياء، وعقلي بحجر لين لا ينبهر بالأساطير، لذلك يجب أن أمنحه أنا النهاية

التي يرتضيها، كما جاءت في الكتاب، كم أتمنى أن أصل للنهاية كما جاءت في الكتاب.

ركلت امرأة خمسينية باب الغرفة، أدارت وجهها تشق أجواء المكان، نظرت إليّ نظرات ثاقبة، اتجهت صوب النافذة الزجاجية، أخذت تقلب بصرها يمينًا فيسارًا، صهرت بعضًا من لوزات الجليد المتساقطة، كرة الأعشاب البرية اقتربت من أطراف اللوحة، اتضحت ملامحها الممتزجة بذرات الجليد، تباعدت اللوحة بالشخص القادم، يمتطي زحافات للتزلج، مخلفًا وراءه خطين من السواد، لوزات الجليد قامت بدورها من التلوين والتنقيح، مع انكشاف المعالم بدا ساعي البريد بمعطفه المخملي وجعبته المنتفخة بالرسائل، لحظات من التصفح بوجه الأرض وترقب للقادم ثم اختفاء في النفس تبعته دقات على باب الغرفة الحبيسة.

- مَن؟

- الخادمة: رسالة يا سيدتي

- ادخلي ودعيها على المنضدة.

فتحت الخادمة الباب في هدوء، دلفت الحجرة، ووضعت الرسالة كما

أمرتها.

- الخادمة: تأمرين بشيء آخر سيدتي؟

- اخرجي ولا تأخذي معك حفنات من الهواء الدافئ.

نظرت الخادمة نحو النافذة الزجاجية بتراجع للوراء، جذبت الباب وغابت مع وجهه الآخر، اقتربت السيدة من المنضدة، أمسكت بالرسالة، تفحصتها بعناية، ثم التفتت نحوي قائلة بلهجة حادة:

- الرسالة تخصك، لا تفتحها إلا بعد خروجك من هنا.

- لا أعلم كيف أتيتُ إلى هنا، كما لا أعلم متى سأرحل؟.

- عندما تشعر أنك في حاجة إلى المغادرة. ارحل فورًا.

ناولتني الرسالة، ثم استدعت الفتاة ذات العينين الزرقاوين التي استقبلتني للمرة الأولى في هذا العالم الثلجي الغريب، وأمرتها أن تقدم لي الطعام، والشراب، وأن تحكي لي بعضًا من قصصهم، ثم تتركني وتطفيء الأنوار، وتغادر الغرفة، فغابت الفتاة للحظات ثم عادت تدفع عربة طعام أرستقراطي فخم، وضع في أطباق أوروبية مذهبة، أما طاقم الشاي فكان يشير إلى العصور الوسطى، جلست جواري تطعمني

بيديها شطائر التوت الأزرق، ولحم البقر، مع شراب القيقب اللذيذ، ثم شردت بعيدًا وبدأت تحكي:

في ساحة منزلنا كان يقف رجل الثلج ينظر إلـيّ كل ليلة ويرسل لي قبلتين قبل أن أخلد إلى النوم، كانت قد نحتته جدتي منذ سنوات طوال، وأوهمتني أن هذا الرجل الذي ينتظر في الخارج هو أبي بعد أن كست جسده بمعطفه الأزرق، وغطت رأسه بقبعته الفرو السوداء، وألقت فوق رقبته شملته الصوفية الحمراء، فظللت أنظر إليه كل صباح من تلك النافذة، وأتساءل لماذا يقف أبي هكذا؟ لماذا لا يدخن الغليون ولا يشرب القهوة، ولا يأكل الطعام؟ حاولت أن ألمسه في غفلة من جدتي التي حرمت علىّ الإقتراب منه لأي سبب من الأسباب، لكنني صعقت حينما اكتشفت أنه يعاني من البرد، فأتيت له بالخشب وأشعلت النار من حوله كي يشعر بالدفء، لكن عندما أتى الصباح كان قد انصهر، لم يتبق منه سوى معطفه، وشملته الحمراء، أما قبعته فقد جرفتها الرياح بعيدًا، فأشارت إليها جدتي وأخبرتني بأن أبي قد رحل غاضبًا لأنه يكره النار، ووعدتني بأنها ستبني لي أبًا غيره في اليوم التالي، لكن عندما دخل الليل حكت لي قصة جندي خرج إلى الحرب، وترك فتاته الصغيرة في أحضان جدتها بعدما فقد زوجته تحت ركام الثلج هناك

أسفل الجبل الذي انهار عندما لامسته الشمس، فصار من يومها يكره النار، ويعشق الثلج الذي طوى جثمان حبيبته فكان أحن عليها من كل شمس، لكن الجندي الذي وقف على باب منزله يقبل ابنته، ورأس أمه قبل رحيله، لم يعد، فأقسمت لي جدتي وهي تمسح دموعها أنها لن تستبدله برجل آخر بعد اليوم، وعلىّ أن أعي جيدًا أن أبي قد مات، أو قُتل، أو ربما ضل طريقه إلينا وسط البياض، أنهت الفتاة قصتها، ثم تنهدت قائلة:

-إنها الحقائق المهملة سيدي.

-إنها أوجاع لا بدَّ وأن تنتهي.

-الموتى فقط هم من لا يشعرون بالألم.

نهضت من مكانها واتجهت صوب النافذة الزجاجية، ثم تساءلت:

-حينما نظرت من تلك النافذة رأيت ناقتك في انتظارك وسط الصحراء أليس كذلك؟

-نعم. رأيتها بالفعل.

- لكنني حينما أنظر منها أرى أبي يقف هناك بين تلال الثلج في

انتظاري.

صمتتْ للحظات، وبعين زائغة عادت تتحدث:

-كلٌ له حقيقته التي يبتغيها سيدي.

أسدلت الستار، وأطفأت الأنوار، فعم الظلام، وارتفع وقع أقدامها على الأرضية الخشبية في الخارج، لم أعد أرى أي شيء، أو أسمع أي شيء، فعدت للتفكير في أمر النافذة، فشعرت ببرد شديد غزا جسدي كله بعدما خمدت نار المدفأة وصارت رمادًا، فتمنيت لو أغادر هذا المكان، إلى مكان آخر، فأطبقت جفوني، وتحسست فراشي، فاصطدمت يدي بقنينة الدواء خاوية على الرمال، وشعرت بدفء يتسرب إليّ من كل ناحية، فعدت أفتح عيني فرأيت قرص الشمس يتوسط السماء، وناقتي تجلس جواري وسط الصحراء الشاسعة، فأيقنت الآن أننا نحن من نصنع الحقائق كما نصنع الداء، والدواء، فما أجملها حياة بعد موت، وما أروعه موت ينتهي بحياة، فإن جنة الله التي نرنو إليها، ونجاهد من أجلها أنفسنا هي عالم خالد من ذكريات جميلة مضت ولم تأت بعد، وأمنيات اكتملت وانقطعت، وأحلام تحققت ولم نحصل عليها، وخيال فاق طاقة الخيال، وألوان مبهجة رأيناها ولم نرها، ومذاقات

تلذذنا بها وافتقدناها، وروائح استنشقناها لا تُمل، وحفنات ماء إذا تجرعناها لا نظمأ بعدها قط، وشخوص، وحكايات نأنس بها بعد وحشة أرهقتنا في دنيا أشبه بقبر كبير، دُفنا فيه بعد ذنب.

عثرت على الرسالة التي سلمتها لي امرأة الثلج في حقيبتي السوداء، فتحتها سريعًا، فرأيت الرموز نفسها وقد بدت تحدثني بما تحمله لي من مصير خط لي مقدمًا" سر مع القافلة ولا تلتفت لنباح الكلاب"، ابتسمت لفحوى الرسالة الهزلي الذي أعادني إلى مثل قديم اعتدنا أن نطلقه خلال لحظات الفذلكة السياسية، التي يمارسها أحدهم، حينما يضع ساقًا فوق ساق، ويرتشف القهوة، ويجذب نفسًا عميقًا من سيجارته المحلية، ويأخذ يبرر، ويحلل، ويعترض، دون أن يعي أن القافلة تسير بالفعل دون أن تلتفت إليه أو تعبأ بوجوده، ونسي أن المثل في نصفه الأول يقصده هو، انتهت ابتسامتي حينما تبددت رموز الرسالة، وأصبحت قطعة الرقاع خاوية تمامًا إلا من بقعة صغيرة سوداء، ظلت تتلاشي رويدًا، رويدًا حتى اختفت، فأدركت أن صاحب الحكاية عاد يمارس هوايته المفضلة في الكر والفر، وعليّ أن أستعد جيدًا لرحلتي الجديدة.

(٩-القافلة الأخيرة)

عجبتُ منك ومنّـي**يا مُنْيَـةَ المُتَمَنّـِي

أدنيتَنـي منك حتّـى**ظننتُ أنّك أنّـي

كان لا بدَّ أن أقف قليلاً خارج الدائرة لأرى ما وصلت إليه من بعيد، بعد أن سحبني صاحب الحكاية إلى حيث يريد، وليس إلى ما أردته أنا، فقد جئت لاهثًا خلف حقيقة مبهمة لا أعلم كُنْهها، ولا شكلها، ولا هدف الوصول إليها، فاختلطت الطرق، وامتزجت الأحداث، وتكاثرت كل الشخوص من أضلع كل الشخوص التي عرفتها، فتركت نفسي لجرف الرمال يأخذني إلى حيث يحلو له علني أعثر على ضالتي، فالمخطوطة التي عثرت عليها بين أطلال المنزل القديم لم تكن بداية لحقيقة أردتها، ولم تكن النهاية التي أسعى إليها، بل هي مجرد مزقة رقاع

بالية لا تحمل بين رموزها أي شيء، بل خطها طفل عابث لتأخذني معها إلى أبعد مدى، وكتابي هذا ما هو سوى لعبة اخترعها أحدهم لتضعني في تلك الحيرة الجميلة، - أعلم ذلك جيدًا- لكن لا بدَّ وأن أكمل الرحلة حتى النهاية، فصندوق الدنيا الذي خالفت قواعده، وجلست وحيدًا على مقعده الرابع أشاهد نفسي كما نفسي، ما زال ينتظر عودتي لأرى كل الأشياء كما أرتضيها، وهذا الطفل الصغير التي أصطحبته أمه ليصلب آماله على باب"زويلة" ما زال ينتظر عودتي، و"الدكتور إمام" الذي أهداني هذا الكتاب الخاوي ما زال ينتظر عودتي، وابني "ياسين" الذي لم يكمل لعبته ما زال ينتظر عودي، وزوجتي "نهاد" التي منحتني مفتاح بيتنا مازالت تنتظر عودتي، وزوجتي مانو التي علقت في رقبتي مفتاح الحياة ماتزال في انتظاري، حتى أنا مازلت في انتظار عودتي منتصرًا بالحقيقة التي تشبه حقيقتنا جميعًا، لذلك كان يجب أن أعود سريعًا إلى مركز الدائرة لتحملني الدوائر الصغيرة برفق كدومات الماء إلى حيث أبتغي.

امتطيت ناقتي وسرت نحو القافلة التي لاحت معالمها من بعيد لأكمل اللعبة التي أجدتها، فتلقفني أحدهم وسار جواري يعرفني بنفسه ويعرفني بهم:

-أنا "إبراهيم" حامل الماء والسلاح.

-أنا "مازن" جئت باحثًا عن الحقيقة.

التفت إليّ مندهشًا، ثم أماط لثامه عن وجهه، فانكشفت ملامحه، فبدت مألوفة لنفسي، أعرفها جيدًا كما أعرف ملامحي التي أخبرتني بها مرآتي الأولى التي داومت على التحديق فيها في منزلنا القديم قبل أن أهشمها لأنني أيقنت أنها تخدعني، فبادلته ما فعله بإماطة لثامي عن وجههي، فابتسم قائلاً:

-هكذا تكون الحقيقة.

فردّ لثامه إلى وجهه، وأمرني أن أرد لثامي، ثم أشار إلى القافلة متحدثًا في شرود:

- إنهم قادمون من مناجم الملح النائية مضى شهر وهم يرتحلون على ستمائة جمل أعمارها لا تتجاوز العام محملة بأحمال الملح القيمة ومازال أمامهم أربعين يومًا ليصلوا إلى الأسواق.

- لكنهم يسيرون كأن على رؤوسهم الطير.

- إنها قدسية الصحراء والرزق يا صديقي.

- وكيف يلزمون الطريق من دون دليل؟

- أشعة الشمس تقتل أي إشارة على الحياة، والرياح الشرقية المتقدة تمحو أي أثر لأي درب، لا يتواجد هنا سوى الأجمة الشائكة وهي إشارة على قرب الساحل من هنا، العذاب انتهى الآن ويستطيعون تتبع الآثار التي تركتها القوافل سنة تلو الأخرى على مر القرون الماضية.

- حتمًا ستنتهي رحلتي معهم عند المحيط.

- ربما تنتهي رحلتك أنت، أما رحلتهم لا يمكن أن تنتهي أبدًا.

رافقني "إبراهيم" كما ظلي الذي فقدته منذ خرجت من القاهرة، فلم أذكر مرة أن رأيته ممدًا من أمامي، وعن يميني، ويساري، ومن خلفي على رمال تلك الصحراء الشاسعة، فقط أرى ظل كل الأشياء من حولي كما الصور القديمة الباهتة، أما أنا فقد تحولت إلى إنسان لا تصطدم به الشمس، ولا ترتد أشعتها منه إليها، تحولت إلى إنسان لا يراه إلا هؤلاء الذين أتى بهم صاحب الحكاية من أقصى الأرض ليعبروا إلى الجانب الآخر من هذا العالم، ويتركوني على شاطيء المحيط وجهًا لوجه مع حقيقتي، توقفت القافلة وأناخ التجار جمالهم عندما لاحت قلعة "تهودة" من بعيد بأبراجها العالية، قبض "إبراهيم"

على حفنة ملح وأخذ ينثرها في الهواء، فبانت أشباح واختفت سريعًا، فكبرّ التجار، وعلا رغاء الإبل، وانخفض نباح الكلاب، وظهرت "كاهنة جبال أوراس" بمعطفها الأسود المخملي، تحمل في يدها اليسرى رمحًا مكسورًا، تشير إليهم من بعيد وتأمرهم بأن يرحلوا سريعًا من هنا وإلا أرسلت إليهم جنودًا لم يروها، فأمسك "إبراهيم" بمعصمي قبل أن تهب عاصفة شديدة أثارت رمالاً سوداء، كشفت عن قبور قتلاها:

- بأمر الله، وبقوة سيدي "عقبة الفهري" اثبت يا فتى.

هكذا ردد "إبراهيم" قبل أن تختفي القافلة تمامًا، وبقيت أكياس الملح المتناثرة تحيط بنا، فتشبثت بيده، وفتحت كتابي سريعًا وأخذت أتمتم بحقائقه الناقصة، فاكتمل الرمح في يد "الكاهنة" التي كانت تقترب منا بوجهها الغاضب، تضرب الحصى الذي انهال علينا كالرصاص، لكن قوة ما كانت تطيح به بعيدًا عنا، أفلت "إبراهيم" يده من يدي، ثم أشار إلى طريق طويل قبل أن يغادر حلقة الملح، ويغادرني، وبصوت تقاطع مع أنفاسه اللاهثة قال:

-اسلك هذا الطريق، وإذا واجهك وحش في الصحراء، ضع عينك في عينه وابتسم، وارفع رأسك للسماء، ثم ارحل عنه كما يرحل الفرسان،

بصدر منتفخ، وهامة منتصبة، وقلب يقرع كما طبول الحرب، وامض في طريقك الممتد دون أن تلتفت للوراء، فالوحش لا تفترس إلا من يضل مسلكه، واعلم أن الوحوش التي نفر منها في الصحراء تحمل في قلوبها حبًا لا نعلمه، فقط نحن لا نرى منها سوى وجه ملفع بالشر الذي لولاه ما عرفت الحب.

أخذت أنادي عليه بكل قوة، لكنه كان قد تلقى الطعنة الأولى من رمح "الكاهنة"، وانتهى المشهد العظيم، حينما سقطت أول قطرة دماء تخضب الرمال، فضاقت الصحراء الشاسعة، وأصبحت كبؤرة سوداء لم أر منها سوى طريقي الذي انبسط أمامي كما النهر الحالي.

امتطيت ناقتي التي أهداني إياها القاضي الطارقي، وظللت أفكر في أمر "الكاهنة" التي ظنت أنها انتصرت على المسلمين بقتلها لـ"عقبة بن نافع" وجنوده الذين أوقفهم المحيط عن استكمال معاركهم، ونسيت أن تقتل الفكرة التي انتصرت على خدعتها التافهة، فالمسلمون يحاربون من أجل الله، أما هي فكانت تحارب من أجل هويتها التي أبقاها الإسلام كما هي، ولو علمت ذلك ما حملت رمحها أبدًا لتقتل، وتسفك الدماء، فـ"إبراهيم" قُتل وكأنه لم يُقتل، وعقبة وجنوده قُتلوا وكأنهم لم يُقتلوا، لكن تبقى الحقيقة التي يرسلها لنا الله من السماء

حتى أبد الدهر.

شعرت أن ناقة القاضي قد هرمت، رغم أنه لم يمض من رحلتي سوى أيام، أو شهور، أو ساعات قلائل، لا أعلم عددها تحديدًا، لكنني ما زلت أذكر وجهي جيدًا منذ أن رأيته آخر مرة منعكسًا على زجاج النافذة في فندق "غات"، تحسست خصلات شعري الذي تهدل على كتفيّ، وذقني التي لامس شعرها الطويل امتداد بصري، واندهشت! فكم لبثت هنا؟ وكم مضى من الأيام والوقت؟ لكنني اعتدت منذ أن خضت رحلتي ألا أسأل، فربما تكون الحكاية هي من فرضت علىّ هيئتي تلك، رجل ملثم، يشبه الفرسان، يمتطي ناقة صفراء، ويحمل كتابًا، وحقيبة سوداء متربة، فكل واحد لا بدَّ وأن يؤدي دوره على أكمل وجه، وإلا أهملته سطور الكتاب فيصبح كأن لم تلده أمه، فكتابي هذا لا يُكتب فيه إلا هؤلاء الذين شقوا لأنفسهم طرقًا طويلة تنتهي بحقائقهم التي غفل عنها سفهاء الدنيا، فإما أن نلحق بها وإما أن تذهب هباءً في ماء المحيط، الآن بعد أن فقدت الناقة قوتها حتى أنها لم تعد قادرة على حملي، كان يجب أن أرد لها الجميل وأحملها، وأسير حتى أصل إلى مبتغاي مهما كلفني ذلك، فالحقائق لا تخرج على جاحد أبدًا، ولا مذنب أبدًا.

رفضت الناقة أن أحملها، فانساب جسدها على الرمال كقطعة لحم نيئة، جلست جوارها، عانقتها بقوة، مسحت دموعها، لعقتْ دموعي، وما ظهر من وجهي، حاولت أن أرفع عوارضها، فلم تقدر على حمل جسدها، فعادت كما كانت، وضعت أمامها الطعام، فعافته، تحسست سنامها، فتجمدت صارت حجرًا، صارت جليدًا، صعدت الروح تودعني، وتعدني بالصعود، ماتت ناقتي، ماتت رفيقة الدرب، والسهل، والوعر، والصحراء، ماتت صديقتي كي تخلصني من ثقلها بعد أن صارت بمرضها عديمة الفائدة، لقد انتهت قبل أن ينتهي الطريق، وتركتني وحيدًا أحمل بعضي على بعضي، وأضع نفسي فوق نفسي، انحنيت على جثتها الهامدة وأجهشت في البكاء، واريتها الرمال، وغطيت قبرها بأعشاب خضراء، ونثرت فوقها آخر ما تبقى معي من مياه، لملمت أشيائي الصغيرة، ولم أشأ أن أشيح بوجهي عنها، فظللت معلقًا بصري بالوراء، وسرت على قدميّ أزيح الأرض من تحتي علنيّ أصل إلى حيث أريد، أو إلى حيث يريد.

الدرب طال .... فماذا بعد يا رجل؟

أأنت في الدرب أم ضلت بك السبلُ؟

ألم تزل سائرًا تمشي على وجل؟

في تلك الحياة "كما يمشي القطا الوجل"؟

أما تعبت من الدرب الطويل غدًا

عذابك المُر في أيامك الأُوَلُ

أما أكتفيت من الأوجاع تحملها؟

أما مللت السُرى يا أيها الرجلُ؟

بلى. مللت. ولكن إنه قدري

أيدفع القدر الماضي بي الملُ؟

أسير في درب آمالي أعللها

بالصبر لكن صبري سوف ينبزلُ (منقول)

ظلت الوحوش تدنو من خطواتي، تلاحقني أينما سرت، تحيط بي من كل جانب، ابتسم لها، تبتسم لي، تحرسني من الشر، ثم ترحل إلى حال سبيلها دون أن تمسني بأذى، فظللت أجمع السنتميترات حتى تصبح أمتارًا، تصبح أميالاً، والطريق طويل، طويل جدًا لا اعوجاج فيه، ممتعة حقًا تلك اللحظات التي تقترب من النهاية، أما النهاية فتعني الفناء،

تعني بداية أخرى للشقاء الأبدي، قلبي يخفق، يدق، يدق، يدق، يهدأ، يستقر بين ضلوعي، يثبت، ويمتليء باليقين، فأسير إلى حيث المنتهى، أغزل من شجوني فرحًا، ومن ذنوبي عطرًا، ومن ذكرياتي حقيقة قاطعة، أحبو نحو النور، نحو مهاو الشمس، أهوى الشقاء النبيل، وأبعد عن بدني ويلات الراحة، راض بنصيبي، ومستسلمًا لقدري، أناجي صاحب الحكاية، وأطلب منه المزيد، والمزيد بعد أن أدمنت اللعبة.

أمام الفراغ توقفت على حافة الأرض، أنظر إلى الحافة الأخرى واستجدي العبور، لكن الهوة السحيقة كانت تفتح لي فمها عن آخره، تخبرني بما أريد أن أسمعه، ولا أطيق سماعه، فعقبات الطريق دائمًا ما تضعنا أمام حقيقتنا وجهًا لوجه، كي نعلم مقدار أنفسنا جيدًا، لكننا دائمًا نسعى للعيش في أجساد ضخمة لا تتناسب مع أرواحنا الضئيلة، فنشعر أننا أكبر، وأكبر، وأكبر بكثير، فنقف عاجزين عن قهر الفراغ، ونظل كما نحن لا نحرك ساكنًا، ونضيع على أنفسنا فرص العبور من دون السقوط المريع الذي نصبح معه أشياء تافهة، تحتاج إلى المزيد لتكمل الفراغ فيستوي مع الأرض، أغمضت عيني، وتخليت عن بصري، عن واقعي، عن حواسي التي بها أتيت إلى الدنيا، وتساويت مع السماء، تساويت مع أنا، ودُست الفراغ، حملني كما شئت له أن يحملني، فكان

أحنى عليّ من قلب أمي، من قلب زوجتي، وابني، من قلوبكم جميعًا، عانقني، رفعني لأعلى، صرت سحابة، صرت دفقة هواء عليلة، صرت كما أتيت، لا أرى أثـرًا لبقع السواد التي تسكن قلب العالم، صرت بياضًا ناصعًا كراحة طفل، كأنملة نبي حملت إلينا حرفًا، وكلمة، عبرت إلى الجانب الآخر، وحطت أقدامي تطال الأرض، فانصاعت الأرض لخطواتي الجديدة، وكأنها تسير من تحتي، ولا أسير أنا عليها، تأخذني الرمال في اتجاهها، تحتفي بعبوري، وبالكائن الجديد الذي منحه الله خواص الأشياء كلها، ليشعر بكل الأشياء، وينجو بنفسه من حدائق الشوك العقيم، ليزرع زهرة بيضاء على قمة جبل جدب، ترتوي بخيرنا الذي ضيعناه بيننا وظننا أنه انتهى، وتنمو على وقع قصص الحب الذي استبدلناه بصرخات الشر، ونسينا أن بين حنايانا قلب يشعر، ويحب، يحب فقط ولا يكره أبدًا، فأبدًا نحب، ونحب أبدًا، وبالحب نحيا أبدًا، وإلى الأبد يبقى الحب فينا ولا يموت أبدًا، فبه نعبر الهوات السحيقة، وبه نصل إلى الانتصار الكبير، الذي ينتهي بابتسامة، ولحظة رضا تملأ الفراغات، وتسد فرج القلب المشرعة على عوالم أخرى لا تشبه التراكيب التي بها خلقنا، وعليها نموت، وما نحن إلا دفقة حب انسابت من بين يد باريها، فمنا من اختار أن يهبط إلى الأرض فصار الحب

ترابًا، ومنا من أبى السقوط فصار سموًا .. والسمو صار نورًا .. والنور صار ملاكًا.. والملاك صار عبدًا يحمل عرشًا، أو روحًا، أو كتابًا، يشرع صفحاته أمامي بالنور الذي فقدته كي أعود لأكمل رحلتي بعد أن امتزجت روحي بأرواح من سبقوني إلى هنا.

أسير على كف صاحب الحكاية، بين الخطوط المتقاطعة أرسم لنفسي مصيرًا، وقصة جديدة خالية من الكائنات، والناس، أجمع كل الخطوط وأعقدها، أنقض غزل الأشرار قبل أن يصير ثوبًا كبيرًا يكسونا، فنعيش في منأى من كل كاسٍ، أطوح بكأس النديم ليعود كما كان إلى مكان يحده فيشعر أنه بمكان، أنشد من شعر الأحبة أبيات، وأرنو إلى بيت، وأبيات، بُنيت من سعف النخيل الأول، فتطمئن جوانحي لكل وحش مقيم في فراشي، فليت من يحمل رسائلي يعلم أنني لم أعد في حاجة إلى حرف يخطه يحيرني، ويهيج أفكاري وأحراسي، فها أن العليم بكل خطوط الأكف قد أيقنت أن الحقائق لا تقوى على لقائي، لأني بروحي الندية بين الحجار غير عابيء بجفاف، أو بجوع، ولا أشتاق إلى رشفة حمقى من يد أتت تمتد إليّ بلا أمل، وبلا يقين، وبلا ماء، وأنفاس، فقرع الصحارى ليس بعبث، كما يظن المسافر المتناسي، وهجر المكان الأول لا يحتاج إلى سفر طويل، ولا زاد، ولا خرائط، ولا

قصائد تتغنى على أطلال الديار التي انطوت على ذكرى، وذنب مهمل لا ينتظر عقابي.

ظهرت الأصداف تلمع من حولي، تختلط بالرمال، وتنذر باقتراب المحيط، أما ثقوب الجرابيع الصغيرة فكانت تنتشر في كل مكان تمتليء باليرقات، وأوراق الأشجار الصفراء، وبعض اللمم، فبدا الطريق منقطًا بالحياة المؤجلة، لكن حياتي كلها أضحت رهن حبة الرمال الأخيرة التي ستسقط يومًا ما في الجانب الآخر لتنهي زمن الحكاية الطويلة التي أرهقتني، وأتت على كل ما في داخلي من منطق معقول، انحنيت أجمع الأصداف لأنهم من الأرض علامات الطريق التي طالما استجديتها لأخط حدودًا حول الاتجاهات الأربعة، فأعلم أين تكمن الأماكن، ومن أين تبدأ الأزمان المبهمة، ولتكون النهاية شاهدة علىّ أنني لم آت إليها صفر اليدين، حملت حقيبتي على كتفي بعد أن علقتها في عكاز الحكيم، وأخذت أتأمل التعاريج الممدة أمامي كبقايا القهوة بعد نفادها من فنجان تركه صاحبه على الطاولة فغفل عنه النادل حتى مات جواره دون أن يعلم أحد عن أخبارهما شيئًا، لكن خطًا ظل يرقص أمامي ويتشعب كشرايين، يشق رتق الأرض، ويحفر نقشًا غوغائيًا كالوشم المريع، لقد عادت الألغاز تخرج من

رحم الدليل، تغلق شقوق الجرابيع، وتُطفيء نور الأصداف، وتستوي على الرمال، حتى صارت كل الرمال، كالرمال، اختفت الخطوط وبقي الطريق يتكيء على خطواتي المتعبة، التي تبدو كغرس نضيب، ووتد أبى أن يخرج من باطن الأرض لينعم بالحراك، فلم يكن أمامي سوى أن أقاوم، وأسير كالمطاط، الذي يخشى لحظة خاطفة للإرتداد، كان يجب أن أحافظ على ما جنيته من الأرض، وما جمعته من شواهد أقسم عليها إذا عجزت عن الوصول، أنني قد حاولت الوصول، لكنني أيقنت أنني صرت أسبق الشر بخطوة واحدة، فجماعات القبالاالتي قطعت عهدًا على نفسها ألا تتركني أصبحت عاجزة عن محو معالم الطريق، وإشارات الحقائق، بعد أن صرت أسبقها بخطواتي البطيئة، أوما أظنها بطيئة.

ابتسمتُ حينما رأيت "إبراهيم" يتلقفني مرة أخرى قبل أن أسقط بين براثن التيه، لألحق بركب القافلة التي كانت تتدفق من بين التلال وكأنها تُبعث من جديد بعد موت، عانقته بشدة، ثم شكرته على عودته، فشكرني على صبري، أخبرته بموت ناقتي، فشد على يدي قائلاً:

-لكل منا مهمته يا صديقي.

-لكن للفراق لوعة يا "إبراهيم".

-تذكر هدفك الكبير حينما تذكرك الأوجاع.

-الأوجاع أبدًا لن تنتهي.

-أوجاعنا تكمن في الجوع والعطش يا صديقي، فمن يمنع محتاجًا يُحرم من الحياة.

- وماذا عن أوجاع النفس؟

- نكويها بالنار.

نظرت إليه مندهشًا لإجابته السريعة، التي لا تضل طريقها إلى مسامعي، فكانت تنقر رأسي كما المطر، فعاد متحدثًا، أو متسائلاً:

-ماذا تنتظر من قوم يحملون منازلهم فوق ظهورهم، ويرتحلون بها يا صديقي؟

حدقتُ في عينيه للحظات، ولم أحرك شفتي بكلمة واحدة، بعد أن أصبحت على يقين أنني عاجز عن الإجابة، وعن كل إجابات الأسئلة التي طرحها، ويطرحها علىّ صاحب الحكاية طوال الرحلة، فلم أذكر أنني جادلته، أو راجعته في في إجاباته التي تسقط فوق رأسي كدلو الثلج حينًا، ودلو الزيت المغلي حينًا آخر، وربما تنتهي الحكاية وأنا على هذا الحال، أعيش حياتي بين سؤال، وجواب، جواب يحتاج إلى إجابات

تتولد منها أسئلة صغيرة، وكبيرة، تنشطر على ذاتي فتحولني إلى إنسان طيب جدًا، يُخطيء عدّ الأيام، ويُحصي الحصى على الرمال ولا يُخطيء، وينثر الماء على اللظى فيخمد، إنسان يرى فيكتب ولا يكتب، تظهر له النجوم في النهار، والكواكب، والأقمار، وترسل له الشمس أشعتها فلا يرى سوى النور المتيم بالصحاري والجبال، حتى صرت أنا الجبال، والرمال، والماء، صرت سهلاً، ووعرًا، ووديان، صرت كشقوق الأرض العطشى، والحجر الريان، هذا هو أنا الفارس الذي يضع على رأسه عمامته الزرقاء فتهابه الوحوش، والأفاعي، والجرزان، صرت أنا الإنسان.

ضربت القافلة خيامها على السهل المنبسط لتستريح، وتطعم إبلها وتستطعم من خشاش الأرض، وترتوي من الندى المتكاثف على الأجساد، فاستضافني "إبراهيم" في خيمته، علمني كيف أشعل النار من الشرر، وكيف أتوضأ بقطرة ماء، وكيف أصلي والسلاح من خلفي، وأرفع كفيّ بالدعاء، لأطلب من الله الخير للناس وأنسى نفسي-هكذا يُستجاب الدعاء-، ثم أخذ يحدثني عن "إبراهيم" الذي ألقاه قومه في النار، وخرج منها دون أن تمسه، فتوقف عن سرد القصة للحظات، وأخذ يحدثني عن "مازن" الذي خرج يبحث عن

حقيقة يبتغيها، فاختلطت عليه الحقائق جميعها، وحمل في حقيبته كل الحقائق التي لا يبتغيها، وبقيت حقيقته ضائعه بين الصحاري، ففتحت له المدن أبوابها لينهل من أخبارها حتى يكون العارف بها، اجتمعت حوله كل شخوصه تحمل إليه الرسائل، والعلامات، فضل عن ملامحهم، وبقي لا يرى سوى معالم الطريق، ونسي أن في الماضي لنا نظائر بعيدة من أنفسنا، نكرر حياتها القديمة كما هي بأزياء، وأسماء جديدة لم يقع عليها اختيارنا، فالطفل الذي ظل يطارده بين شوارع الحكاية، ومدنها هو "يس" ابنه، وكل فتاة التقاها هي "نهاد"زوجته بنت الرجل العسكري الصارم، وكل امـرأة طرحت عليه سؤالاً هي "أمه" التي غابت عنه، وظل يبحث عنها سنوات طوال، وكل رجل التقاه يطرح نفسه على الطريق هو "أبوه" الذي مات وترك له عصاه ينهل من مآربها، وكل شيخ علمه الحكمة هو "الدكتور إمام" الذي أهداه كتابه هذا وينتظر عودته ليضع له العنوان، وكل من رآهم على هيئتهم فقد رآهم، أما "إبراهيم"فهو"مازن" و"مازن"هو"إبراهيم" حامل الماء والسلاح، توقف عن حديثه، ثم نهض من مكانه قائلاً:

- إنها حقيقة ما قبل الحقيقة يا صديقي.

-أنت مازلت لا تعلم أين تكمن الحقيقة يا أنا.

-أنا العليم الذي يسكن داخلك، والعالم الذي يحدثك عن نفسك.

-لكني لا أشعر بوجودك داخلي.

-ستشعر بي حينما ترى ظلك منعكسًا على الرمال.

-الظل لا يمثل دورًا في حيوات من سبقونا يا صديقي.

صمت "إبراهيم"، صمت كثيرًا، كان يحملق في النور السماوي الذي استطال أمام باب الخيمة من الداخل، فصبغ كل شيء هنا بلون ثامن لم أره منذ خلقني الله، لم نره قط، صارت معه وجوهنا أشبه بروح تستعد للقاء الأبدي، اخترق "إبراهيم" هواجس الضباب المتسرب إلينا من أفواه الجبال في الخارج، دنا مني حتى شعرت بحرارة جسده الحاني تأتيني على حين غرة لتهشم حائل البرد الذي عزلني عن الدفء في تلك اللحظات، مدّ يده نحوي قبض على يدي، عانقني بقوة، عانقته، شدّ على ظهري حتى تقاطعت ضلوعي، أحاط بي من كل جانب، ذاب بين يدي، تسرب داخلي كدم دافق، غمرني، تشعب في شراييني، صار نورًا، صار قلبًا، صار أنا. اختفى "إبراهيم"، وبقي "مازن"، اختفى "مازن"وبقي"إبراهيم"، بقينا معًا.

في الصباح لملمت القافلة خيامها بعد أن أعلن الدخان المتصاعد

من أعين النار المحتضرة عن الرحيل، فسرت خلفها حاملاً الماء والسلاح، وحقيبتي، وكتابي، لم أكن غريبًا بينهم، ولم يعبأوا بكوني "مازن"أم"إبراهم"، المهم أنني أحمل لهم ما يريدون، حتى ناداني أحدهم باسمي "مازن" فأدركت أنني صرت قدرهم الجديد، لكن سرعان ما ناداني شخص آخر باسم "إبراهيم"، لم ألتفت إليه، نادى على "إبراهيم" كثيرًا، فقاومت النداء، ورحت أوزع عليهم نصيبهم من جرعات الماء، حتى ارتوا بعد ظمأ، فصاروا يروني كما يروني، لا "مازن"، ولا "إبراهيم" بل أصبحت لديهم مجرد رجل قوي يحمل لهم الماء والسلاح.

أخذت أتأمل الظل الممدد على الرمال تحت أقدام الإبل، ومن بين الأربطة الكتانية المتهدلة من كتل الملح، فخيل لي أنه ظلي الذي افتقدته منذ زمن طويل، افتقدت ملامحي التي غادرتني منذ طويت أبواب المدائن خلفي وقصدت الصحراء الشاسعة، وها أنا أراها كأنما أنظر في مرآة متكسرة، لقد أشفقت علىّ الرمال، وأقدام الإبل التي نأت بعيدًا ليبدو وجهي مكتملاً، صافيًا، خاليًا من الشوائب، والرتوش، والذنوب، لقد كان ظلاً يشبهني تمامًا، يبتسم، ويُقطب جبينه، ويحزن، ويفرح، وتنفرج أساريره، لكنه لم يتبعني، بل ظل متسمرًا في مكانه،

ملتصقًا بالرمال، رفعت يدي اليمنى، رفعت كلتا يديّ، لم يستجب، فأيقنت أنه صورة باهتة من صور الماضي، تركها أحد أشباهي هنا وذهب يبحث عما لا أعلمه، نظرت إليه نظرة طويلة، أودع بها ملامحي التي ربما لا ألتقيها أبدًا بعد هذا اليوم، ثم طويته خلفي، وركضت سريعًا كي ألحق بالقافلة قبل أن أفقد أثرها، وأعيش معلقًا بين مفارق الطرق من جديد، لكنني فقدتها بالفعل، وعثرت على قوافل أخرى تنحدر نحو الوادي البعيد، تتسرب في الدروب، والمسالك الضيقة كما الماء، فقافلة تحمل حريرًا، وقافلة تحمل تبغًا، وقافلة تحمل كتانًا، وقافلة تحمل بخورًا، وقافلة تحمل بهارًا، وأخرى خاوية لا تحمل شيئًا، فوقفت أعلى التلة الصغيرة وألقيت بصري بعيدًا فرأيت قافلتي تأخذ طريقها المستقيم نحو المحيط، قفزت من أعلى التلة سريعًا، وعدوت نحوها، لكن تداخلت القوافل، امتزجت، اختلط الحرير بالكتان، والتبغ بالبخور، والملح بالبهار، صاروا كتلة واحدة تسير نحو نقطة تلاقي كل طرق العالم المفقودة على مر العصور، فوقفت أتأمل المشهد المهيب، وأنتظر حتى تحين لحظة الانكشاف التي تتوحد فيها كل أغراض الحالمين من تلك الدنيا، أمام الوعد الكبير الذي من أجله سقطت كل الأحداث من أجساد البشر، فتشعبت في الأرض تبحث عن أهدافها، حيث تلتقي الآمال بالآمال، مهما افترقنا وضللنا الطريق،

فإن النهاية الحتمية تنظرنا جميعًا هناك حيث تنهي الشمس غروبها المائة والثمانين فوق سطح المحيط.

انبثقت قافلة جديدة تحمل كل شيء بعدما تلاشى التلاحم قاصدة الطريق، فلحقت بها سريعًا لعلها القافلة الأخيرة التي لن تمر بعدها قوافل أبدًا، ترجلت خلفها حاملاً الماء والسلاح، مشيت كثيرًا، قطعنا المسافات، وتقاطعت معنا الجبال التي أفسحت من أمامنا الطريق، فجاءت الشمس تتعامد فوق رؤوسنا، دنت، اقتربت، صعد البخار من حولنا، فقدت طاقتي على التحمل، توقفت. ابتعدت الشمس. اقتربت. دنت الشمس مرة أخرى، توقفت. فهطل المطر. ظهرت ملامح "إبراهيم" بينما كنت أبحث عن أثر القافلة على الرمال قبل أن تضيع معالمه، سألني "إبراهيم" الذي بدا جسده كرذاذ متقطع:

-لماذا أتيت إلى هنا يا فتى؟

-أتيت لأبحث عن حقيقة الحب، والخير، والجمال.

- الأشياء الجميلة تكمن داخلك وليست في أحداث الحكاية.

-لكني أدمنت اللعبة يا صديقي.

ابتسم "إبراهيم" ومدّ يده ليحمل عني الماء والسلاح، ثم تلاشى بين

المطر، فظهرت معالم الطريق جلية، كضوء سحري يبرق كالحياة الأولى، فوق النور الأول، مددت بصري صوب أدبار القافلة من بعيد، ورفعت رأسي للسماء، ثم سحبت نفسًا عميقًا أجدد به روحي القديمة بروح أخرى تستعد لنهاية الحكاية، فرأيت صورًا كثيرة تجري من أمامي، وكأنها قطع متوالية من حياتي الماضية، فتحت كتابي لأقرأ الحقيقة الجديدة، لكنني سرعان ما طويته بعدما اطمأننت على وجودها، فحملت حقيبتي السوداء، وسرت في طريقي مهتديًا بمعالمه الربانية التي وهبني الله إياها، بينما كانت رائحة اليود تقترب، كلما اقتربت أنا.

(١٠-مآرب أخرى)

لم يبق بيني وبين الحقّ تِبْيَاني ** ولا دليل ولا آيات برهان

هذا تجلّى طلوع الحقّ نائرةً ** قد أَزْهَرَتْ في تلألئها بسلطان

المحيط.

هنا تحط القوافل أوزارها، وتنتهي الرحلات، والمسافات، وتغيب الشمس، وينجرف السيل، وتتحلل المعادن، والعناصر، والكتل، والكميات، والأوزان، هنا تتوقف الآمال حيث وقف الفرسان يتضرعون إلى الله، ويشكون إليه عجزهم عن مواصلة الانتصارات التي حجبتها الأمواج، هنا تنتهي اللغة، والأسماء، واللهجات، والطبائع، والعادات، هنا تتوقف العروق عن نزف الدماء المهدرة، حيث لا يجد الرصاص

ما يعانقه إلا الفراغ، هنا تلتئم الحقائق كلها ويغيب نور المدائن إلى ظلام العابرين المستنجدين بنور الأرض، هنا المحيط الذي تسقط على شاطئه حبة الرمل الأخيرة التي يلفظها الزمن، ثم يموت منتحرًا على ظلال الصفر الكبير، ولاشيء يُجدي بعد فوات الأوان.

تركت حقيبتي على الشاطيء، وخطوت بقدمي في الماء، وخضت رحلة جديدة أصارع فيها الأمواج حتى أشعر بوجودي، وأصفع الحلم الطويل، حتى غمرني الماء، فأيقنت أنني ما جئت إلى هنا إلا من أجل الحياة، خرجت من المحيط وأنا أرفل كل الحقائق الماضية خلفي، كانت تتساقط من جسدي كما الذنوب، فالحقيقة الأخيرة حتمًا تحتاج أن أتطهر من كل الأحداث العابرة التي لا تنفع، ولا تضر، كي ألقاها نقية، صافية، لا شية فيها، ولا شوائب، نفضت عن جسدي قطرات الماء الأُجاج، فتناثرت على الرمال، ثم خلفت وراءها اثنتي عشرة عينًا من ماء مهين جمعت حولها أسراب النمال، والعقارب، والطيور المهاجرة تنهل منها، وتملأ حواصلها، وتبلل أرياشها، ووردتها السباع تشرب جوار الظباء فلا هي تطارد الطيور، ولا هي تحطم النمال، ولا هي تفتك بالظباء، فشعرت بأنني قد برأت من السقم الأخير الذي استوطن قلبي منذ خلقني الله، فصرت بشرًا عاديًا لا يفسد في

الأرض، ولا يسفك الدماء، مسحت بيدي على صدري، ومددت ناظريّ نحو الأمـواج المتلاطمة فهدأت، واستكانت، وصار المحيط كقلبي صفحة زرقاء خط فوقها أحدهم كتاب السلامة، لقد تخلى العالم عن الشر الآن، واندثر الدخان، وسكنت الأوجاع، وأصبحت الشمس تشرق على وجوهنا وتغرب من دون ندم، التفتُ خلفي حيث تسرد الصحراء حكاياها على القاصي القريب، والداني البعيد، وحدثتها عن حكايتي علّ الرمال، والتلال، والجبال، والوديان تذكرني، وترحم آثاري الرياح فتبقى راسخة كما وشم يشبه الفرح، ورسم يشبه قلوب الأطفال، نزعتني روحي لأنحني على جسدي، وأمرمغ هامتي فوق الثرى ساجدًا لصاحب الروح، وواهب كل البدايات، ومانح النهاية، سجدت طويلاً، التصقت بالصلصال، حتى رأيت اللحظة التي نفتقدها جميعًا، لحظة تشابكت فيها العظام، وصارت هيكلاً هشًا يطوي داخله خيرًا، وشرًا، يستره لحم ينتظره التراب.

كانت الفتاة الطارقية السمراء تخرج من كوخها كل صباح تحمل دلوين وتسير بهما على حافة الشاطيء، ثم تعود مخلفة وراءها خطًا طويلاً من الماء، فسألت نفسي لماذا تحتفظ تلك الفتاة بدلوها المعطوب الذي يفرغ كل ما فيه قبل أن تصل إلى كوخها؟!-نعتها بالغباء- ثم

انصرفت عن متابعتها، وأخذت أبحث عن ما أتيت إليه، بحثت كثيرًا، لكنني لم أعثر عليه، لم أر سوى تلك الفتاة التي ظلت تلاحقني بدلويها كلما حاولت أن هرب من سطوتها، فظلت ترسل لي نظرات غريبة في كل مرة لكنني لم أعبأ بها، فرحلتي عودتني ألا أشغل بالي بمثل هؤلاء، فلا فائدة من الحمقى المطروحين على طرق الحقائق، لكن الحياة هنا عودتني أن أعيش بينهم دون أن أقربهم، لكنها اقتربت مني، ومثلت أمامي، ثم وضعت أمامي دلو الماء الصحيح، ورحلت عني بدلوها المعطوب الذي ترك خلفها خطًا طويلاً ينتهي في كوخها، وقفت متسمرًا في مكاني، أطرح الأسئلة الكبيرة التي فارقتني منذ عبرت الهوة السحيقة، مددت يدي إلى الدلو، وغرفت منه حفنات من الماء احتسيها، ثم خلعت ملابسي واغتسلت، وتوضأت، لكنه كان كلما فرغ امتلأ، لم أندهش، ولم أُبهت بل تركته، وطرحت كل التساؤلات من خلفي، فأنا المنزه عن الإجابات التافهة، وأنا السائل الذي لا ينتظر سوى الحقيقة، والحقيقة فقط.

ظللت أبحث عن من ينتظرني تحت الشجرة وبيده الحقيقة الأخيرة، لكن لا وجود له بين الفراغ والماء، فالشاطيء شاسع جدًا، وطويل جدًا، والمحيط لا ينتهي أبدًا، وأنا مجرد نقطة سوداء تسير على رقعة كبيرة

ينشرها صاحب الحكاية على الرمال أمامه، ويجلس في خيمته متكئًا يتفرج، ويحتسي القهوة المُرة، ويأكل الفستق المملح، ولا يعتني بالأشياء الصغيرة التي تنزلق بعيدًا عن رقعته، فماذا بعد أن انقطعت الرسائل؟ وماذا بعدما انتهت كل الأشياء الصغيرة؟ وماذا بعد أن أصبحت وجهًا لوجه مع المحيط؟ لم يعد أمامي سوى أن أكتب له رسائله وأضعها في حقيبتي كي تصلني منه إليّ، فلا أعرف أين أنا؟ وإلى أين سأذهب؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟ إن الإجابات التي أنتظرها أعرفها جيدًا، لكنني بت لا أعرف أين تكمن الحقيقة الأخيرة، لا أعرف ما الذي أبحث عنه تحديدًا، لكنني أوقن بأن الأرض من تحتي، والسماء من فوقي، والصحراء من خلفي، والمحيط من أمامي، وعليّ أن أسلم بكل الحقائق القريبة التي تفرض نفسها بلا رحمة، فقد وقع سواري "كسرى" في يد "سراقة"، ولم تكن تلك بأسطورة ولكنه وعد نبوي واجب الوفاء، لكن أحدًا لم يسجل أبدًا ماذا فعل بهما "سرقة"؟ ومن ورثهما من أهله. فدائمًا لكتب التاريخ نهايات مفتوحة تتركك للإحتمالات التي تجعلك تترك قلمك وتضرب كفًا بكف وتبتسم. لم أعد أبتسم لأن الابتسام يجلب الحظ السيئ والضحك يجلب الموت، والحقيقة كائنة لا محالة، مهما سعينا إليها، لكنني مهما سعيت خلف حقيقتي الأخيرة أعود إلى

حيثما كنت، كأني لا أتحرك، بل أسير في مكاني، مهما حاولت الفرار إلى مكان آخر، بعيد عن الكوخ الفتاة اللعين التي لا تكل، ولا تمل من العودة بدلوها المثقوب فارغًا.

كانت أوراق خضراء قد بدأت في البزوغ من سقف الكوخ، وأزهار تنبت بطول الشاطيء حيثما سقط الماء من الدلو المثقوب، لقد عادت إليّ الآن حكاية الفتاة الصينية القديمة التي سخر منها قومها للسبب ذاته الذي جعلني أنعت فتاتي بالغباء –يا الله– كم هي غريبة حكايا الناس التي تتكرر أفعالها، وتبقى الحكمة كما هي لا تتكرر، ولا تتغير، لكنها تظل راسخة في الذاكرة لتعطي لمثلي درسًا كبيرًا بأن المعارف لا تنتهي أبدًا مهما بلغنا برحلتنا ألف محيط، ومهما حملنا في حقائبنا من كتب، فعقلي هذا الصغير كيف هيأ لي بأنني قد أصبحت أكبر بكثير من كل أفعال البشر، نعت نفسي بالغباء، وأخذت أفكر في أمر الفتاة التي اختفت في كوخها دون أن تغادره، وأردت أن أربح على هزيمتي بالإعتذار لها، لكن من يسع دائما للفوز يعش في تعاسة، ويمت بعد أن تقتله حكمة جدوى الحياة، تاركًا في جيبه سهمه الأخير لأحمق يأتي من بعده ليعيد المحاولة، فجلست أمام الكوخ أنتظر عودتها، لكنها أطالت الغياب، فخشيت أن ينتهي وقت الحكاية وأنا على حالي هذا، فقررت أن

أطرح كل تلك الأحداث من خلفي وأعود للبحث عن المحارب الأعمى الذي ينتظرني هنا، أو ربما أنا من أنتظره لتهدأ روحي، ويرتاح الفتى الشقي الذي يسكنني منذ الأمد، لكن لا أثرًا واحدًا يأخذني إليه، لا رسائل، ولا خرائط، ولا معالم، وإشارات، لقد تجردت من كل الدلالات، والرموز، والتكهنات، لقد أصبحت بلا شيء الآن، يبحث عن اللاشيء، في اللاشيء، خلف اللاشيء خلف اللافراغ، أصبحت أؤمن الآن بأنني يجب أن أصنع نهايتي بنفسي، قبل أن يضعها لي الآخرون، أما نهاية الحكاية فهي لصاحب الحكاية وعلىّ أن ألقي سريعًا بنقطتها الأخيرة اليوم قبل الغد، بعد أن احتطلت علىّ الأيام والساعات وبت أعيش على حافة الزمن خارج طقوسه الغوغائية اللعينة، أخرجت المخطوطة من حقيبتي وأخذت أتأمل البقع الحمراء، والسوداء التي تزاحم الرسم، والشكل، فظهرت بارزة كدوائر الضوء، لم أكترث بهذا العبث المنظم، وفضلت أن أعيش على أرض مخطوتي الكبيرة، فهي الأولى باهتمامي بعد أن فقدت ثقتي في كل الأحداث الأحادية التي خطها الأغبياء في هذا العالم، بأعينهم التي لا ترى سوى ما يريدون، وتهمل كل ما نريده نحن، لذلك يجب أن أبحث، وأبحث، وأبحث بكل قوة، حتى ولو لم أعثر على أي شيء، فيكفيني أنني قد عثرت على نفسي الضائعة وسط زخم

المدائن الزائف، الملوث بالسواد، فقد خلق الله الملائكة وفطرها على الطاعة، وحدد لها مهامها في تلك الدنيا، أما نحن البشر فقد حُصرنا بين الخير والشر، وللخير متعة تشبه متعة القهوة المرة، وللشر كل المتع بطعمها الحلو الذي تطوق إليه النفس، لكنها في النهاية تتوه وسط الغنج، وتضل طريقها بين الطرق المتشعبة التي تلقي بنا على شاطيء المحيط الأعظم، فمن عثر على ضالته قبل أن تجرفها البقايا إلى الأعماق السحيقة نجا، ومن ظل فاقدًا لحقيقته جرفته معها إلى حيث اللاذكرى، فيخرج من العالم دون أن يترك أثرًا واحدًا يخبر به الناس أنه كان هنا يومًا ما.

طويت المخطوطة ودسستها في حقيبتي، ونسيتها، أو تعمدت نسيانها، وأكملت رحلتي نحو الحقيقة الأخيرة، ففتاة الطوارق التي اختفت كان لها مآربها التي غفلت عنها، وأنا لي مآربي التي لا يجب أبدًا أن أفقدها، فعدت للسير أقتفي أثر ماء المحيط، قبل أن يرسل القمر بالمد الذي يهدم كل شيء، فتعثرت بطفلين يبنيان مدينة كبيرة من الرمال، كانا يضحكان، ويشيران إلـيّ من بعيد، فاقتربت منهما، فطلبا مني بأن أشاركهما البناء، فأخبرتهما أنني لا أجيد اللعب، فزادا من ضحكهما، ثم تحدث أكبرهما قائلاً:

- لقد أخذنا بنصيحتك وأخلينا مدينتنا من الوحوش والبشر.

فابتسمت له متذكرًا ما مضى، وأخذت أعيد ما أخبرني به "إبراهيم" عن شخوص الحكاية، فرق قلبي لفراق ابني، الذي تركته قبل أن ينتهي من لعبته، مسحت على شعرهما قائلاً:

- المهم أن يكتمل البناء قبل أن يلحق بكما المد.

- مدينتنا لا يأكلها الماء سيدي.

- الماء كما الصحراء يعدل بين الجميع.

نهض الصغير من مكانه، وهدم المدينة بقدميه حتى استوت والشاطيء، لكن بقاياها كانت لا تزال قائمة، ثم التفت إليّ قائلاً:

-هكذا ننهي كل شيء، ثم نأتي في الغد لنعيد البناء إذا أردنا.

-ربما لا يأتي الغد يا صغيري.

- إذا لم يأت فنحن أيضًا لن نأتي.

-تلك هي النهاية التي لا نختارها.

-لكننا حتمًا سنختار بدايتنا في العالم الآخر.

نظرت إلى قرص الشمس البعيد، بينما كان المد قد بدأ يغزو الشاطيء،

فانصرف الصغيران، وتركا لي ضحكة ساخرة، بها أعدت التفكير في كل حياتي الماضية، فلو علمنا نهايتنا لضحكنا كثيرًا على ما اقترفناه من أفعال مضحكة، وبحثنا عن بدايات جديدة.

عدت إلى حيث كنت. جوار الكوخ القديم، حيث بدأت شجرة اللوز الخضراء تفرد غصونها من بين عيدانه، يسكنها عصفور صغير يبني عشه، ويستعد للتزاوج مع شريكته الغائبة، -هكذا أقمنا أعشاشنا الأولى-، وبينما أنا كذلك انتشر عطر الزهور يملأ علىّ المكان، ويزكم أنفي بحقيقته الرائعة، فعلمت أنه ربيع الحياة قد أتى، حيث تبدأ فصول العام، أو تنتهي، فالأمر متروك لصاحب البدايات والنهايات، وعلينا أن نختار، ونطلق الأسماء كلها على الأشياء، بعد أن علمنا إياها منذ خلقنا، فجلست جوار الكوخ أتأمل المشهد الخلاب، الذي أزينه بوجودي على هيئتي تلك، فرأيت الفتاة تخرج من بابه، تحمل سلة صغيرة تصطفي فيها الزهور البيضاء، وتترك الزهور الأخرى لأسراب النحل الجبلي التي تهافتت لجمع الرحيق البحري الطازج، لقد أصبح الكل يعمل بجد ونشاط، ولم يعد لديهم الكثير من الوقت ليشعروا بوجودي، أما أنا فقد تظاهرت بقراءة كتاب الحقائق الذي ينتظر الحقيقة الحادية عشرة، وربما تظل الحقائق ناقصة، ولكنني على يقين بأن صاحب الحكاية

يدبر شيئًا ما في الخفاء، ليُفاجيء به الطبيعة التي تغزل الأحداث في الاتجاه الصحيح، لقد شعرت بملل للحظات، فعدت للبحث عن الرجل الذي ينتظرني هنا على شاطيء المحيط، لم أجزع بعد، لم أستسلم، ولن أكفر أبدًا بالحقيقة الأخيرة، لذلك سأظل أفتش عنه بين ذرات الرمال، وبين الصخور والحصى، سأقاوم الوقت الذي يصارعني لينهي رحلتي هو في لحظة يختار لي فيها الهزيمة، انتهت رحلة البحث، ففكرت أن أعود إلى أدواتي التي ادخرتها في الحقيبة، أفرغت محتويات الحقيبة على الرمال. قطع رقاع بالية، مخطوطة، كتاب، مفتاح منزلي، بعض الأعشاب، قنينة دواء فارغة، قميصي الملطخ بالدماء، صندوق سجائر، حبات من الفول السوداني، وقلمي.

أمسكت بالقلم، رسمت دائرة على الرمال، ثم سعلت سعلة شديدة فتناثرت الأحجار الزرقاء من جوفي صنعت عينتين وأنفًا، فصار الرسم وجهًا صامتًا بلا فم، شققت الفم بسبابتي، بدا وجهًا حزينًا، يحمل بين تقاطيعه كل مآسي الدنيا، لم يكن وجهًا يشبهني كما تتوقعون، أو كما توقعت، بعثرته سريعًا، ورسمت وجهًا آخر أكبر حجمًا، ثم قمت بتثبيت الأحجار الثلاثة في أماكنهم، وخططت فمًا عريضًا بسبباتي، فبدا وجهًا مبتسمًا، ساخرًا من الحياة، حدقت فيه طويلاً،

ونثرت فوقه حبات الفول السوداني، ثم غرست جواره عجاز الحكيم، ورحلت مع الرياح الشمالية العليلة، -هكذا نصنع المعالم على الطرق المبهمة-، عدت إلى الكوخ القديم، فرأيت شجرة اللوز وقد أثمرت، وأينعت ثمارها، أما طائر الحب فقد رافقته وليفة هادئة، ترقد على بيضها في سلام، وتنتظر لحظة الميلاد، بينما كانت الفتاة لا تزال تجمع في سلتها الزهور البيضاء، اقتربت منها بلا تردد، اعتذرت لها، فالتفتت إليّ ببطء شديد، ثم خرجت العبارات من بين شفتيها:

-الحمقى لا يجب أن تعتذر لهم سيدي.

-كنت أظن ذلك.

-من يرد الحقيقة لا يبحث عن مبررات.

-لقد صنع دلوك المثقوب حديقة غناء.

-الصدف لا تأتي عمدًا.

-لكن الصدف لم تمنحني الكثير.

-هل جئت تبحث عن المحارب الأعمى؟

- أشعر بأنني سأمنى بالهزيمة قبل أن ألقاه.

-لا تحاول أن تضع لنهايتك مسماها الأخير.

-لم أعتد أن أطلق مسميات أخرى على نهاياتي.

-ما زلت تحتاج إلى تدريب طويل أيها العارف.

-لقد سئمت اللعبة.

-حقًا. (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ). (سورة الأنبياء: ٣٧)

-لم أعد في حاجة إلى تلقي النصائح.

-انظر إلى أسفل ربما تجد الحقيقة ملقاة تحت قدميك.

ألقت الفتاة بنصيحتها الأخيرة، ثم انصرفت عني بملامح آسفة تحمل سلتها التي ظلت تتناثر منها الزهور البيضاء حتى بلغت كوخها.

أرهقتني الرحلة كثيرًا، أشعر بالجوع، والعطش، وبرغبة في نوم عميق، وتذكرت ما قالته لي فتاة القطار:

-ستتمنى مني كسرة خبز يومًا ما.

كم أشتاق إلى كسرة خبز الآن، إلى مزقة صغيرة من رغيف شعير جاف، وجرعة ماء أشق بها ظمأي، ذهبت على عيون الماء مررت بها واحدة تلو الأخرى، أغرف منها حفنات، وحفنات، لكنني لم أرتو بعد

أن تحول ماؤها إلى محلول قلوي بين مر، وملح، قبضتُ على الحصى بكلتا يدي، ونمت نومًا عميقًا، رأيت فيه فتًا ملثمًا يمد يده إلى شجرة لوز يأكل من ثمارها، ويعصر منه لبنًا، وماءً، فاستيقظت سريعًا حينما شعرت روحي أنها تقترب من الموت، عدوت ناحية الكوخ القديم، فاصطدمت بمعالم الطريق التي صنعها لي "الثعلب الشاحب" حيث عكاز الحكيم، والوجه الساخر الذي أيقنت أنه القدر، الذي رسمته على أطلال زمني العابس لأحصل على إجابات على كل أسئلتي، فنحن من نصنع المصائب العظام لأنفسنا، وننتظر من يأت إلينا بالفرج ملفوفًا في أوراق السوليفان، خلعت العكاز من مكانه، وألقيته في المحيط، فضحك الوجه كثيرًا، علت ضحكاته، بينما ظللت أتقهقر إلى الخلف مرتعدًا، حتى تعثرت بالكوخ القديم، فامتدت يد حانيه تجذبني داخله، فاشتد جوعي، وعطشي، قدمت لي الفتاة ثمار اللوز، وعصرت لي لبنًا، وماءً، فأعادتني إلى الحياة، أكلت حتى شبعت، وشربت حتى امتلأت، شكرتها كثيرًا، فاعتذرت لي ثم أشارت بسبابتها أسفل الشجرة، فرأيته يجلس متقرفصًا، رأيت من ينتظرني، لكنه لم يكن يراني، تشمم رائحتي، تحسس ملامحي، ثم وضع يده على صدري، قائلاً:

-انتظرتك كثيرًا يا فتى.

لم أنبس بنبت شفة، وجلست أمامه أحتسي ريقي الممتزج باللبن والماء، فوضع راحته على كتفي وهزني بقوة، فتساءلت متلعثمًا:

-هل نفذ الوقت أم؟

فمد يده يهديني حبة الرمل الأخيرة قبل أن تسقط في الجانب الآخر، قبضت عليها بكل قوة، ثم تنفست الصعداء، وأخذت أبحث في حقيبتي عن المخطوطة، فتشت كثيرًا بين أشيائي الصغيرة، فلم أجدها، فتحت قطع الرقاع فتفاجأت بأن أحبار الرسائل الغائبة قد عادت بكل التفاصيل التي فقدتها، لمع الوجه الساخر أمامي يبتسم، لم أعبأ بوجوده، ورحت أفتش عن ضالتي- أين ذهبت تلك الخطوطة بحق اللّه؟ -، فسألتني الفتاة في قلق:

-هل فقدت شيئًا ما؟

- المخطوطة. أين ذهبت؟ أين؟

-يا سيدي ما خُط على الرمال تمحوه الرياح.

صمتُ قليلاً لأتنفس، فعادت تسألني عن قميصي المدمم، فأخرجته من حقيبتي وناولتها إياه بلا اهتمام، قائلاً:

-لاحاجة لي به الآن.

فألقته على وجه أبيها فعاد بصيرًا، نظر يمينًا، فيسارًا، حدق في ملامح ابنته، في ملامحي، جال بناظريه بين أركان الكوخ، نهض واقفًا معانقًا ابنته التي اصطحبته إلى خارج الكوخ، ثم تحدثت إليه وهي تشير إلى درب الزهور:

-أبيت أن تكون الصحراء هي أول ما تراه بعد ملامحي.

حملت سلتها الصغيرة، وأخذت تنثر فوق رأسه الزهور البيضاء، فتوقف أمام المحيط، والتفت إليّ قائلاً:

-أتيت لتبحث عن الحقيقة؟

-الحقيقة؟

تساءلت وكأنني أسمع تلك الكلمة للمرة الأولى، فدار حولي مرتين، ثم أمسك بيدي، ليواجه بها ضوء الشمس التي توسطت السماء، فرأيت ظلي معانقًا لظله على الرمال، ترك يدي، فحركتها مرات، ومرات، فتحرك معها ظلي، قفزت لأعلى، فقفز ظلي، استلقيت على الرمال، فانعكس في السماء، نهضت من مكاني مفتخرًا به كالأطفال، فاهدتني الفتاة زهرة بنفسيجة، وطلبت مني بود أن أميط عن وجهي اللثام، فاستجبت لطلبها، وهممت أن أقبلها بين عينيها، فاقترب أبوها قائلاً:

-ملامحك لا تشبه الصحراء يا فتى.

-ملامحي تشبه ملامحي يا سيدي.

-منحتني النور فمنحتك الحقيقة التي تبتغيها.

-لكنها لا تزال ناقصة.

- منحتك الوقت وهذا يكفي.

-كيف أعود بكتابي هذا وقد خلا من فصله الأخير.

-لا بدَّ وأن تنهي رحلتك من حيث بدأت.

-الطريق لا تزال معكوسة سيدي.

-اقذف بحبة الرمل الأخيرة حيث يستلقي النهر.

-لقد تخطيت كل الحقائق المبهمة، فكانت رحلتي أقوى من كنز مفقود.

-لكنك تحتاج إلى عنوان تغلق به كتابك.

-هي رحلة جديدة إذًا.

-بل هي بداية تصنعها أنت لكل من أراد أن يحيك نهايته.

-وما الذي أجنيه من ذلك سيدي؟

أحنى الرجل رأسه على صدره، وزاغ بصره صوب المحيط، ثم التقط عكاز الحكيم الذي قذفته الأمواج أمامه، وجلس يحكي عن فارس قوي خرج مع قومه إلى الحرب يومًا ما، تاركًا خلفه ابنته، وزوجته، خاض أهوالاً كثيرة، وتلقى ضربات، وطعنات، لكنه في كل مرة كان يقاوم الموت من أجل أن يعود منتصرًا، لكن خذلته قوته، وكثرة أعادئه، فنجا بنفسه، لكنه عاد مهزومًا، يحمل راية سوداء، ونسي أن الهزيمة هي حقيقة لا تدوم كحقيقة النصر، فظل ينظر إلى مدينته التي لاحت معالمها من بعيد، ثم أغمض عينيه متظاهرًا بالعمى لأنه لا يقوى على رؤية نظرات اللوم المخضبة بالشفقة التي ستكون أشد عليه من وقع الطعنات، والضربات، والسحجات التي تلاقاها خلال حروبه الماضية، فلم يجد ملاذًا له إلا الظلام، الذي سيثأر لهم به من هزيمته النكراء، فهجر بيته، وآثر على نفسه أن يعيش بعيدًا في كوخ صغير يؤويه على شاطيء المحيط حيث الفراغ الذي لا فراغ بعده، والنهاية التي لا نهاية سواها، ماتت زوجته كمدًا على ضياع هيبة زوجها، وفراق أهلها، وذكريات الانتصارات التي حفرتها على جدران منزلها، فأراد أن يفتح عينيه ليلقي على وجهها نظرة الوداع، فتفاجأ بأنه قد فقد بصره بالفعل، فحرمه العقاب الذي اختاره لنفسه من نظرة الوداع الأخيرة،

وعاش يحلم برؤية ابنته الوحيدة ولو للحظات، فظلت تكبر جواره، وتقوم على خدمته دون أن تتركه أبدًا، فتسرب ألمها الشديد إلى قلبه كلما استيقظت على عجزه واستسلامه، الذي حوله إلى كائن ضعيف لم يعد يعرف أين يكمن ثغره ليتناول طعامه، وشرابه، حتى أتى يوم دعا فيه ربه بأن يرد عليه بصره ليسعد ابنته ولو للحظات قليلة، قبل أن ينتهي أجله، فيحررها من عجزه الذي أسرها جواره سنوات طوال، حتى كاد أن يقطف منها شبابها، صلى العشاء، ونام على وضوء، فإذا به يرى فتًا ملثمًا يحمل مصباحًا، وعكازًا، وكتابًا، وحقيبة سوداء، خرج من مدينته يسير في طريق طويل، يبحث عن حقيقة هي داخله، ويسابق زمنًا مقتولاً، قاصدًا كوخه الصغير على شاطيء المحيط، الذي أقامته ابنته من عيدان الخيرزان لتخفي عجزه، فألقى على وجهه قميصًا ملطخا بالدماء فارتد إليه بصره، لكن الفتى ظل يحمل مصباحه، ويسير صوب ظلام المحيط، فأراد الرجل أن يرد إليه الجميل، فخط له طريقًا مستقيمًا للنهاية هناك حيث يستلقي النهر، ويتوحد الزمن، وتهدأ كل نفس حائرة، فليس للعاشق سوى فؤاد واحد يجلس به مع الله حينما تنفض من حوله المجالس.

انهمرت الدموع من عيني، حتى طال لحيتي البلل، فربت على كتفي،

وضمني إليه، ثم أمسك بكتابي قائلاً:

-اقبض على كتابك هذا ولا تفقده أبدًا.

-وماذا عن قلبي؟

-سيظل ينبض في كل نفس تريد الحياة.

رفعت رأسي إلى السماء، بينما اتكأ الرجل على عكاز الحكيم، ممسكًا بيد ابنته، ورحلا معًا صوب المدينة، حيث ينتظره قومه، وبقيت وحيدًا أسكن الكوخ، فنمت تحت شجرة اللوز، متوسدًا بكتابي، ومتدثرًا بالرمال، حتى تسلل شعاع الشمس من بين العيدان، فأستيقظت على لحظة ميلاد العصافير التي أتى الله لها بلقيمات من خبز الشعير الذي طالما اشتهيته، وحرمته على نفسي، حملت حقيبتي، وكتابي وغادرت الكوخ مبتسمًا، إلى القارب الفضي الذي أرساه صاحب الحكاية على شاطيء المحيط، ليبحر بي إلى حيث تنتهي البداية، فظللتُ أنظر إلى الكونِ حيثُ يسكنُ الله في كل مكانٍ كان ولم يكن، وأبحث لنفسي عن مهرب أفر به إليه، تحدثت معه كثيرًا...فهو وحده من يمتلك كل الحلول، وهو وحده من يغير ولا يتغير، وهو وحده من يبتسم لي، ويحنو عليّ، ويأسرني لأتحرر من قيودي بالنهاية الكبرى.

(١١- عتق)

للعلم أهـلٌ وللإيمان ترتيـب ** وللعلـوم وأُهلِيها تجاريب

والعلم علمان منبوذ ومكتسب ** والبحر بحران مركوب ومرهوب

أدرتُ المفتاح في باب منزلي، ثم دلفت إلى الصالة، استقبلتني "نهاد" بصوتها الهادئ تجلس في مقعدي المفضل، تُمسك بالمصحف وترتل خواتيم سورة "يوسف"، أما مزرعة "ياسين" فما تزال في مكانها أمام الطاولة لكنها كانت قد امتلأت بالوحوش، لم أشأ أن أقاطعها بوجودي، لكنها كانت قد انتهت من ترتيل الآية الأخيرة (لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلـكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ) ، أغلقتْ المصحف ثم

حدقت في وجهي طويلاً، لكنها أعرضت عني سريعًا، واختفت في غرفة مكتبي، لم تستوعب وجودي بعد! هذا ما أدركته جيدًا، فذهبت أفتش عن ابني في غرفته، لكنني صُدمت عندما رأيت صورة تحمل ملامحه قد زيلت "نهاد" إحدى زواياها بشريط أسود، هل مات "ياسين"؟ هل قُتل "يوسف" حقًا كما تنبأ صاحب الحكاية؟ وقفت مشدوهًا، بينما سقطت دمعة دافئة على خدي الأيمن، ثم قررت الرحيل عن واقعي القديم الذي لم يستوعبني، بعدما أيقنت أنه لم يعد لي مكان فيه، خرجت من الغرفة، فالتقيت بـ"نهاد" وجهًا لوجه، فوقفت أمامي متسمرة، فأفسحت لها الطريق كي تعبر إلى أحزانها فربما تجد فيها السَّلْوَى، والملاذ- لقد بدلّ الحزن ملامحها كثيرًا- فبدت كأسطورة قديمة لم تكتمل، هممتُ أن أعانقها وأدفن حزني داخلها، لكن شيئًا ما منعني، فانسحبت في هدوء، وفي رأسي أسئلة كثيرة، لكن الحزن هو أقسى إجابة يمكن أن أتلقاها الآن، بعد أن انفطر قلبي وأصبح كحبة طالها الماء للحظات فأبت أن تنفلق، فأتاها غراب ونقرها بقوة ثم رحل، فظلت في جوف الأرض وحيدة لا هي أنبتت زرعًا، ولاهي تحللت وصارت ترابًا.

عند باب المنزل أوقفتني صورة أبيها بزيه العسكري، تفحصت زواياها

الذهبية الخالية من الشرائط السوداء، فتلك الصور لا يمسها الموت أبدًا، بل ستظل شاخصة على أبوابنا حتى قيام الساعة، لم أهتم كثيرًا بوجودها من عدمه، فلم أعد أمتلك ما يأسرني، ويجعلني خانعًا لمثل تلك الأشياء الكبيرة الضخمة، فالتفت إلى التاريخ المتأرجح بعيدًا أسفل ساعة الحائط، اقتربت منه لأتحقق من الماضي الذي طويته خلفي-يا الله- لقد لبثت في رحلتي إحدى عشرة سنة، أو يزيد قليلاً، أخرجت صندوق سجائري من الحقيبة، وتفحصت تاريخ الصلاحية فتفاجأت بأن التاريخ يطابق التاريخ، فأيقنت بأن أحداث الحكاية صارت تتحرك في اتجاهي الآن، أدرت مقبض الباب وخرجت إلى الشارع الفسيح، فرأيت صورة ابني باهتة تحمل شعارًا كبيرًا لثورة قامت وانتهت، تتهدل من المباني الشاهقة، ومن جدران المحال، وأعمدة الكهرباء، لقد صار شهيدًا اعتاده الناس، فنسته أعينهم، فسألت نفسي هل قامت ثورة أخرى غير التي غادرتها وتحتاج إلى ثورة أخرى لتنتهي؟ لكن الفخار الذي ملأني ضمد كل أحزاني بعد أن خلد "ياسين" اسمه في مخطوطة الخلود التي عُثر عليها معلقة في سقف مقبرة أحد خدام الملوك المجهولين، لقد تحقق حلم "مانو"، وصدق "إبراهيم" ف "يوسف" هو "ياسين"، و"ياسين" هو "يوسف"، شققت صفوف السيارات، والناس،

أزحت الشوارع، والمسافات، قاصدًا بيت "الدكتور إمام" ليضع لي عنوانًا لكتابي كما وعد، لكنني قبل أن أمد قبضة يدي لأطرق بابه، أخذت أخمن ماذا يكون العنوان الذي انتظرته طويلاً؟ طرقت الباب، طرقته كثيرًا، وبعد غياب ليس بطويل، انفتح أمامي، استقبلني خادم "الدكتور إمام" يرحب بي، ويحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا، سألته عن صديقي صاحب المنزل، فأخبرني بأنه قد رحل عن الدنيا قبل مجيئي إلى هنا للمرة الأولى باثنتي عشرة سنة، وترك لي كتابًا أهداه لي بنفسه، ثم غاب إلى عالمه مرة أخرى، وترك لي هذا الصندوق الذي يحوي رسالة، وقالب شيكولاتة لابني "ياسين"، ثم نصحني بأن أفتحه هناك حيث يستلقي النهر، فهناك فقط أستطيع أن أقرأ رساتي الأخيرة، لم أكن أفهم ما يرمي إليه هذا العجوز الشرقاوي الطيب، هل أهداني هذا الكتاب رجل ميت بالفعل؟ هل من ترك لي هذا الصندوق رجل ميت بالفعل؟ هل يتبادل الموتى الشيكولاتة؟ ويكتبون الرسائل؟ هل حقًا مات "الدكتور إمام" قبل أن أخوض رحلتي تلك الطويلة التي أرسلني إياها؟ أمسكت بالصندوق بينما أغلق الخادم الباب وتركني مضرجًا في حيرتي.

عدت إلى الشارع حيث تكمن مواخير العوادم اللعينة، بألوانها القاتمة

التي علقت بالجدران، والوجوه، والتقاسيم، والقلوب، فصار الجمال قبحًا أزليًا تغطيه أوبار الأسى، والقهر، والفقر، والجهل، والمرض، والحرمان، حيث الأطفال الشيوخ، والشيوخ الموتى، حيث القبور المتحركة بأحشاء الناس المكدسة بالقمامة، والروث، حيث الدخان الذي يمتزج بالأنفاس، والأكباد، والأرواح، حيث انجلى، العطر، والأمل، وزاحم اليأس اللقيمات، وجرعات المياه، فباتوا يستطعمون القمامة، ويتجرعون الهم، والكمد، فاستبدلوا الصحون بالتوابيت، والملاعق بالخناجر الطاعنة في العدم، فأي حقيقة يبغيها هؤلاء بعد أن تحولوا إلى وحوش تتشاجر على الجيف؟ بعد أن غاب عنهم حلال الأرض، وتقلصت في أفواههم نعم السماء، حتى أضحى كل واحد منهم لا يبتغي سوى بضعة سنتميترات تحتويه، يعيش فيها، ويموت مصلوبًا عليها، أي حقيقة يبتغيها هؤلاء السكارى؟، المغيبون عن كل الحقائق التي أوجدها الله، الطوفان.

الطوفان هو الحقيقة الوحيدة التي أتمناها الآن، ليغسل الأرض، ويستبدل المسوخ المشوهة بأزواج طاهرة، تهبط من سفينة جديدة يرسيها الله على رؤوس هؤلاء الذين يصنعون الأصنام بأيديهم ثم يعبدوها، بعد أن انتشر الضجيج في كل مكان يملأ عليهم أسماعهم،

حتى امتزج بالترانيم، والتراتيل المقدسة، فقدسوه، وغفلوا عن بلابل الدوح التي تصدح بالجمال، أي حقيقة يبتغيها هؤلاء؟ أي حقيقة يقدسها هؤلاء بعد أن باعوا أنفسهم للطواغيت، الجرذان التافهة؟

قادتني قدماي تجاه "الدرب الأصفر" فقد اشتهيت أن أرى نفسي كيف بدت الآن بعد أن اقتربت الرحلة من نهايتها، دخلت من باب "النصر" فلم تمنعني أحداث الحكاية من العبور بعد أن اعتدل الاتجاه، دلفت إلى الداخل، فصادفت صاحب الحانوت يجلس أمام دكانه، بينما وقعت عيني على شاب وسيم يقوم بترتيب الأغراض القديمة المتكدسة على الأرفف-فما أروع أن تتفرج من بعيد على حكاية أخرى لا تخصك- ، عبرت إلى الزقاق المظلم حيث يقف المهرج ينادي على "صندوق الدنيا"، فاجتمع حوله الأطفال يتسابقون على الدخول، نظر لي المهرج نظرة طويلة، ثم أفسح لي الطريق مبتسمًا، فرحب بي صاحب الصندوق، وأشار بعصاه إلى المقعد الأخير كي أجلس، بعد أن شغل الأطفال المقاعد الثلاثة، أطفأ النور، وصاح بصوت بهلواني جذاب:

- الآن اكتملت المقاعد. هيا بنا نبدأ اللعب.

مددت بصري إلى النور البعيد الذي ظل يكبر، ويكبر، فرأيت نفسي

أقف خارج دائرة من النار تحيط بكل من عرفتهم خلال رحلتي الطويلة يستغيثون، بينما كنت أمد لهم يدي، وأخرجهم واحدًا، تلو الآخر، خمدت دائرة النار، رحلوا جميعًا إلى حال سبيلهم. وعاد الضوء، اختفى المشهد تمامًا وتلاشت بؤرة الضوء، فصاح صاحب الصندوق:

-الآن افرغوا المقاعد للمنتظرين. انتهت اللعبة.

حدقت في وجهه، وهززت رأسي معبرًا عن إحساس بالرضا، وغادرت المكان، بينما همّ بقلب الساعة الرملية على جانبها الآخر، لتبدأ رحلة جديدة لا علم لي بها.

في الخارج كان المهرج ما زال ينادي في الأطفال على صندوق الدنيا، فوقفت أتأمل وجهه الملطخ بالألوان، وأفكر فيما رأيته داخل الصندوق، فكيف أُغيث أناسًا، استغثت بهم وخذلوني؟ إنها ضغائن القلب التي ما زالت تعشش في ضمائرهم، وهجرتني، وبينما أنا على حالي هذا انفجرت في أذني ضحكة خليعة لامرأة تقف في مستشرف بيتها، ترتدي ملابس شبه عارية، وتشير لي بسبابتها أن أصعد إليها، فارتعب قلبي من هول الذنب العظيم، أعرضت عنها سريعًا، بعدما رأيت برهان ربي في الآفاق، التفتُ إلى كلب ضخم ينبح في ركن بعيد، وقطة ترد

عليه بمواء غاضب من الركن المقابل، حدقت في عينيها اللامعتين، وتذكرت أن الخزعبلات القديمة تقول "إن من ينظر طويلاً في أعين القطط تصيبه بالعمى"، سحبت عينيّ من عينيها، وأشحت بوجهي عنها، فقفزت من مكانها، حينما ركض الكلب خلفها، لتبحث عن ملاذ من هبته المفاجئة، فأيقنت أن أحداث الحكاية قد عادت تسير في اتجاهها الصحيح، سرت أتفرج على كل شيء حولي قاصدًا الخروج من باب الفتوح، فهكذا تخرج الجيوش، وتعود منتصرة.

في ميدان طلعت حرب، وقفت أتأمل مدرس التاريخ الذي أخذ يثرثر وسط طلابه قائلاً: كان الخديوي إسماعيل يحلم بأن يحول القاهرة إلى مدينة تُضاهي باريس في جمالها، فقام بجلب العديد من المهندسين الإيطاليين والفرنسيين لتشييد تلك العمارات على الطراز الأوروبي، وعند الانتهاء من التشييد تم تسمية الشارع والميدان باسم ميدان "سليمان باشا" نسبة إلى "سليمان باشا الفرنساوي" مؤسس الجيش المصري إبان عهد محمد على باشا، وتم إنشاء تمثال له في وسط الميدان. وظل هذا الميدان يحمل اسمه حتى قيام ثورة يوليو، فقررت الحكومة التخلص من الرموز الملكية جميعها، فقامت بنقل تمثال سليمان باشا إلى المتحف الحربي في القاهرة، ووضعت بدلاً منه هذا

التمثال للاقتصادي المصري طلعت حرب.

نظرت إلى الطلاب، وانتظرت أن يخرج عليه أحدهم معترضًا، لكنهم ظلوا يدونون ما كان يلقيه عليهم بدقة متناهية، غير عابئين بمسلمات التاريخ التي لا يسمح أبدًا بالاعتراض عليها، ابتسمت، بل ضحكت لانصياعهم التام لما يقوله هذا المدرس المخبول، ورحلت عنهم وأنا أعيد في ذاكرتي أحداثًا عاشها الطالب المتمرد، الذي اعتذر لمدرسه على مضضٍ تحت هذا التمثال يومًا ما، فهكذا تتبدل التماثيل، وتجف على قواعدها، وتموت، ثم يأتي من يصنع تمثالاً آخر أكثر شموخًا، وعنفوانًا، فيظل واقفًا في الأعلى، يحمل في يده وثيقة دوَّن فيها أفكاره القديمة، ويشير إلينا بسبابته لنسير على نهجه قبل أن يغلبه التمثال الجديد.

جلست على مقهى "جروبي" أُتابع الطلاب، ومدرسهم، فقاطعتني النادلة، ووضعت أمامي ورقة وقلمًا، وأشارت لي بيدها أن أكتب ما أريده، فأحجمت عن الكتابة وقلت لها:

-أريد قهوة مرة.

فهزت رأسها وعادت تشير لي بأن أكتب ما أريده، استسلمت للأمر،

وكتبت مستغربًا، التقطت الورقة في صمت، وغابت للحظات، ثم عادت بما طلبت، فجلست أحتسي قهوتي، وأتظاهر بقراءة كتاب الحقائق الذي لا يزال خاليًا من الحقيقية الأخيرة، مرت ساعات مكثت فيها أتأمل المارَّة والباعة الجائلين من خلف جدار زجاجي يحجبني عن صخبهم، بعدما انصرف المعلم وطلابه دون أن يحدث أي شيء غير اعتيادي، فرأيت "النادلة" تقف على الرصيف المقابل وترفع لافتة كتبت عليها وجهتها لسائقي التاكسي، حتى توقف أحدهم وسبَّها بأمها وأبيها ولعن التظاهرات، والثورة، فأيقنت أنه لا يقرأ، ولا يكتب، نهضت من مكاني مسرعًا تاركًا خلفي الكتاب، وثمن القهوة، وخرجت لأبحث عنها، لكنني لم أجدها في مكانها، عدت إلى المقهى بعدما تذكرت أنني قد نسيت شيئًا ما، فتفاجأت بها تجلس على طاولتي تحمل بين يديها الكتاب، جلست أمامها، وصمت للحظات، ثم تحدثت قائلاً:

-بحثت عنك كثيرًا.

-لن تعثر عليّ أبدًا.

-ظننتك بكماء.

-وعمياء إن أردت.

-إذًا فما حاجتك إلى ورقة وقلم ولافتة؟

-صمت الحقائق يا صديقي لا يحتاج للكلام.

- لكننا في زمن يُقدس الكلام.

-لا تجعل الأحداث التافهة تُفقدك كتابك.

-هل عدتِ من أجله؟

-من أجلنا عدت.

ناولتني الكتاب، ثم انصرفت إلى الشارع مسرعة، وكأنها على موعد ما، فأخذت أراقبها حتى اختفت بين الزحام، دون أن تلتفت خلفها، فجلست في طاولتي أحتسي قهوتي، وأفكر في أمر هذا الرجل الذي يسكنني منذ آلاف السنين، والذي يُجْبرني على تقمص دوره ببراعة، حتى أجبرني على حمل صندوق سجائر في حقيبتي رغم أنني لا أهوى التدخين، وقعت عيني على رجل يجلس وحيدًا بمحاذاتي، فبقيت أرمقه طويلاً لغرابة ملامحه، لكنه قبل أن يهم بالخروج من المقهى، عرج إلى طاولتي، وانحنى عليّ ضاربًا كلتا يديه أمامي، ثم سألني بعصبية:

- لماذا كنت ترمقني طوال هذه الفترة؟

فأجبته وأنا أحاول أن أخفي خجلي بصعوبة:

-لم أنتبه إليك سوى الآن.

-لقد أفسدت عليّ احتساء قهوتي.

-اسمح لي أن أعوضك بفنجان غيره.

جذب مقعدًا وجلس ليشاركني طاولتي، ثم أخذ يحدثني عن جحود أبنائه الذي أفنى عمره كله من أجلهم، ورفض أن يغادرهم، أو يرحل عنهم ولو للحظة واحدة حينما كانوا أطفالاً، لكن حينما اشتد عودهم، تركوه وحيدًا، وهاجروا إلى أوطان أخرى، فظل يترجى منهم الرسائل حتى انقطعت، اغرورقت عيناه بالدموع، فأخرج منديلاً ورقيًا، وجفف ما سقط منها خلف نظارته الطبية، ثم تحدث إليّ بلهجة هادئة:

-رأيتك تستبدل وجودي بكتابك هذا فأردت أن أقول لك أنا هنا.

-أعتذر لأنني لم أكن أشعر بوجودك.

-لا تجعل كتابك يصرفك عن من يحتاجك.

-لم أكن أعلم.

علق بصره بين عينيّ للحظات ثم أردف قائلاً:

-ليت بالكتب وحدها نعلم كل شيء.

تنهد بحسرة، ثم انصرف عني بعدما قام بسداد فاتورة الحساب كاملة، حاولت أن أُثْنِيه، أن أُبْقيه معي، ناديته كثيرًا، لكنه لم يستجب لندائي، وظل يسير في الشارع وحيدًا لا يقاوم دموعه، طويت كتابي، ورددت ظهري إلى الخلف، محاولاً استيعاب تلك الأحداث التي تتقافز من حولي، وتذوب سريعًا كحبات السكر، دون أن تترك أثرًا سوى في نفسي التي تحولت إلى جفنة ضخمة تجمع داخلها كل الفتات، والبقايا، طلبت من النادل أن يشعل شمعة على طاولتي، ثم غادرت المقهى، وتركتها لمن سيأتي بعدي قبل أن تنتهي.

تمنيت كثيرًا أن أعيش في فيلم من كرتون، ألوانه زاهيه، شوارعه نظيفة، يمتلئ بأبطال لا يطالهم الموت مهما اخترق جسدهم الرصاص، لكنني ولدت في فيلم طويل أقوم فيه بدور شرير أحمق يحمل مسدسًا كبيرًا، ويطلق النار على كل الشخوص حتى بقى وحيدًا لا يجد من يكتب له كلمة النهاية، فظل يعيد دوره مرات، ومرات، فصفق له الجميع، وصار بطلاً تتصدر صوره "الأفيشات"، والجرائد، ويتقمصه الأطفال، لكنه ظل لا يعرف دوره في الحياة، فعاش يتقمص كل الشخوص ونسي نفسه، فخرج يبحث عن نهاية ينقذ بها الناس جميعًا، لكنه عاد بنهايات ناقصة لم

يتممها أصحابها.

في الحافلة المتجهة صوب "مرج البحرين"، جلست في المقعد رقم (١١) أما المقعد رقم (١٢) فظل شاغرًا كما العادة، لكن ما الذي سيقذفه صاحب الحكاية وأنا في طريقي إلى النهاية التي يبتغيها؟ فصعد الصبي يوزع علينا كتبًا لمواعظ صغيرة في صمت، ووقف ينتظر من يبْتاع، أما بائع السجائر فلم ينتظر كثيرًا بعدما نفدت بضاعته، لكن السائق لم يمهل المبتاعين حتى ألقى بتعليماته عبر الميكرفون الداخلي بالإقلاع عن التدخين، لملم الصبي مواعظه كاملة، ثم هبط إلى الشارع غير عابئ بخسارته، أخذت أتابعه حتى قفز بجسده الضئيل إلى حافلة أخرى، التفتُّ إلى مقعدي الشاغر فتفاجأت بالقسيس يجلس مبتسمًا، حدجت ملامحه طويلاً، وانتظرت أن يلقي إليّ برسالته، لكنه ظل صامتًا لا يتكلم، ثم نهض من مكانه متجهًا إلى المقاعد الخلفية، فأتت فتاة القطار تحمل في يدها كسرة الخبز، وتجلس مكانه، فنظرت إليها طويلاً وانتظرت أن تعيد عليّ طلبها، لكنها ظلت صامتة، ثم نهضت واستبدلت مقعدها بمقعد آخر في الخلف، ثم أتت "نهاد"، وتلتها "مانو"، وفتاة "الواحة"، والقاضي، وفتاة الثلج، ورجل المحيط، ثم "إبراهيم"، لكن في النهاية عاد المقعد شاغرًا من المتهافتين،

والمبتسمين، والواجمين، وبقيت وحيدًا في مقعدي أنتظر اللحظة التي سيعلن فيها السائق عن حقيقة الوصول، التفت إلى الخلف فرأيت الحافلة خاوية تمامًا من المسافرين، أو هُيئ لي ذلك، فلم تعد لدي رغبة في رؤية أي إنسان بعد أن سئمت كل الوجوه الثانوية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فما أبتغي رؤيته الآن هو وجه جديد يحمل لي بشرى النهاية، ويضعني في بؤرة النور الإلهي المتجلي في النفوس التي تسعى صوب النور كما الفراشات الملونة، أزحت الستار عن النافذة الزجاجية، وأخذت أتفرج على الكتل المتحركة في الخارج، وأسأل نفسي كطفل صغير يجلس في حِجر أبيه في القطار، لماذا تتحرك تلك الأشياء، وأنا ما زلت هنا؟ لوكان يعلم الطفل الصغير أنه هو من يركض نحو النهاية ما شعر بتلك المتعة التي منحتها له الخدعة الكبيرة، فالحقائق، والقوانين، والمسائل، والمعادلات، والمسلمات، لا تعي بعد ما يرنو إليه طفل مثلي، عاش يؤمن بأن الشجر يلوح له من بعيد، ويودعه، فسحقًا لكل الحقائق التي تمحو فرحات الأطفال، وسحقًا لكل القوانين والمعادلات التي تحكي قصصًا جامدة تقتل المشاعر، وتصدم المعنى الجميل، فالسحب في السماء هي أرانب برية، أفيال ضخمة، خيول بيضاء، فتيات حسناوات، ووجوه نألفها، وليست أبخرة وغازات، ومن

جاء يقول بأن القمر مجرد حجر مظلم، هو إنسان مجنون لا محالة، فما أجمل أن نعيش حقائقنا كما نبتغيها.

لم يكن الطريق إلى "مرج البحرين" طويلاً، بل ذكرياتي هي التي أخذتني إلى دنيا أشبه بنصف شمس صفراء، ونصف قمر مظلم، وشهاب أخطأ هدفه، فظللت أجر خلفي كرة كبيرة من الصوف وأسير على الشاطئ، فنظرت إلى مراكب الصيد الراسية بنظام فطري عجيب، وإلى الأطفال الذين جلسوا مصطفين على شاطئ المياه، وإلى ملامحهم الواحدة التي تشبه حلقة كبيرة انفرجت في مياه راكدة خلفها حجر ألقاه رجل شارد في همومه، ورفعت رأسي إلى السماء الصافية منتشيًا، بل متهيبًا اللحظة التي ستجتمع فيها كل النقاط المتفرقة في جسد واحد، وكأنني سأرى "أوزريس" مكتملاً في ذلك المكان بعد أن مزقه الأشرار، فاقتربت من الأطفال لأسألهم عن منتهى النهر لكنهم كانوا قد رحلوا جميعهم إلا طفلاً واحدًا جلس يصطاد السمك بصنارته البوص، فوقفت جواره، وطرحت عليه السؤال التفت نحوي، وهز رأسه ممتعضًا ولم يجب، فأعدت عليه السؤال لكنه لم يعاود الالتفات نحوي، ولم يجب، فجلست جواره فتساءل قائلاً:

- هل تجيد صيد السمك؟

- لم أجرب أبدًا من قبل؟

- إذًا فكيف تقبض على حقائقك؟

- أبحث عنها في كل مكان.

- وهل تأتيك خاضعة؟

- بل أذهب أنا إليها.

- إذًا فما تحصل عليه هو ما ظهر فقط من جبل الجليد.

- أين تكمن نهاية النهر يا فتى؟

- ابحث عنها كما اعتدت أن تبحث عن حقائقك.

-سأحصل عليها بكل تأكيد.

-لقد صعد موسى إلى الجبل وأراه الله الأرض ثم مات دون أن يطأها.

نهض الصبي من مكانه، حمل مقطفه على كتفه، وترك صنارته في الماء، ثم رحل صوب قريته، دون أن يلتفت نحوي، أو يعبأ بوجودي، فقبضت على الصنارة وجلست لأكمل الصيد، فأخرجت سمكة كبيرة، فرحت بها فرحًا شديدًا، ثم أعدتها إلى النهر قبل أن يلحقها الموت.

حملت حقيبتي، وسرت بمحاذاة الشاطئ علني أصل إلى مجمع

البحرين، لكنني تفاجأت بالصبي يعترض طريقي، ويسألني عن سمكته، فأجبته مندهشًا:

-ألقيتها في النهر.

-ألم تكن في حاجة إليها؟

-جئت أبحث عن منتهى النهر.

-لن تحصل على ضالتك حتى تعيد إليّ سمكتي.

أعطاني الصبي صنارته، ثم أمرني أن أصطادها له مرة أخرى، فاستجبت لطلبه، وجلست على الشاطئ، ثم ألقيت بطرف الخيط في النهر، وانتظرت حتى التهمت سمكة الطعم، فنزعتها سريعًا، ومنحتها إياه، فمد يده ليقبض عليها، ثم ألقاها في النهر قائلاً:

-ليست تلك سمكتي يا هذا.

فعدت للصيد مرة أخرى وأنا على يقين تام بأنني قد وقعت فريسة لصبي مخبول، لكن لم يمر من الوقت الكثير حتى التقطت الصنارة سمكة أخرى، فعرضتها عليه، قلبها يمينًا، فيسارًا، بادرته بالسؤال:

-أليست هي؟

-كأنها هي.

وضع الصبي السمكة في مقطفه، ثم أشار لي صوب البحر، قائلاً:

-هناك يستلقي النهر.

-لم أعد في حاجة إليك بعد أن دلني الشاطئ.

- لقد علمتك صيد السمك وهذا يكفي.

التصقت في الأرض للحظات، وأنا أتابع الصبي الذي حمل مقطفه على ظهره، ورحل صوب قريته، مبتسمًا ابتسامة ساخرة.

كان الغروب يستعد لإسدال ستائره على نافذة العالم، فنزلت إلى القارب الفضي الذي أرساه صاحب الحكاية على الشاطيء، وأخذت أمخر بين مفارش ورد النيل، متجهًا صوب نقطة اللقاء الأبدي، هناك عند المربع الوجودي الأعظم، حيث يتقاطع النور بالظلام، والملح بالعذب، والصوت بالصمت، توقف القارب حيث شاء صاحب الحكاية، أخرجت الصندوق لأقرأ الرسالة الأخيرة، وأهدي قالب الشيكولا لمن غاب عني طويلاً، وعلمني كيف يموت الشر في المزرعة الكبيرة، فرأيت وجهه يمتزج بوجه "إبراهيم" ويتوسط الخط الفاصل بين العذب والمالح، فألقيت إليه بهديته، فابتسم لي ثم ذاب في الماء، فتحت الرسالة التي

انتظرتها طويلاً فوجدتها خالية من حقيقتي التي أسعى إليها، فإنما هي "مآرب أخرى" التقيتها، وعشت معها خلال رحلتي الطويلة التي غزلتها بالرمال، والحجار، والثلج، والماء، والآن يعتقني منها صاحب الحكاية، لتبقى خالية من حقيقة خرجت أبتغيها دون أن أعي أن هناك حقائق أخرى، يبتغيها غيري ليحيا بها ولو للحظات، نقشت العنوان بقلمي على غلاف الكتاب الذي خلا من فصله الأخير، فأضاء، ألقيت بحبة الرمل الأخيرة في الماء، فهاج البحر، وعلت الأمـواج، واهتز القارب، امتزج العذب بالمالح، والنور بالظلام، والصوت بالصمت، دارت الدنيا من حولي، تبدلت الاتجاهات، غمرني الماء، رأيت أمي تقف هناك في الجانب الآخر، تنادي من بعيد، رأيت أبي، أخي، ابني، و"إبراهيم"، و"مازن"، رأيت صاحب الحكاية، بلغت الشمس غروبها الأخير، هدأ البحر، سكنت الأمـواج، وطفا الكتاب على سطح المياه يضيء في الظلام، ويسبح من جديد صوب المدينة الصاخبة.

-تمت-

دمياط الجديدة

١٩يناير ٢٠١٦

شكر وتقدير

أقدم شكري وامتناني إلى كل من ساعدني على وضع هذ الكتاب بين يدي القاريء وأخص بالذكر زوجتي الحبيبة، والأصدقاء (نهلة بكر، مي عادل، محمد سليم، د.ولاء محمد، د.عيد إبرهيم، صاحبة العتق، معاذ عمران، حسام عبد الغني، رباب أبو بكر، محمد عماد محيسن".

محمد سامي البوهي

صحافي وروائي مصري صدر له :

١-لوزات الجليد مركز الحضارة ١العربية ٢٠٠٨

٢-رائحة الخشب شمس للنشر والإعلان ٢٠٠٩

٣-أوطان بلون الفراولة دار العين ٢٠٠٩

٤-سكترما دار أكتب ٢٠١٠

٥-بلوتوث دار أكتب ٢٠١٠

٦-الثورة ٢٥٥٢ كتاب كوميكس مع (إسلام جاويش) دار أكتب ٢٠١١

٧-الرئيس لا يأكلها تفاحا طنطا بوك هاوس ٢٠١٢

٨-الأسماك تضيء أيضا دار نون ٢٠١٥

للتواصل عبر facebook :

www.facebook.com/mohammed.s.elbohy

email: blkbohy@hotmail.com

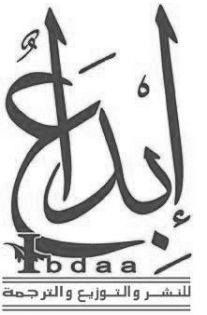

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com